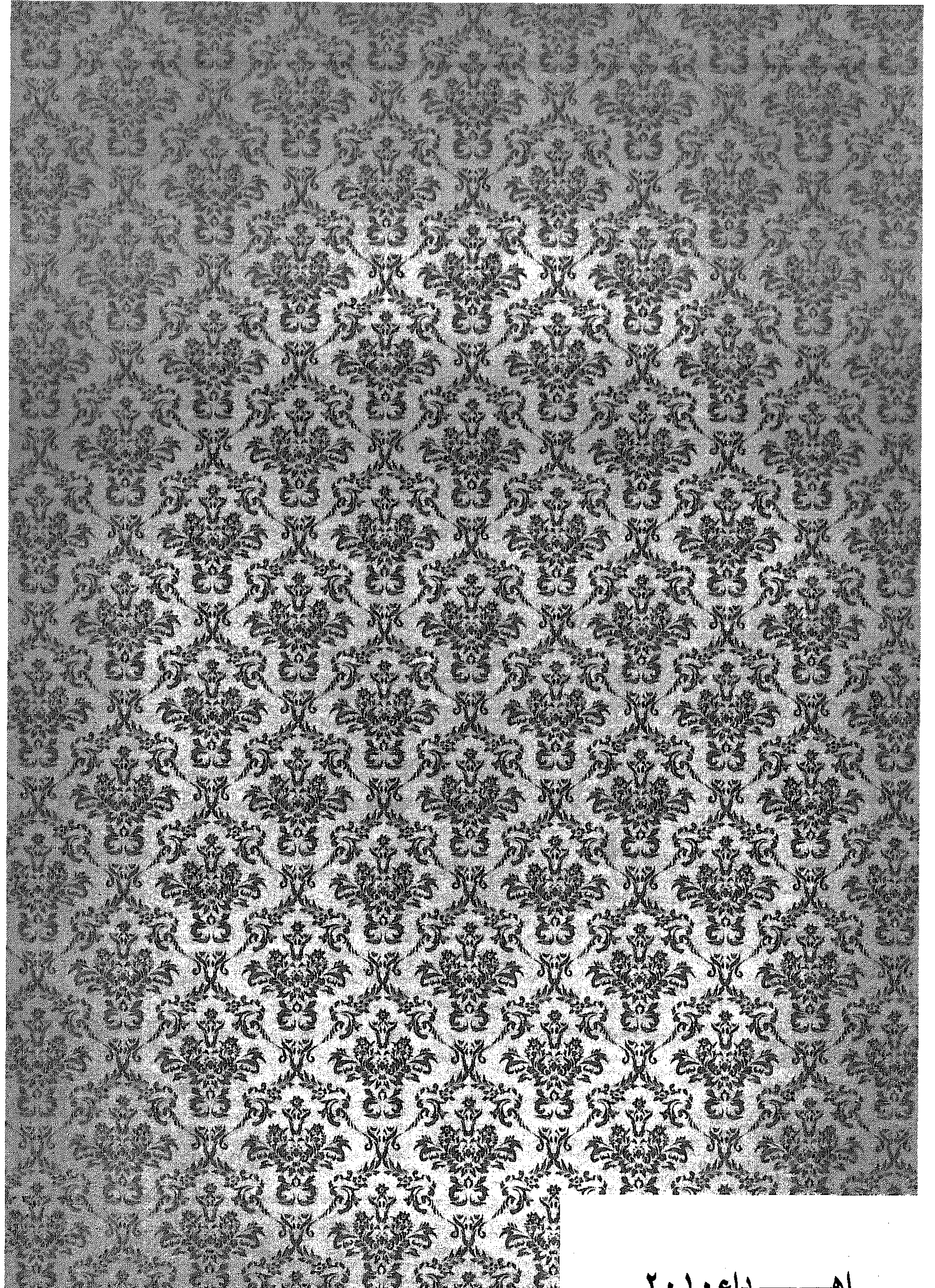
أخلاقيات الحرب
في السيرة النبوية



تأليف
د. منير محمد الغضبان

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

أَخْلَاقِيَّاتُ الحَرْبِ

فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الغضبان ، منير محمد .
أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية / تأليف منير محمد الغضبان . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠ .
٢٥٦ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٦ ٨٨٤ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - التاريخ الإسلامي .
٢ - الغزوات الإسلامية .
٣ - السيرة النبوية .
٤ - الأخلاق الإسلامية .
أ - العنوان .
٩٥٣

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢+) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢+)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢+)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

أخلاقيات الحرب

في السيرة النبوية

تأليف

د. منير محمد الغضبان

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فِهْرِسُ ٱلْمُحْتَوَيَاتِ

***

مُقَدِّمَة

بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين.. والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وسيد المرسلين محمد رسول اللّه.. وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

لن نستطيع أن نفهم أخلاق الحرب في السيرة النبوية ما لم نفهم أخلاق الحرب في الجاهلية، حتى ندرك النقلة الهائلة للبشرية والتي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

فالبشرية قبل رسول اللّه ﷺ عالم من الظلمات؛ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وكما وصف جعفر بن أبي طالب ﷺ هذه الظلمات بقوله: « أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف ».

كما حدثنا عن النقلة الهائلة التي مثلت النور الذي أضاء الوجود بقوله: « .. فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللّه ﷻ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون اللّه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئًا وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - فعدد أمور الإسلام - فصدقناه،

وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا اللَّه وحده لا نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.. »(١).

فقد تربَّت هذه الأمة ابتداءً على الانطلاق من هذا الدين، وتابع إمام المربين ﷺ صياغتها حتى لقي وجه ربه، وأعدها لتكون وارثة البشرية.

وأخلاق الحرب في الجاهلية تنطلق ابتداءً من هوى وعرف، بينما تنطلق أخلاق الحرب في السيرة النبوية من دين وصَلَنا على لسان رسول رب العالمين. وقام عليه الصلاة والسلام بتربية هذا الجيل على هذه المبادئ.

إذن لن ندرك أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية من خلال نصوص نظرية بحتة، إنما ندركها من خلال ممارسة واقعية، ومدرسة تربوية كاملة يشرف عليها رسول اللَّه ﷺ قولًا وفعلًا؛ فهو معلم هذه الأمة، ومعلم البشرية في السلم والحرب؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولقد نزلت هذه الآية في قلب الحرب، تعقيبًا على غزوة أحد، وإعلامًا عن عظمة التربية التي كانوا يتلقونها في الحرب وفي السلم.

فلن يكون حديثنا إذن ونحن نتناول أخلاق الحرب في السيرة النبوية، من خلال تأطير نظري نستشهد عليه بآية أو حديث أو حادثة. إنما سيكون حديثنا من خلال عرض تربوي كامل بكل أبعاده لأخلاق الحرب في الجاهلية من خلال العدو المحارب للإسلام، وأخلاق الحرب في السيرة النبوية المتمثلة بالعملية التربوية كاملة، كيف ابتدأت، وكيف انتهت، وكيف ارتقت بهذه الأمة الأمية إلى مصاف قيادة البشرية؟

والفرق كبير جدًّا بين أن تعرض النظرية وتستشهد عليها بنص نظري أو حادثة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث (٢١٩٩٢) وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص٧٥) وقال: رواه أحمد عن طريق ابن إسحاق بسند صحيح عن زوجة رسول اللّـه ﷺ.

فردية، وبين أن تعرض العملية التربوية كاملة؛ كيف تدرجت في المسار التربوي الصحيح لها من خلال الحرب في الإسلام، والتي خاضها رسول اللَّه ﷺ مع خصومه.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فلا بد من الإشارة إلى أن أهم ما في الحرب هو أخلاقها.

وقد شاءت إرادة اللَّه تعالى أن يعرض الغزوات الكبرى في كتابه العزيز، والوقوف مليًّا عند البناء النفسي والتربوي للإنسان. فهذا هو الخالد الباقي إلى يوم الدين، وهذا هو موضع القدوة وموطن الاجتناب.

ومن أجل هذا، سأحرص على العرض القرآني للحروب في السيرة النبوية؛ لأنه يتجاوز المظاهر إلى الأعماق ويقدم ما تحتاج إليه البشرية من التجربة النبوية الرائدة، والصياغة النبوية الخالدة لهذا الجيل العظيم. وبذلك تتمثل عملية البناء النفسي الداخلي من جهة، وعملية الانقلاب من الجاهلية إلى الإسلام. كما تتم صياغة العلاقات الدولية والسياسية والعسكرية على ضوء المواجهات بين الإسلام وخصومه من جهة أخرى.

وستكون السيرة النبوية هي الأداة العملية لفهم نصوص القرآن الكريم، والتعرف على مراميها.

لا أريد أن أوغل كثيرًا في التقديم، لكنني سأوغل في عمليات تفصيل البناء التربوي للأمة من جهة والتي كانت قبل الحرب وأثناءها وبعدها، وأوغل في عرض المواقف النبوية من الخصوم الأعداء؛ إذ كان عليه الصلاة والسلام يربي أعداءه في الوقت الذي يربي فيه أبناءه، فحسن التعامل النبوي استطاع أن يفك أغلال أعظم القلوب البشرية حقدًا وحربًا على الإسلام إلى قلوب تهتدي بنور هذا الدين، وتتحول إلى قدوات بشرية في التاريخ الإنساني. وتحول هذا السلوك إلى مبادئ تهتدي البشرية بهداها إلى يوم الدين.

ولن نضيف في هذا العرض جديدًا أكثر مما قدمه القرآن الكريم عن هذه

الأخلاق في هذه الأمة الأمية- فحوَّلها التي كانت ذرة تائهة في الصحراء - فحوَّلها إلى أمة قائدة للبشرية في هذا البناء:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]. واهتدت البشرية بهداه إلى يوم الدين: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٣، ٤].

***

فرض القتال

في شهر واحد نزلت آيات القتال في الشهر الحرام، وآيات فرض القتال، كما يقول المفسرون.

أما آيات القتال في الشهر الحرام، فقد جاءت إجابة على تساؤل كبير، وحرج عظيم وقع فيه المجتمع المسلم؛ فلأول مرة في تاريخ الأمة يقع قتال في الشهر الحرام، ولأول مرة يقتل فيه مشرك برغم كل البعوث والسرايا التي استمرت عامًا ونصف العام.

وكانت آيات فرض القتال. فلم يمر شهر واحد، حتى تعبأ المسلمون للقتال، ونزل قول الله ﷻ:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩٥].

فاحتمالات المواجهة أصبحت كبيرة، ولا بد أن يستعد المسلمون لها، ولا بد من قتال من يقاتلهم، ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، والقتال لا بد أن يكون في سبيل الله، لا من أجل مغنم أو مكسب، إنما هو خالص لله سبحانه، وتحديد الهدف أساسي في المعركة.

وقد حددت الآيات مفهوم الاعتداء، حتى لا يرد الذهنَ شيءٌ من الريبة أو الشك في تحديد المعتدين الطغاة، فجاءت الآية واضحة الدلالة بلا غموض: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ فالأمر واضح لكل مسلم في قتل كل مشرك من هؤلاء المعتدين؛ حيثما كان، وأنى وجد.

فالمشركون في مكة ومن والاهم معتدون، لأنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم، وحاولوا فتنتهم عن دينهم، والفتنة أشد من القتل.

وإذا كانت الآيات السابقة تتحدث بالإشارة عن القتال في حادثة محددة، وعن مبرراته، فهي الآن من الوضوح والبيان والنصاعة بحيث تحرقُ كلَّ دَخَلٍ أو لبس.

الإخراج من البلد جريمة اعتداء ضخمة، والفتنة عن الدين جريمة اعتداء أضخم، وأمام تينك الجريمتين لا حل إلا القتل والقتال في كل مكان وجد فيه هؤلاء المعتدون. إنه إعلان شامل للحرب، مع استثناء واحد هو أن لا يكون القتال عند المسجد الحرام الذي يأمن فيه كل مقيم وداخل، ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] لكن إذا وقع القتال منهم عنده، فلا بد من مواجهتهم بالقتل، وهذا هو جزاء الكافرين الذين يحاربون اللّه ورسوله.

فإن كفوا عن اعتداءاتهم، وفتحوا لكم أبواب مكة، وتراجعوا عن فتنتكم عن دينكم، ودخلوا في دين اللّه، فإن اللّه غفور رحيم.

لكن استمرار القتال قائم باستمرار أسبابه، وأسباب قتال الكفار التي تمضي مع الزمن ولا تبلى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾.

وحيث إن الفتنة قائمة، ومحاولات صرف الناس عن دينهم موجودة، فالقتال مفروض، وتنتهي ضرورة القتال عندما تنتهي الفتنة، ويكون الخضوع لسلطان اللّه وشريعته، وتكون الدينونة للّه رب العالمين وحده: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وحرمة المسجد الحرام، وحرمة الشهر الحرام - متوقفة على مراعاة هذه

الحرمة من الآخرين، أما أن تستغل هذه الحرمات لتنفيذ الاعتداء وسفك الدماء فلا: ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

وللجهاد تكاليفه من المال، والبذل ركن أساسي من أركان الجهاد، فكان الحديث عن الإنفاق: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

***

سورة الأنفال وغزوة بدر

مواصفات النصر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

١ - الثبات: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٥]:

ولولا ثباتهم في بدر؛ وتثبيت اللّه تعالى لهم بملائكته ﴿ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢] لما كان نصر بدر. لقد شهدوا قصة طالوت بسمعهم، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١]، وشهدوا قصة بدر ببصرهم، وكانوا هم أدواتها، ورأوا بأم عينهم مصرع قيادات مكة وقدموا النموذج الحي: « واللّه لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ».

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦] فليس الثبات فقط من أجل النصر، ولكن حتى لا يكون فرارًا إلى النار وإلى جهنم، ومنها فروا.

٢ - ذكر اللّه: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]:

وليس الذكر العادي ولكنه الذكر الكثير، بالقلب واللسان، وما أروع ذكر

اللَّه عند احتراب الأسنة، وزحف الصفوف؛ الذكر بالقلب حيث يرى موعود اللَّه بالجنة أمامه، ويرى الفرار إلى النار خلفه، ويرى معية اللَّه بين عينيه، وهو يقاتل أعداء اللَّه، ويرى موعود اللَّه بنصر المؤمنين، والتمكين لهم، وهو الأداة والستار لقدر اللَّه. والذكر باللسان، الذي يطلب العون، ويطلب النصر، ويطلب المدد، ويطلب التثبيت.

وهذا رسول اللَّه، وقد انقطع عالم الأسباب يناجي ربه؛ (روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدر نظر رسول اللَّه ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: « **اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللَّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعْبَد في الأرض أبدًا** » فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردَّاه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبيَّ اللَّه، كفاك مناشدتُك ربَّك. فإنه سينجز لك ما وعدك)[1].

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئًا من قتال ثم جئت مسرعًا لأنظر إلى رسول اللَّه ﷺ ما فعل، قال: فجئت فإذا هو ساجد يقول: « **يا حي يا قيوم ، يا حي يا قيوم** »، لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك. ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك حتى فتح اللَّه عليه[2]، وقد رواه النسائي في عمل اليوم والليلة[3].

وروى النسائي عن الأعمش عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: ما سمعت مناشدًا ينشد أنشد من مناشدة محمد ﷺ يوم بدر، جعل يقول: « **اللَّهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللَّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد** » ثم التفت وكأن شق وجهه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث (٢٠٨)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣/ ١٥٢).

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٩).

(٣) حديث (٦١١) وذكره النسائي أيضًا في السنن الكبرى حديث (١٠٤٤٧).

القمر وقال: « كأني أنظر إلى مصارع القوم عشية »[١].

٣ - طاعة اللَّه ورسوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [الأنفال: ١]:

فعون اللَّه تعالى ومعيته مرهونان بطاعته، وطاعة رسوله، ولا معية مع المعصية ومعصية رسول اللَّه ﷺ يوم أُحد قادتهم إلى الفشل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وكما يقول عمر ﷺ في وصيته لسعد بن أبي وقاص ﷺ: « إنك ستقدم على أمر شديد، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك ونابك تجمع لك خشية اللَّه، واعلم أن خشية اللَّه تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته، وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، ومعصية من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة.. »[٢].

ولعل صورة من صور الطاعة والنصر تبرز كذلك من خلال فتح المدائن: (.. ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء (أي نزول دجلة) أن يقولوا: نستعين اللَّه ونتوكل عليه، حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم. ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس، لم يتخلف عنه أحد. فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين.. فلم يفقد رجل واحد، غير أن رجلًا واحدًا يقال له غرقدة البارقي، زل

---

(١) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة، حديث (٦٠٦) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣/ ٢٧٥).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٧/ ٣٦).

عن فرس له شقراء فأخذ القعقاع بن عمرو بلجامها، وأخذ بيد الرجل حتى عدله على فرسه.. ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر كانت علاقته رثة فأخذه الموج فدعا صاحبه الله ﷻ، وقال: اللّهم لا تجعلني من بينهم، يذهب متاعي، فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه، فأخذه الناس ثم ردوه إلى صاحبه.

وكان الفرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض اللّه له مثل النشز المرتفع فيقف عليه فيستريح، وحتى أن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها - قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا اللّه ونعم الوكيل، واللّه لينصرن اللّه وليه، وليظهرن دينه، وليهزمن اللّه عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات، فقال له سلمان: إن الإسلام جديد، ذللت لهم واللّهِ البحور كما تذلل لهم البر..)[1].

٤ - عدم التنازع: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]:

الثبات، وذكر اللّه تعالى، وطاعة اللّه ورسوله - إن رافقها التنازع - فالفشل وذهاب الريح هو النتيجة.

في بدر أرى اللّه نبيه المشركين قلة، فوقى اللّه المؤمنين الخلاف ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣] أما في أحد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلم يسلم اللّه تعالى النصر للمؤمنين في أحد، لفشلهم وتنازعهم في الأمر، ورغبة الدنيا وحب الغنيمة، ولقد وقى اللّه تعالى المؤمنين يوم بدر، أن كان الخلاف على الغنائم بعد المعركة، وابتلى المؤمنين يوم أحد أن كانت الرغبة في الغنائم والدنيا في قلب المعركة. ويبقى الحكم العام الذي يشمل بدرًا وأحدًا وغيرها على مدار التاريخ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٧/ ٦٤).

(وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن هناك نصر قط إلا بريح تهب، فتضرب في وجوه الكفار، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور »[١]، قال الحكم: ﴿ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾، يعني: الصبا؛ إذ بها نُصِرَ محمد عليه الصلاة والسلام وأمته، وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد)[٢]، والملاحظ أنه ليس من الضروري حين التنازع أن يكون الفريقان على باطل أو خطأ، بل يكفي أن يكون أحدهما كذلك لتقع العقوبة، فالتنازع على الجبل يوم أحد كان بين من يصر على تنفيذ أمر رسول اللّه ﷺ ومن استهوته الغنائم، وقرر القرآن الكريم هذا المعنى: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ وليس هناك لوم للذين يريدون الآخرة، بل ثناء عليهم، وعندما وقعت المحنة نالت حتى غير الفريقين المتنازعين وعمت الجيش كله، وإن كان الذين يريدون الدنيا من الرماة أكثر من الذين يريدون الآخرة، وذلك كما تقول الروايات أن عدد الذين تركوا موقعهم أربعون من سبعين.

٥ – الصبر: ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]:

فالصبر على آلام المعركة، والصبر على مصيبتها، وشدائدها، قمين أن يتم اللّه به النصر.

ولنشهد نموذجًا من صبر الصابرين في بدر: قال ابن إسحاق فيما يرويه عن معاذ بن عمرو بن الجموح أخي بني سلمة: (سمعت القوم – وأبو جهل في مثل الحَرَجَة[٣] – وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه[٤]، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت[٥]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب قول النبي ﷺ: « نصرت بالصبا » حديث (١٠٣٥) ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، حديث (٩٠٠).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٢٤).

(٣) الحرجة: الشجر الملتف. وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابيًا عن الحرجة قال: هي شجرة بين الأشجار لا يوصل إليها.

(٤) فصمدت نحوه: قصدت إلى جهته.

(٥) أطنت: قطعت.

قدمه بنصف ساقه، فواللَّه ما شبهتها - حين طاحت - إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة[١] النوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني[٢] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها. قال ابن هشام: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمان عثمان)[٣].

(قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول اللَّه ﷺ فأعطاه جذلًا من حطب، فقال: « **قاتل بهذا يا عكاشة** » فلما أخذه من رسول اللَّه ﷺ هزه فعاد سيفًا في يده، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح اللَّه تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل به عنده يشهد به المشاهد مع رسول اللَّه ﷺ حتى قتل في الردة وهو عنده)[٤].

٦ - الإخلاص للَّه في القتال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال: ٤٧]:

فاللَّه تعالى ينصر من يقاتل في سبيله: فعن أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللَّه؟ قال: « **من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه** »[٥].

وباستجماع هذه العناصر الستة يأتي نصر اللَّه تعالى. وهو نداء حار لأهل بدر، يدركون مغزاه ومعناه، وقد عاشوا أحداثه، ورأوه واقعًا يدب على الأرض، بهم تحقق. ومع ذلك فيبقى النداء ماضيًا إلى يوم القيامة، ويبقى المؤمنون من أهل

(١) مرضخة: الحجر الذي يكسر به النوى. (٢) أجهضني: غلبني واشتد علي.
(٣) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٧٥ ، ٢٧٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٧٧). وقد رواه البيهقي عن الحاكم والواقدي كذلك.
(٥) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غربٌ فقتله، حديث (٢٨١٠) ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة اللَّـه هي العليا فهو في سبيل اللَّـه حديث (١٩٠٤).

بدر يستمعون إلى نداء السماء لهم من غير أن يعرفوا أنهم هم المنصورون، أم المعاتبون بعد أن نزع منهم كل ما تحمل ذواتهم من فخر بتحقيق هذا النصر.

مبادئ الحرب والسلم:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٥ – ٥٨].

١ – أحكام المعاهدين:

صار للمسلمين دولة، وافتتحوا دولتهم بالعهد مع اليهود الذين كانوا مقيمين في المدينة. واللَّه تعالى وصف هؤلاء اليهود بنقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات اللَّه، وقتلهم الأنبياء بغير حق. ومع ذلك فقد أقدم – عليه الصلاة والسلام – على التعاهد معهم، حرصًا على فتح صفحة جديدة من التعامل معهم؛ إذ إن الإسلام وضع في حسبانه من البداية التعايش مع اليهود والنصارى من أهل الكتاب رغم اختلاف العقيدة، ومن أجل هذا كان في أحكامه النهائية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ [المائدة: ٥].

وأي شيء من التعايش يبقى أهم من الطعام والنكاح؟

وكانت وثيقة المدينة التي كتبها النبي ﷺ منذ البداية بمثابة الدستور الذي يحكم الأمة المسلمة ويحكم غير المسلمين من اليهود والمشركين المواطنين في المدينة. ويرى المفسرون أن هذه الآيات نزلت في بني قريظة وبني النضير الذين ينقضون عهدهم كلما رأوا الفرصة سانحة لنقضه، وكلما وجدوا لحظة ضعف أو بادرة محنة.

ويدعو اللَّه تعالى نبيه إلى عقوبة هؤلاء الناكثين عقوبةً تقطع دابر مَنْ وراءهم

من قومهم ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأنفال: ٥٧].

وفي أجواء بدر وبعد العودة منها والمسلمون يتحدثون بنعمة اللَّه تعالى عليهم بنصره في بدر؛ كان اليهود يشيعون البلبلة في الصف مع المنافقين.

(وقدم زيد بن حارثة على ناقة رسول اللَّه ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلَّى صاح على راحلته: قُتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وقتل أمية بن خلف وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن الأسود، وأسر سهيل ابن عمرو - ذو الأنياب - في أسرى كثير. فجعل بعض الناس لا يصدقون زيدًا ويقولون: ما جاء زيد بن حارثة إلا فلًّا[1] حتى غاظ ذلك المسلمين وخافوا. وقدم زيد - حين سوينا - على رقية بنت رسول اللَّه ﷺ بالبقيع، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قتل صاحبكم ومن معه. وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقًا لا يجتمعون فيه أبدًا، وقد قتل علية أصحابه، قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلًّا، فقال أبو لبابة: يكذِّب اللَّه قولك، وقالت اليهود: ما جاء زيد إلا فلًّا، قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي فقلت: أحق ما تقول؟ فقال: إي واللَّه حق ما أقول، فقويت نفسي ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول اللَّه وبالمسلمين، لنقدمنك إلى رسول اللَّه إذا قدم فليضربن عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه)[2].

هكذا كان جو المدينة قبيل وصول الجيش الإسلامي المظفر إلى المدينة، وكان اليهود الذين تعاقدوا وتعاهدوا مع رسول اللَّه ﷺ يظهرون خبث نواياهم في هذه المناسبات، ويتجاهلون عقودهم ومواثيقهم، فقال اللَّه تعالى عنهم:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ

---

(١) فلًّا: هربًا. (٢) البداية والنهاية لابن كثير عن الواقدي.

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال:٥٥ – ٥٨].

ويحدثنا المقريزي عن الحلقة الأولى من الخيانة. بما يتناسب وجو هذه الآيات:

(وكان سببها – أي غزوة بني قينقاع – أن رسول اللَّه ﷺ لما قدم المدينة مهاجرًا وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وألحق كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا منها: ألا يظاهروا عليه عدوًّا، فلما قدم من بدر بَغَتْ يهود، وقطعت ما كان بينها وبين رسول اللَّه ﷺ من العهد، فجمعهم بسوق بني قينقاع وقال: « **يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يوقع اللَّه بكم مثل وقعة قريش، فواللَّه إنكم لتعلمون أني رسول اللَّه** »، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من لقيت، إنك قهرت قومًا أغمارًا[1] وإنا واللَّه أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا)[2].

والثابت أن اللَّه تعالى أنزل باليهود بعد هذا الموقف: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران:١٢، ١٣][3].

وبعضهم اعتبر، فكف عن حربه ولزم عهده، ولو بشكل مؤقت، وهم بنو النضير وبنو قريظة، وبعضهم الآخر أصر على موقفه من العداء والعناد والتحدي، وهم بنو قينقاع (فبينا هم على ما هم عليه – من إظهار العداوة ونبذ العهد – جاءت امرأةُ رجلٍ من الأنصار إلى سوق بني قينقاع، فجلست عند صائغ فهم في أمر حلي لها، فجاء رجل من بني قينقاع فجلس خلفها فحل درعها من ورائها بشوكة وهي لا تشعر.

---

(١) أغمارًا: جهلاء لا غناء عندهم ولا رأي ولا تجربة بالحرب.

(٢) إمتاع الأسماع (٤/ ١/ ١٠٤).

(٣) الفئتان هما المسلمون وقريش، والإشارة إلى موقعة بدر واختلاف العدد بين الفئتين.

« وفي رواية ابن إسحاق: فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده عن ظهرها »[١].

فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع عليه بنو قينقاع وقتلوه، ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ، وحاربوا، وتحصنوا في حصنهم، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]. فقال ﷺ: « **إنما أخاف من بني قينقاع** » فسار إليهم رسول اللَّه ﷺ يوم السبت، النصف من شوال بعد بدر ببضع وعشرين يومًا، وهم سبعمائة مقاتل، منهم ثلاثمائة متدرعون بدروع الحديد، ولم يكن لهم حصون ولا معاقل، إنما كانوا تجارًا وصاغة، وهم حلفاء لعبد اللَّه بن أُبي ابن سلول، وكانوا أشجع يهود، فكانوا أول من غدر من اليهود فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكم رسول اللَّه ﷺ، فأمر بهم فربطوا، واستعمل على رباطهم وكتافهم المنذر بن قدامة السلمي؛ ثم خلى عنهم بشفاعة عبد اللَّه بن أُبي بن سلول، وأمرهم أن يجلوا عن المدينة، فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصاري؛ وقيل عبادة بن الصامت، وقبض أموالهم، وأخذ رسول اللَّه ﷺ من سلاحهم ثلاث قسي[٢]: وهي الكتوم والروحاء والبيضاء، وأخذ درعين: الصغدية وفضة، وثلاثة أسياف وثلاثة أرماح، ووجدوا في منازلهم سلاحًا كثيرًا وآلة الصياغة، وخمّس ما أصاب منهم، وقسم ما بقي على أصحابه، وخرجوا بعد ثلاث فلحقوا بأذرعات[٣] بنسائهم وذراريهم).

أما نبذ العهد فمعناه كما قال الأزهري:

(إذا عاهدت قومًا، فعلمت منهم النقض بالعهد فلا توقع بهم سابقًا إلى النقض، حتى تلقي إليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة، فيكونوا في علم

(١) السيرة لابن هشام (٢/ ٤٢٦).

(٢) قسي: جمع قوس.

(٣) أذرعات: مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز وهي التي تسمى اليوم إذرع، والرواية في إمتاع الأسماع في (١/ ١٠٤، ١٠٥).

النقض مستويين، ثم أوقع بهم. والمعنى: وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت: إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك)[1].

وأما تشريد من خلفهم بهم، فهو:

(فشرد بهم من خلفهم، يقول: فافعل بهم فعلًا يكون مشردًا من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عقد وعهد.. حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف اللّٰه صفتهم)[2].

وقد تحقق الهدف من ذلك، فلم يجترئ بنو النضير وبنو قريظة على مد إخوانهم من اليهود بالسلاح أو الرجال، كما أنهم خافوا من نقض العهد، وتمسكوا به إلى أن نقضوه بعد أحد والخندق، وبعد أن تغيرت أجواء النصر ورياح بدر.

٢ - ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّٰه ﷺ على المنبر وهو يقول: « ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي** » وعن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول اللّٰه ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون[3] بالسوق: « **ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان** »، لأحد الفريقين، فأمسكوا بأيديهم. فقال: « **ما لهم؟** » قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ قال: « **ارموا وأنا معكم كلكم** »[4] ونلحظ التعبير النبوي بشموله حين اعتبر القوة الرمي دون تحديد، وبذلك يدخل ضمن هذا الإطار كل الرمي في الحرب قديمه وحديثه دون استثناء.

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٣٢). (٢) المرجع السابق (٦/ ١٠/ ١٩).

(٣) يتناضلون: يترامون على سبيل المسابقة.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل، حديث (٣٣١٦).

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والخيل كما يقول عليه الصلاة والسلام: « ... معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة »[١]، ولقد دعا الإسلام إلى احتباس الخيل في سبيل اللَّه فقال: « من احتبس فرسًا في سبيل اللَّه إيمانًا باللَّه، وتصديقًا بوعده؛ فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة »[٢]، ودعا الإسلام إلى أن تملأ التعبئة للحرب والتهيئة لها وقت السلم جده ولهوه. فعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن اللَّه ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، والمُمِدَّ به، فارموا واركبوا. وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق »[٣].

وزاد الدارمي وأبو داود: « ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنه نعمة تركها » أو قال: « كفرها »[٤].

وليس المجاهد في سبيل اللَّه إذن هو المقاتل وحده، بل صانع الأسلحة، ومصممها ومهيؤها للقتال، فكل ذلك في سبيل اللَّه. وكان لهذه الأحاديث فعل السحر عند المسلمين، فتوجه المجتمع الإسلامي كله بعد بدر إلى التعبئة والتسلح، ولم يكن لدى المسلمين في بدر غير فرسين للمقداد والزبير - رضي اللَّه عنهما - وسبعين بعيرًا والسيوف في القرب، فإذا بأحد؛ وبعد مرور سنة على بدر.. تتضاعف الأفراس، فرس لرسول اللَّه ﷺ، وفرس لأبي بردة بن نيار - رضي اللَّه عنهما - وإذا في الجيش مائة دارع، وإذا الرماة سبعون يصدون هجوم الفرسان من مكة، أما الرماح والسيوف والأقواس فحدِّث ولا حرج.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث (١٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرسًا، حديث (٢٨٥٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد، باب في فضل الرمي في سبيل اللَّه، حديث (١٦٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرمي (٢٥١٣)، والدارمي في كتاب الجهاد، باب في فضل الرمي والأمر به (٢٤٠٥).

وما هي حدود التعبئة والإعداد؟

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠].

فلا يكفي أن يكون السلاح للدفاع، ولا يكفي أن يكون للهجوم على العدو المباشر، بل لا بد أن يكون سلاحًا رادعًا، يبث الرعب والإرهاب في قلب العدو، إنه المدى المفتوح في الأفق يرتبط مع الاستطاعة، وينتهي مع الردع بشتى أنواعه.

والذي يملك الردع النووي في عالمنا المعاصر هما الدولتان العظميان، والمفهوم الإسلامي عن التعبئة والإعداد، الذي ينطلق من الاستطاعة، يستمر حتى يكون لدى الإسلام دولته التي تتفوق في ردعها على هاتين الدولتين العُظْمَيَيْن.

بهذا الفهم وبأبعد مدى منه فهم المفسرون هذا المعنى ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. يعني فارس والروم، قاله السدي. وقيل: الجن، وهو اختيار الطبري. وقيل المراد بذلك: كل من لا نعرف عداوته.

(وقال السهيلي: قيل هم قريظة، وقيل: هم من الجن، وقيل غير ذلك. ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء؛ لأن اللّه ﷻ قال: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠] فكيف يدعي أحد علمًا بهم؟ إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول اللّه ﷺ وهو قوله في هذه الآية: « **هن الجن** »)[1]. ولا شك أن مثل هذا الإعداد يحتاج إلى مال طائل ونفقات باهظة فلا غرو في ذلك.

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

وما زال عثمان رضي اللّه تعالى عنه ينفق في سبيل اللّه حتى قال فيه رسول اللّه ﷺ: « **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم** »[2].

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد حسن في كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان حديث (٢٠٧٠١). والإمام أحمد في مسنده (٢٠١٠٧).

(إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض، لتحرير الإنسان. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على « دار الإسلام » التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية للَّه وحده، ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه..

إن الإسلام ليس نظامًا لاهوتيًّا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلب، وتنظيمًا للشعائر، ثم تنتهي مهمته؛ إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات، وتقف وراءها قوًى مادية. فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني..

وينبغي للمسلم أن لا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة.. ينبغي أن لا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض، إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللَّه وحده، وتحطيم ألوهية العبيد..! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر، ولا لتقرير سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس.

إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد؛ ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية، ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية، وما إليها من المذاهب البشرية، إنما ينطلق بمنهج من صنع اللَّه الحكيم الخبير البصير، ولتقرير ألوهية اللَّه وحده

وسلطانه لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعبيد..)[1].

إنها السنة الثانية للهجرة، وإنها أول موقعة يوقعها المسلمون في الشرك، ولكن المعاني الضخمة التي رافقت هذه المعركة، وأنزلها اللّه تعالى على نبيه بعد بدر، انتقلت بالمسلمين نقلة ضخمة من مصاف التفكير المحلي إلى مصاف التفكير العالمي:

(وكانت بدر من حيث أثرها الخطير ظاهرة كونية، فقد احتفل بها الإنس والجن والملائكة، ففي عالم الأرض وعالم البشر.. نذكر أن سورة الروم عندما نزلت كانت تمثل آمال عشرات المسلمين في مكة وطموحاتهم بأن ينتصر الروم - أهل الكتاب في الأرض - على الفرس الوثنيين فيها، حيث كان الفرس والروم يقتسمون الأرض آنئذ، وكان هؤلاء العشرات من المسلمين والمئات من المشركين غفلًا من التاريخ وأحداثه، يتفرجون على صناعة الكبار في الأرض، ونذكر كيف تم الرهان بين أبي بكر ﷺ وأحد المشركين على نصر الروم بعد بضع سنوات: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:١ - ٧].

لقد كان أقصى ما يحلم به المسلمون آنذاك بعد بضع سنين أن ينتصر الروم على الفرس، وبذلك تقوى شوكة المسلمين إن انتصر أهل الكتاب الأقرب إلى المسلمين، على الفرس الأقرب إلى المشركين.

وتحقق موعود اللّه جل شأنه، فانتصر الروم بعد تسع سنين من هزيمتهم أمام الفرس، وفرح المؤمنون بنصر اللّه، وكان وعد اللّه الذي لا يخلفه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، هذا هو المدى الأقرب للآيات.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٠/ ١٥٤٣، ١٥٤٤).

أما المدى الأعمق فكان أكبر وأضخم في تاريخ البشرية؛ لقد فرح المؤمنون بنصر اللَّه يوم بدر، ويوم نصرهم جاءت أخبار انتصار الروم على الفرس، لذا جاء خبر انتصار الروم هامشيًّا وثانويًّا أمام انتصار بدر، وكان فرح المؤمنين بنصر اللَّه في بدر هو المدلول الأعمق للآية الكريمة، ولم يكن يدور بخلد عشرات المؤمنين في الأرض والآيات تتنزل في مكة أنهم هم المعنيون بالنصر، وأنهم هم صناع الأحداث، وأن الروم والفرس غدوا على هامش التاريخ بعد أن أنزل اللَّه تعالى ملائكته لنصر المؤمنين في بدر، وكان وعد اللَّه الذي لا يخلفه هو نصر محمد ﷺ وحزبه لا نصر الروم فقط، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، حتى المؤمنين لا يحيطون بعلم اللَّه ﷻ وماذا يعد لهم من نصر، وماذا يعد لهم من حسم..

فالمسلمون حتى قبل بدر بأيام قلائل لم يكونوا يعلمون أنهم المعنيون بنصر اللَّه، ينصر من يشاء، وعد اللَّه لا يخلف اللَّه وعده، ورسول اللَّه ﷺ سيد الخلق لم يكن يعلم أنه المقصود بنصر اللَّه؛ ينصر من يشاء، ومن أجل هذا كان يلح على ربه بالنصر حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه، ويخشى أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة في الأرض « **اللَّهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض** » وإذا نصر اللَّه يتنزل، فتنقلب الموازين ويتأرجح التاريخ ويصبح مقوده بيد المسلمين، ومن ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث يأملون ويدعون فقط.. كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم، بل صاروا صناع أحداثه في بدر وبعدها....)[1].

٣ - **الجنوح إلى السلم:** ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

يقول: إن مالوا - يعني الذين نبذ إليهم عهدهم - إلى المسالمة - أي الصلح فمل إليها.. وقد اختلف في هذه الآية: هل هي منسوخة أم لا؟

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية (١/ ٢٤٢ - ٢٤٧).

فقال قتادة وعكرمة: نسخها الله ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ [التوبة:٣٦] وقالا: نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا لا إله إلا الله. وقال ابن عباس: الناسخ لها ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾ [محمد: ٣٥] وقيل: ليست بمنسوخة، بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية.

وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ في زمن عمر بن الخطاب ﷺ ومن بعده من الأئمة كثيرًا من بلاد العجم على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه، وهم قادرون على استئصالهم، وكذلك صالح رسول الله ﷺ كثيرًا من أهل البلاد على مال يؤدونه؛ من ذلك خيبر، رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف. قال ابن إسحاق: قال مجاهد: عنى بهذه الآية قريظة؛ لأن الجزية تقبل منهم، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء. وقال السدي وابن زيد: معنى الآية: إن دعوك إلى الصلح فأجبهم ولا نسخ فيها.

قال ابن العربي: وبهذا يختلف الجواب عنه؛ وقد قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] فإذا كان المسلمون على عزة ومنعة وقوة وجماعة عديدة، وشدة شديدة، فلا صلح. كما قال:

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا وتضرب بالبيضِ الرقاقِ الجماجمُ

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه. وقد صالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها، فنقض صلحهم. وقد صالح الضمرى وأكيدر دومة وأهل نجران. وقد هادن قريشًا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده. وما زال الخلفاء والصحابة على هذا السبيل التي شرعناها سالكة، وبالوجوه التي شرحناها عاملة.

(قال القشيري: إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي أن لا تبلغ الهدنة سنة، وإن كانت القوة للكفار جاز مهادنتهم عشر سنين، ولا تجوز الزيادة، وقد هادن رسول الله ﷺ أهل مكة عشر سنين، قال ابن المنذر: اختلف العلماء في المدة التي

كانت بين رسول اللَّه ﷺ وبين أهل مكة عام الحديبية، فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهي منتقضة؛ لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وقال ابن حبيب عن مالك ﷺ: تجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث، وإلى غير مدة، وقال المهلب: إنما قاضاهم النبي ﷺ هذه القضية التي ظاهرها الوهن على المسلمين لسبب حبس ناقة رسول اللَّه ﷺ عن مكة، حين توجه إليها فبركت وقال: « **حبسها حابس الفيل عن مكة** » على ما خرجه البخاري عن المسور بن مخرمة[1]، ودل على جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم إذا رأى ذلك الإمام وجهًا. ويجوز - عند الحاجة - للمسلمين عقد الصلح بمال يبذلونه للعدو، لموادعة النبي ﷺ عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري يوم الأحزاب على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشًا، ويرجعا بقومهما عنهم، وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدًا)[2].

وخلاصة الرأي في الأرجح أن الجنوح للسلم من العدو، مرتبط بوضع المسلمين قوةً وضعفًا، ومرتبط بما يحقق للمسلمين من مصالح أو يدفع عنهم من مغارم، وكلام النسخ ضعيف في هذه القضية.

والجدير بالذكر الذي يحسن الوقوف عنده هو المقارنة بين آيتي السلم: الآية الأولى وقد نزلت بعد بدر ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١]، الآية الثانية وقد نزلت بعد أحد ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد: ٣٥].

وواضح أن هاتين الآيتين لا تتناسبان مع الصورة المطروحة؛ أن يكون الجنوح للسلم حالة الضعف ورفض الجنوح للسلم حالة القوة، فالدعوة إلى قبول السلم كانت بعد النصر المؤزر في بدر، ورفض الدعوة إلى السلم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد حديث (٢٧٣٤).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٣٩ - ٤١).

والوهن كانت بعد المحنة القاسية في أحد، والمعنى الأعمق الذي نراه في هذه المقارنة: هو أن السلم في حالة الضعف قد يكون استسلامًا أو ذلًا يرفضه الإسلام، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ [محمد: ٣٥]. أي السلم الحقيقي - هو السلم المرتبط بالقوة، الذي يجعل العدو يطلب المسالمة والموادعة، ومن أجل هذا وجدنا النص الأول يؤكد على أن طلب السلم قد جاء من العدو المنهزم المرعوب من قوة المسلمين، بينما نجد النص الثاني يشحذ من عزيمة المسلمين ألا يدعوا إلى السلم عند اشتداد المحن، وألا ينسوا عزتهم وكبرياءهم، وأنهم الأعلون بإيمانهم في هذا الوجود، والوهن والاستسلام لا يتلاءم وعزة المؤمنين.

٤ - **الخوف من الخداع:** ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وسرعان ما يتبادر إلى الذهن أن يكون المعاهدون أو الجانحون إلى السلم يريدون الخديعة والمكر بالمؤمنين، وأمام هذا الاحتمال فقد يسود الرأي ألا يكون تعاهد ولا سلام مع العدو، لكن الإسلام - الذي جاء يرعى أحوال البشرية جمعاء - لم يجعل الحرب هي الأصل، والقتال هو الهدف، إنما كان القتال لتحقيق سلم تسود فيه شريعة اللَّه، وتحكمه شرائعه. صحيح أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، إلا أن القوة المرهوبة الجانب تجعل الآخرين يجنحون إلى السلم والمعاهدة والموادعة، فلا بد من الاستجابة لذلك، واللَّه تعالى كافٍ عبده وجنده، فهو الذي يعلم المؤمنين خبث طوايا العدو، ويهيئ لهم كشف خداعهم، والقوة الضخمة من المؤمنين كافية لتردع أولئك الغادرين والمحتالين، إنه السلم المسلح، وليس السلم الهزيل الذليل.

﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] وما لقي المؤمنون من نصر يوم بدر - يفوق كل تصوراتهم وتوقعاتهم - لم يكن مصدره قوتهم الذاتية، وحتى التأييد بالمؤمنين كان قدرًا من اللَّه أن شرح قلوبهم للإسلام، وهم

العصبة المؤمنة من الأنصار، فإذا هم يتبارون إلى الجنة، ويتسابقون إلى الجهاد ويعلنون له: (لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، إنا لصبَّر في الحرب صدَّق عند اللقاء، فسر بنا على بركة اللَّه، لعل اللَّه يريك منا ما تقر به عينك).

وها نحن أولاء نلحظ في سورة الأنفال بعد أن انتزع اللَّه تعالى من المؤمنين اعتزازهم بذواتهم، وأعلمهم أن النصر من عند اللَّه، ها هي ذي المرة الأولى التي يرد بها الثناء على العصبة المؤمنة التي خاضت حربها مع النبي ﷺ في معرض المن على رسول اللَّه. وهي خطوة مهمة في تربية النفوس في هذه العصبة المؤمنة، بحيث برأها من ذاتها وأنانيتها، ثم عاد فقدمهم رصيدًا مذخورًا يمن اللَّه تعالى بهم على رسوله، بعد أن انتفى عامل الاغترار والاعتزاز بالذات. وكم هو ثناء ضخم أن يقول اللَّه تعالى في الخطوات الجديدة من تربية هذه النفوس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] وبعد أن علموا أنهم لم يحققوا هذا النصر بوجه من الوجوه.

هؤلاء المؤمنون الذين أيد اللَّه تعالى بهم رسوله - هم هم الذين ساءت أخلاقهم في الأنفال، وهم هم الذين كانوا يريدون غير ذات الشوكة، وهم هم الذين كان فيهم فريق كارهًا للقاء العدو كأنما يساقون إلى الموت. هؤلاء هم أنفسهم الذين يمن اللَّه تعالى بهم على رسوله بتأييده بهم، إنها التربية الخالصة. فأي شيء يخيف بعدها ويرهب من أولئك الضعاف المهازيل الذين يريدون الخداع؟

الصف المؤمن:

١ - ألفة القلوب: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

(قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار، ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج، وكان تآلف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب

من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق حمية، فألف اللّه بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب)[1].

(ولقد وقعت المعجزة والتي لا يقدر عليها إلا اللّه؛ والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة؛ فاستحالت هذه القلوب النافرة، وهذه الطباع الشموس، إلى هذه الكتلة المتراصة المتآخية الذلول بعضها لبعض، المحب بعضها لبعض، المتآلف بعضها مع بعض، بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ، والذي تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة - أو يمهد لحياة الجنة وسمتها البارزة -: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

إن هذه العقيدة عجيبة فعلًا. إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب، التي تلين قاسيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق. فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، ونطق الجارحة، وخفقة القلب، ترانيم من التعارف والتعاطف، والولاء والتناصر، والسماحة والهوادة، لا يعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب!

وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب في اللّه، وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له، والالتقاء عليه، فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التي لا يدري سرها إلا اللّه، ولا يقدر عليها إلا اللّه.

يقول رسول اللّه ﷺ : « **إن من عباد اللّه لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه تعالى** ». قالوا: يا رسول اللّه تخبرنا من هم؟ قال: « **هم قوم تحابوا بروح اللّه بينهم، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، واللّه إن وجوهم لنور وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس،**

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٨/٤٢).

ولا يحزنون إذا حزن الناس »[١].

ويقول ﷺ : « **إن المسلم إذا لقي أخاه فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف. وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحر** »[٢].

وتتوارد أقوال الرسول ﷺ تترى في هذا الباب، وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر في رسالته عليه الصلاة والسلام، كما تشهد الأمة التي بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة، ولا مجرد أعمال مثالية فردية، إنما كانت واقعًا شامخًا قام على هذا الأساس الثابت، بإذن اللّه، الذي لا يقدر على تأليف القلوب هكذا سواه)[٣].

ونقف أمام هذه الآية لنستعرض الواقع المعاصر لأمتنا المنكودة التي طرحت شعار الوحدة وهي جزء من الدولة العثمانية، وذلك حين كان الهدف أن تجمع تركيا ومستعمراتها تحت راية واحدة، هي الراية التركية فكانت شعاراتها: حريات، عدالات، مساواة، لتكون البديل عن الإسلام، ولم ينته الثلث الأول من هذا القرن إلا وأطيح بهذه الراية وهذا التجمع، ليحل محلها الطرح القومي للأمم التي كانت تحت لوائها.

وجاء الطرح القومي ليكون شعار الأمة العربية في القرن العشرين، لتتوحد القلوب وتأتلف تحت رايته، ولم تتآلف القلوب، وازدادت التفرقة والانقسام وتنافر القلوب في هذه الأمة العربية.

وانتهى جيلان من هذه الأمة ليحمل وزر زيادة التنافر، وقام جيل ثالث مع بداية منتصف القرن العشرين ينحي باللائمة والخيانة على الجيلين السابقين اللذين كانا مطية للاستعمار كما يزعم، ليكون هو البديل الشعبي الصحيح عن الحكام وطرح شعار الوحدة والحرية والاشتراكية على تفاوت في التقديم

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب فيمن أحيا حسيرًا حديث (٣٥٢٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦).

(٣) في ظلال القرآن (٣/ ٨/ ١٥٤٨، ١٥٤٩).

والتأخير، وكافح حتى وصل إلى سدة الحكم، وأعلن رفضه للإسلام دينا وشريعة حرصًا على وحدة الأمة.

وماذا كانت الحصيلة بعد ثلث قرن من التمكين والتجربة؟

ازدادت التجزئة والانقسام والصراع، وعانت أمتنا تشرذمًا عجيبًا، فكك أوصالها وحطم وجودها، ومكن لأعدائها اليهود أن يقيموا دولتهم بعد عجز أربعة عشر قرنًا من الزمان.

ونتساءل ما هي حصيلة هذا القرن؟ والقوم جادون في وحدة القلوب والصفوف للأمة الواحدة ولكن على غير مشيئة اللّٰه تعالى وعلى غير شريعته وعلى غير مبادئ هذا الدين، يحاربون اللّٰه تعالى علانية، ويخطئون شريعته ويشككون في صلاحيتها لحكم الأمة وإنقاذها وتوحيدها، ويخترعون دساتير وقوانين تحكمهم من صنع البشر، وبذلوا أموال الأرض وأرواح الناس وثروات الأمة لتوحيد القلوب، والفرقة تزداد، والخلاف يتفاقم، والصراع يشتد أواره. لماذا؟

ويأتي الجواب: ليبين أن توحيد القلوب لا يتم بفعل البشر بل يتم بفعل خالقها:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وهو رد من طرف آخر على المقولة التي تدعي وجود القائد الصالح الذي تأتلف عليه القلوب، أو الحاكم المصلح، أو الزعيم المخلص، وحتى تنتهي هذه المقولة من أذهان البشر؛ لم يجعلها اللّٰه تعالى لسيد الزعماء والقادة والمصلحين في الأرض ولن تكون لأحد بعده ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣] فقد حسمت الآية الكريمة هذا الموضوع. فهو أمر إذن قائم فوق إرادة البشر، وخارج إرادة البشر، لا يملكه إلا اللّٰه تعالى، ولا يعطيه إلا لمن يقدم له العبودية، ويذعن لشرعه وشرعته، وينطلق منها على

أنها الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

٢ - ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤ - ٦٦].

وتأتي هذه الآيات ردًا على الطرح القومي كله الذي يريد أن يحشد أبناء الجنس الواحد، وأبناء الأمة العربية تحت راية واحدة، ليواجه بهم العدو المشترك. مؤمنهم وكافرهم على السواء. هذا ما يقوله الطرح القومي.

والذي يقوله الطرح الإسلامي: ﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]. واللَّه تعالى معك، فلو كانت قوى الأرض كلها ضدك، فلن يضيرك ذلك لأن اللَّه تعالى معك.

وحسبك من اتبعك من المؤمنين، فالذين آمنوا بك وصدقوك أن ما جئت به هو الحق، وأيدوك ونصروك، هؤلاء يكفونك، ولست بحاجة إلى رجل واحد من غير المؤمنين بك، فاللَّه تعالى ينصرك بهم، وهم كافون لك جندًا وذخرًا، تقاوم بهم كل أعدائك والمحاربين لك، والمطلوب منك أن تشحذ عزائمهم وتحرضهم على القتال، وتوظف طاقاتهم لتكون كلها معك.

ولا يضيرنك العدد، يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

(فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل عجيب، ولكنه صادق عميق ﴿ بِأَنَّهُمْ

﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر، ولكنها صلة حقيقية، وصلة قوية، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها، إنها تفقه حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، فتفقه أن الألوهية لا بد أن تتفرد وتستعلي، وأن العبودية يجب أن تكون للَّه بلا شريك، وتفقه أنها هي - الأمة المسلمة - المهتدية بهدي اللَّه، المنطلقة في الأرض بإذن اللَّه لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، وأنها هي المستخلفة عن اللَّه في الأرض، الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع، ولكن لتعلي كلمة اللَّه، وتجاهد في سبيل اللَّه، ولتعمر الأرض بالحق، وتحكم بين الناس بالقسط، وتقيم في الأرض مملكة اللَّه التي تقوم على العدل بين الناس..

وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين، ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل اللَّه في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة. بينما أعداؤها قوم لا يفقهون، قلوبهم مغلقة، وبصائرهم مطموسة، وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة، إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير، وهذه النسبة واحد لعشرة.. هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون.. وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحدة لاثنين.

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦])[1].

(وروى أبو داود عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ ﴾ فشق ذلك على المسلمين حين فرض اللَّه عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم إنه جاء التخفيف فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ ﴾ فلما خفف اللَّه تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٠/ ١٥٥٠).

وقال ابن العربي: قال قوم: إن هذا كان يوم بدر ونسخ، وهذا خطأ من قائله، ولم ينقل قط أن المشركين صافوا المسلمين عليها، ولكن الباري ﷻ فرض ذلك عليهم أولًا وعلل ذلك بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه وهو الثواب، وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه.

قلت: وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض، ثم لما شق عليهم حطّ الفرض إلى ثبوت الواحد إلى اثنين فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ وهذا حسن)[١].

وبين يدينا حديث رسول اللّه ﷺ تتمة للإيضاح: « **خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف. ولن يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة** »[٢].

وقد فهم المسلمون أن الجيش إذا زاد عن اثني عشر ألفًا فلن يغلب من قبل عدده، وإنما يغلب من أشياء أخرى سواء في عدته، أو تركيب أفراده أو ضعف ووهن فيه.

كما روي عن المسلمين في فتح مصر:

(أن عمرو بن العاص حصرهم (أي العدو من أهل مصر) بالقصر الذي يقال له بالبليون حينا، وقاتلهم قتالًا شديدًا، يصبحهم ويمسيهم، فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه عمر بن الخطاب: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف، الزبير ابن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقال آخرون: بل خارجة بن حذافة الرابع، لا يعدون مسلمة - وقال عمر بن الخطاب: اعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة)[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب فيمن يستحب من الجيوش (٢٦١١) والترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في السرايا (١٥٥٥) وقال فيه: حديث حسن غريب.

(٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ص ١١).

وهكـذا نـرى أن الأمـر يختلف حسب قوة المسلمين وضعفهم، وأنواع أشخاصهم إذ إن عمرو بن العاص ﷺ إنما غزا مصر بأربعة آلاف، وأمده عمر ﷺ بأربعة آلاف وبأربعة رجال كل واحد منهم بألف، فأصبح المجموع الحقيقي اثني عشر ألفًا باجتهاد عمر ﷺ، بينما كان المجموع العددي الرقمي ثمانية آلاف وأربعة، فنوعية المسلمين ذات أثر بارز في تحديد قوتهم، ولقد خاض المسلمون معارك بعد رسول اللَّه ﷺ، وطبقت نسبة الواحد إلى عشرة فيها، بل خاضوها كذلك في العهود الإسلامية اللاحقة.

(روى المؤرخون أن الجموع التي جمعها هرقل للمعركة الفاصلة فيما بينه وبين العرب من الروم والشام والجزيرة وأرمينية كانت زهاء مائتي ألف، وكان يأتيها المدد خشية الهزيمة، وكان عدد جيش الصحابة – رضي اللَّه عنهم – أربعة وعشرين ألفًا، ورووا أن قتلى الروم بلغت سبعين ألفًا. فمن شك أو مارى في العدد في هذه المعركة – أي اليرموك وغيرها من المعارك الفاصلة المعينة – فهل يمكنه أن يماري في القدر المشترك في جملة المعارك التي فتح بها الصحابة – رضي اللَّه عنهم – تلك الممالك الواسعة على قلة عددهم وكونهم كانوا في مجموعها أو أكثرها أقل من عشر أعدائهم؟ أنى وهو عين التواتر المعنوي الذي يفيد علم اليقين)[1].

ولا بد أن نلحظ الفرق بين جواز الفرار إذا كان عدد العدو ضعفي عدد المسلمين، أو عشرة أضعافهم، على حسب قوتهم المعنوية، وبين أفضلية الثبات في المعركة حتى يأتي نصر اللَّه، وما حديث مؤتة عنا بسر، حين صمد ثلاثة آلاف من المؤمنين لمائتي ألف من العرب والروم، جعل اللَّه تعالى لهم الفتح على يدي سيف اللَّه خالد بن الوليد.

أحـكـام الأسرى:

١ – **الإثخان في القتل أولى:** ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي

(١) تفسير المنار لرشيد رضا (١٠/ ٧٩).

ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧ ، ٦٨].

وتتضافر الروايات الصحيحة في هذا الصدد؛ لتعطي الإضاءة الكاملة على هاتين الآيتين:

فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ في حديث طويل: (... واستشار رسول اللَّه ﷺ أبا بكر وعليًّا وعمر، فقال أبو بكر: يا نبيَّ اللَّه هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى اللَّه أن يهديهم فيكونون لنا عضدًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **ما ترى يا ابن الخطاب؟** » قال: قلت: واللَّه ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه؛ حتى يعلم اللَّه أن ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر: غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول اللَّه أخبرني، ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، قد عُرض عليَّ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة** » (لشجرة قريبة) وأنزل اللَّه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾)[1].

وروى الإمام أحمد عن عبد اللَّه بن عمر قال: لما كان يوم بدر، قال رسول اللَّه ﷺ: « **ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟** » قال: فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٨). وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسيرة، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر حديث (١٧٦٣).

قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم لعل اللّٰه أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول اللّٰه، أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد اللّٰه بن رواحة: يا رسول اللّٰه، انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم قال: فقال العباس: قطعت رحمك. قال: فدخل رسول اللّٰه ﷺ، ولم يرد عليهم شيئًا، فقال ناس: يأخذ برأي أبي بكر، وقال: ناس يأخذ برأي عمر وقال ناس: يأخذ برأي عبد اللّٰه بن رواحة، فخرج عليهم فقال: « **إن اللّٰه ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن اللّٰه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** [إبراهيم: ٣٦] **ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾** [المائدة: ١١٨]. **وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾** [نوح: ٢٦]. **وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾** [يونس: ٨٨]. **أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق** » قال عبد اللّٰه: يا رسول اللّٰه إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام؛ قال: فسكت. قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال: « **إلا سهيل بن بيضاء** » فأنزل اللّٰه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ... ﴾[1] إلى آخر الآيتين.

– ونقف وقفة عند فقه النبوة العظيم في الأسرى:

أ – ها هو ذا عليه الصلاة والسلام يستشير صحبه في الأمر، وبين يديه سبعون أسيرًا، وهو الغني عن المشورة بالوحي، والغني عن المشورة بسداد رأيه وعظمة تفكيره. ولكنها التربية للقيادات بعد أن لا تستغني عن الاستشارة إذا نزل بها أمر ذو بال.

ب – ونجد أدب الأصحاب قد ترك الرأي لأولي النُّهى والرأي، فقد كفاهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٣٥) ورواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنفال حديث (٣٠٨٤) وقال: حديث حسن.

أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما الرأي، ولم يبادر الصحب إلى التكرار واللغو طالما أنه لم يخرج عن هذين الرأيين، بينما تقدم عبد اللّه بن رواحة ﷺ برأي ثالث هو: أن يجمعهم في واد كثير الحطب، ويضرم بهم النار. فلقد كان سعد بن معاذ ﷺ من أنصار القتل كما تذكر الرواية المشهورة:

(فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول اللّه ﷺ في العريش، وسعد ابن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول اللّه ﷺ متوشحًا السيف في نفر من الأنصار، يحرسون رسول اللّه، يخافون عليه كرة العدو، ورأى رسول اللّه ﷺ - فيما ذكر لي - في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول اللّه ﷺ: « **واللّه لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم** » قال: أجل واللّه يا رسول اللّه، كانت أول وقعة أوقعها اللّه بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إلي من استبقاء الرجال)[1]، ومع ذلك لم نسمعه يبدي رأيًا أو يشارك، طالما أن عمر - رضي اللّه تعالى عنه - كفاه المؤونة.

جـ - وتفاوت الرأيين كبير بين العفو والقتل أو الإحراق بالنار، ومع ذلك لم يتهم فريق الآخر كما نرى في دنيانا المعاصرة وفي رجالنا اليوم، ومثل هذا التفاوت قد يقود إلى المفاصلة بين الفريقين: فريق يتهم الأول بالمداهنة في شريعة اللّه، وتفضيل القرابة على الدين، والتساهل مع العدو، وفريق يتهم الثاني بالاندفاع الأعمى، والتعصب، وفقدان الحكمة، والموعظة الحسنة في الدعوة إلى اللّه، ويتعصب ناس لهذا الرأي، وآخرون للرأي الثاني، وينقسم الصف ويقع الشقاق. ومع أننا لا ننكر أن وجود رسول اللّه ﷺ بين ظهرانيهم يحول دون استفحال هذا الموقف أو ذاك، لكننا نجد فرصة للنيل من أحد الرأيين، طالما رسول اللّه ﷺ لم يبد تبنيًا لأي من هذين الرأيين، ودخل بيته، فكل ما قاله الناس: أن رسول اللّه ﷺ قد يأخذ برأي أبي بكر أو عمر أو ابن رواحة - رضي اللّه عنهم -.

د - وسيد الساسة والقادة محمد عليه الصلاة والسلام خرج على الناس،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٨، ٢٦٩).

وكان بإمكانه أن يعلن رأيه مباشرة بترجيح أحد الآراء الثلاثة، إلا أنه أراد أن يربي هذه الأمة على اختلاف الرأي، واحترام هذا الاختلاف، وفقه الرأي الآخر - كما يقال - ومن أجل ذلك قدم للمسلمين نموذج أبي بكر ﷺ في اللين، ونموذج عمر ﷺ في الشدة، وأن كلا الرأيين منبثق من الإسلام، ويتسع الإسلام لهما دون حرج، فالشدة في اللّه، واللين لدعوة اللّه كلاهما مواقف في هذا الدين، لا تعارض بينهما، وحتى تنضج الصورة لدى الصحب استحضر لهم نماذج الأنبياء من أولي العزم، حيث مثل اثنان منهم الشدة في دين اللّه وهما موسى ونوح، ومثل اثنان آخران اللين في دعوة اللّه هما إبراهيم وعيسى وبذلك انسكب في نفوس الصحب الطمأنينة إلى صواب الموقفين وكل واحد منهما مناسب لحالة معينة.

هـ - ومع هذه المقدمة المسهبة التي أوضحت وزن الصاحبين عند اللّه تعالى ورسوله، جاء اختيار رسول اللّه ﷺ لرأي أبي بكر في أسلوب من الروعة والحكمة بحيث يبدو وكأنما أخذ برأي عمر.

« لا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ».

إن هذه الصياغة النبوية في التعبير لتوحي بعظمة إمام المربين، وهو يعلم أمته أصول الشورى واحترام الرأي، وطريقة التعبير عنه، وفن التعامل مع الآراء المختلفة والنفوس المختلفة، بحيث يجعل منها كلًّا واحدًا لتحقيق الهدف المطلوب.

و - ويستوقفنا كذلك ذلك التجرد العظيم عند عمر ﷺ، بحيث لا تأخذه في اللّه لومة لائم، فهو لم يكتف بالمشورة أن يقتل قادة الشرك وصناديدهم من الأسرى، وفي هذا ما يكفيه للتجرد للّه، وهو يدعو إلى قتل قومه، بل نجد قمة التجرد يوم قال: (ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم اللّه أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين).

فهو لا يكتفي ﷺ بالقتل على عمومه، بل لا بد أن يقوم الأخ بقتل أخيه، وكل واحد يقتل أقرب الناس إليه. ولم يكن هذا مجرد حماسة أو رغبة جارفة منه فقط، بل كان واقعًا حيًّا نفذه في بدر (قال ابن هشام: وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لسعيد بن العاص ومر به: إني أراك كأن في نفسك شيئًا، أراك تظن أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به، وهو يبحث بحث الثور بروقه، فحدت عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله)[1].

فعمر إذن قصد خاله، وحاد عن الغريب عنه بينما قصد علي ﷺ لابن عمه فقتله، وبذلك نشأ جيل يرى من قرابة العقيدة ما هو أكبر وأضخم بكثير من قرابة النسب، وما نعلم جيلًا بلغ من التجرد ما بلغه جيل بدر.

ز - ويستوقفنا كذلك الحس الإسلامي لدى عبد اللَّه بن مسعود ﷺ يوم يرفع صوته تعقيبًا على قول رسول اللَّه ﷺ: « **فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق** »، إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام. قال: فسكت.

لقد رأى عبد اللَّه نفسه وقد تجاوز حدود الأدب مع قائده محمد عليه الصلاة والسلام، حين استثنى سهيل بن بيضاء لذكره الإسلام. وخلال اللحظات القليلة جدًّا من صمت النبي ﷺ أحس عبد اللَّه أن حجارة من السماء ستنزل عليه لتألّيه على رسول اللَّه ﷺ (فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال: « **إلا سهيل بن بيضاء** ») فانداح خوفه بإقرار رسول اللَّه ﷺ له بذلك وجميل جدًّا أن يكون هذا الحس الإسلامي بين الجندي وقائده، بحيث لا يتجاوز الجندي حده ويدخل رأيه بكل صغيرة وكبيرة.

٢ - حوار مع الأسرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٧٧).

ولنا مع العباس ﷺ الشرح المستفيض لهذه الآية. ورغم أن العباس كان من المطعمين في قريش، فقد وجه رسول اللَّه ﷺ منذ بداية الأمر إلى أسره فقال: **« إني قد عرفت أن رجالًا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول اللَّـه ﷺ فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرهًا »**[1].

(وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: هذا واللَّه ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول اللَّه، فقال: **« اسكت فقد أيدك اللَّه بملك كريم »**)[2].

(فقد شاركت الملائكة في أسره. وشغل رسول اللَّه ﷺ به فلم يجد النوم إلى عينيه سبيلًا فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول اللَّه ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون في الوثاق بات النبي ﷺ ساهرًا أول الليل، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام يا رسول اللَّه؟ فقال: **« سمعت أنين عمي العباس في وثاقه، فأطلقوه »** فسكت، فنام ﷺ)[3].

وشارك بالرأي وهو في الأسر (فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس – رضي اللَّه عنهما – قال: لما فرغ رسول اللَّه ﷺ من القتلى، قيل له: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو في الوثاق: إنه لا يصلح لك. قال: **« لم؟ »** قال: لأن اللَّه وعدك إحدى الطائفتين، وقد أنجز لك ما وعدك)[4].

وعندما أحس بالخطر عليه بعث من يطمئن عليه ويحميه. فقد روى ابن مردويه والحاكم في المستدرك عن ابن عمر – رضي اللَّه عنهما – قال: لما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٩). (٢) صحيح السيرة النبوية (ص ١٨٠ ، ١٨١).
(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٨٩) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣/ ٣٠٠).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٣/ ٢٩٦).

أسر الأساري يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « **إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه** » قال عمر: أفآتيهم؟ قال: « **نعم** » فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا واللَّه لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول اللَّه رضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فخذه، فأخذه عمر فلما صار في يده، قال له عمر: يا عباس أسلم فواللَّه لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول اللَّه يعجبه إسلامك..)[1].

ولا غرو في هذا الأمر، فلقد كان رسول اللَّه ﷺ في جواره منذ وفاة أبي طالب حتى الهجرة، وحضر معه بيعة العقبة ليطمئن عليه إن غادر مكة. ثم ماذا عن إسلامه وفدائه؟

وعن ابن إسحاق: (بعثت قريش إلى رسول اللَّه ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا. وقال العباس: يا رسول اللَّه، إني كنت مسلمًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اللَّه أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فاللَّه يجزيك بذلك، فأما ظاهر أمرك فكان علينا، فافدِ نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بني الحارث ابن فهر** » فقال: ما ذاك عندي يا رسول اللَّه؟ قال: « **فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل؟** » فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا فهذا المال لبنيَّ: الفضل وعبد اللَّه وقثم فقال. يا رسول اللَّه، إن هذا لشيء ما علمه غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول اللَّه ما أصبتم مني، عشرين أوقية من مال كانت معي. فقال رسول اللَّه ﷺ: « **لا، ذاك شيء أعطاناه اللَّه منك** » ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه وأنزل اللَّه فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ ...﴾ الآية.

قال ابن إسحاق: وكان أكثر الأساري فداء العباس بن عبد المطلب؛ لأنه كان

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢٢).

رجلًا موسرًا فافتدى نفسه بمائة أوقية من الذهب، وفي البخاري: وقال موسى ابن عقبة: قال ابن شهاب: حدثني أنس بن مالك أن رجالًا من الأنصار استأذنوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: يا رسول اللَّه ائذن لنا، فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. فقال: « **لا واللَّه لا تذرون درهمًا** ».

وذكر النقاش وغيره أن فداء كل واحد من الأسرى كان أربعين أوقية، إلا العباس فإن النبي ﷺ قال: « **أضعفوا الفداء على العباس** » وكلفه أن يفدي ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث. فأدى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقية)[1].

لقد فرق رسول اللَّه ﷺ بين حسن معاملة العباس بصفته الردء للدعوة والحامي لها في أحلك مراحلها، أو بصفته المسلم المكلف بإخفاء إسلامه، والذي يحمل دورًا خطيرًا بوجوده في مكة، وبين إعفائه من الفداء وهو القادر عليه، وبمقدار ما أحسن معاملته ﷺ شدد بأخذ المال منه، فهو يرفض أن يعفى ولو من درهم واحد، بل يضاعف عليه الفداء ويكلفه بفداء ثلاثة آخرين هم أبناء أخويه وحليفه.

لكننا نجد تدخلًا آخر بالإعفاء مع فقيرة من فقيرات مكة، بعثت تفدي زوجها بالقلادة التي تملكها، وكانت هذه الفقيرة زينب بنت محمد ﷺ (ففي مصنف أبي داود عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول اللَّه ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: « **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها؟** » فقالوا: نعم، وكان النبي ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول اللَّه ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: « **كونا ببطن يأجج[2] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيا بها** » قال ابن إسحاق: وذلك بعد بدر بشهر،

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٥٢، ٥٣).

(٢) بطن يأجج: موضع بمكة.

قال عبد اللَّه بن أبي بكر: حدثت عن زينب بنت رسول اللَّه ﷺ أنها قالت:

لما قدم أبو العاص مكة قال لي: تجهزي فالحقي بأبيك، قالت: فخرجت أتجهز فلقيتني هند بنت عتبة فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت لها: ما أردت ذلك، فقالت: أي بنت عم، لا تفعلي، إني امرأة موسرة، وعندي سلع من حاجتك، فإن أردت سلعة بعتكها، أو قرضًا من نفقة أقرضتك، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت: فواللَّه ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، فخفتها فكتمتها، وقلت: ما أريد ذلك. فلما فرغت زينب من جهازها ارتحلت، وخرج بها حموها يقود بها نهارًا - كنانة بن الربيع - وتسامع بذلك أهل مكة، وخرج في طلبها هبار بن الأسود، ونافع بن عبد القيس الفهري، وكان أول من سبق إليها هبار، فروعها بالرمح وهي في هودجها وبرك كنانة ونثر نبله ثم أخذ قوسه وقال: واللَّه لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا. وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش، فقال: يا هذا، أمسك عنا بنبلك حتى نكلمك، فوقف عليه أبو سفيان، وقال: إنك لم تصنع شيئًا، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس، وقد عرفت مصيبتنا التي أصابتنا ببدر، فتظن العرب وتتحدث أن هذا وهن منا وضعف، خروجك إليه بابنته على رؤوس الناس من بين أظهرنا. ارجع بالمرأة فأقم أيامًا ثم سلها[1] سلًّا رقيقًا في الليل، فألحقها بأبيها، فلعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك الآن من ثؤرة[2] فيما أصاب منا، ففعل، فلما مر به يومان أو ثلاثة سلها، فانطلقت حتى قدمت على رسول اللَّه ﷺ. فذكروا أنها قد كانت ألقت للروعة التي أصابتها حين روعها هبار بن أم أدهم ما في بطنها)[3].

رسول اللَّه ﷺ يفتح اللَّه تعالى عليه في بدر، والملائكة تشهد المعركة بجانبه، وابنتاه إحداهما رهينة في مكة بيد العدو والثانية رهينة المرض الشديد

---

(١) سلها: انطلق في استخفاء.
(٢) ثؤرة: ثأر منها.
(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٥٤).

في المدينة هي رقية - رضي اللّه عنها - وبشائر النصر في بدر وصلت إلى المدينة، والمسلمون يهيلون التراب على قبرها، فلم يقعده المرض الشديد لابنته الثانية، ولا الإقامة في أرض العدو للأولى عن أداء مهمته في حرب العدو ومواجهته، ولم يثنه عن رسالته دخوله على ابنته في مكة؛ أن يخوض حربًا طاحنة ضد قريش، وهو درس للدعاة والمجاهدين أن لا يثنيهم خوف عن أداء رسالتهم أو جزع على أولادهم عن متابعة جهادهم، فكل شيء يهون في سبيل اللّه وكل شيء في جنب اللّه قليل.

والأصوات التي ترتفع أحيانًا وتدعو لوقف الجهاد مع الطاغوت؛ لأن بناتنا رهائن بين يديه، ونساءنا وأعراضنا، هي أصوات صادقة، لكنها مخطئة بدون شك، فالحرب لا بد لها من خسائر في الأموال والأرواح والأولاد، لقد كان المسلمون يخوضون المعارك، واحتمال الهزيمة قائم. وفي الهزيمة حسب قانون الحرب في تلك العهود يكون نساء المسلمين سبايا بيد العدو، ولم يقعد ذلك الأمر المسلمين عن الجهاد، أو يبرر لهم التخاذل والنكوص على الأدبار، والاستسلام للعدو الكافر.

لكننا ننظر للموضوع من ناحية ثانية ونتعجب، نعجب لقيم الجاهلية في تلك الأيام وقيمها اليوم!!

بنت محمد ﷺ الذي ذبح سبعين من قادة مكة وأسر سبعين من أشرافها بين يدي طواغيت مكة، وحسب فهمنا اليوم، لا بد أن ننتقم منها، وتقطع إربًا إربًا، وتؤخذ إلى كل بيت فيه قتيل، يأخذون ثأرهم منها، بل ليس بنت محمد فقط، لكن كل من يمت إلى محمد من بني هاشم رجالًا ونسوة.

زينب بنت محمد يخرج بها حموها الكافر على عيون الأشهاد، والأحقاد والدماء والثارات في كل بيت، فيتعرض لها سفيه من سفهاء مكة، لعله وتر بأخيه أو ابنه أو قريبه، ويروعها في هودجها، فينثر الحمو الكافر كنانته، ويستعد لمجزرة جديدة في مكة، يقتل بعدها، حفاظًا على بنت محمد وهو على غير

دينها، وأخوه كان في الجيش الذي مضى لحرب محمد ﷺ.

ولا نستغرب هذه الصورة، فقد يحوي مجتمعنا مثل هذه الشهامة والمروءة عند بعض الجاهليين فيه.

لكن الأغرب والأعجب هو صنيع أبي سفيان زعيم مكة وزوجه هند بنت عتبة، أما هند فهي التي كانت تضاهي العرب بمصيبتها في بدر في سوق عكاظ، وترد على الخنساء، فلقد قتل أبوها وأخوها وعماها وابنها البكر في بدر، وهي التي بلغ الحقد عندها مبلغًا لم نسمعه عن امرأة في التاريخ حين لاكت كبد حمزة بعد مقتله، وهو الذي قتل لها أركانها الأربعة، واتخذت من أذنيه وأنفه أقراطًا لها، وأعطت أقراطها وذهبها وجواهرها لمن ثأر لها منه، هند هذه، تأتي زينب بنت محمد التي تريد أن تذهب إلى أبيها محمد ﷺ. تأتي إليها فتخاطبها: يا بنت عم. لا تفعلي (أي لا تخافي وتكتمي على سفرك) إني امرأة موسرة وعندي سلع من حاجتك، فإن أردت سلعة بعتكها، أو قرضًا من نفقة أقرضتك، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال؟

إنها قيم من قيم الجاهلية. لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، ولا تنسى واجبها نحو ابنة عمها، نحو ابنة أعدى أعدائها، فتعرض لها المعونة، وبشهادة زينب - رضي اللَّه عنها -: فواللَّه ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. أي امرأة هذه؟ وأي قيم هذه؟ حين نقارن هذه الصورة بجاهليتنا اليوم بل دعونا نقول أكثر، بمسلماتنا اليوم، هل تستطيع مسلمة داعية اليوم أن تصنع صنيع هند! فلقد قتل نسيب إحدى الداعيات في عملية من العمليات ضد الطغاة، فكادت أن تفقد وعيها عن متابعة العمل الجهادي لهول الصدمة، وهند الموتورة الثائرة بأركانها الأربعة تعرض لبنت محمد ﷺ المال والمعونة..!

وتوجت موقفها هذا بأن نظرت إلى هبار بن الأسود ومن معه اللذين تعرضا لبنت محمد عندما أرادت الخروج وروعاها بالرمح، نظرت إليهم نظرة احتقار، واكتفت أن تقول لهما:

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟[1]

ولم يكن صنيع أبي سفيان قائد مكة بأقل عجبًا من تصرف زوجه، فعلى مسؤوليته مع أشراف مكة يعالج الوضع، ويرضي خواطر بنت محمد، ويحذر حماها سفاهة السفهاء والموتورين، ويبين له ألا يأخذ خروج بنت محمد طابع التحدي لمكة الموتورة المقهورة ويحثه على الخروج بها ليلًا، فلن يكون الثأر من بنت محمد.

نتحدث عن هذه الجاهلية وقيمها، في الوقت الذي نرى فيه جاهلية اليوم تفعل بالآمنين العزل ما يشيب له الولدان، فقد حبس زوج وزوجة أربع سنين رهينة عن صهرهما، ولاقيا أنواع التعذيب والتنكيل؛ لأن صهرهما يقاوم الطغاة. وها هن أولاء عشرات النسوة يقمن في الزنزانات السنين الطوال، ويمكثن عشر سنين أو عشرين سنة حين ينظر إليهن من بين المعتقلين، ولا كرامة لامرأة أو شيخ أو طفل..!

ومن أجل مشكلة الأسرى تم دخول شيطان قريش في الإسلام:

(روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال:

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو في مكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: واللَّه إن في العيش بعدهم خير[2]، قال له عمير: صدقت واللَّه، أما واللَّه لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة؛ ابني أسير بين أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان. وقال: عليَّ دَيْنك أنا أقضيه عنك؛ وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام(٢/ ٣٠٢) (الأعيار: الحمير، والعوارك: الحيض).

(٢) أي: واللَّـه ما في العيش بعدهم لخير، وإن هنا بمعنى ما النافية.

لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: اكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له[١] وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر ابن الخطاب ﷺ في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم اللَّه به وما أراهم به من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدو اللَّه عمير بن وهب واللَّه ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا[٢] وحزرنا[٣] للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر ﷺ على رسول اللَّه ﷺ فقال له: يا رسول اللَّه هذا عدو اللَّه عمير بن وهب، قد جاء متوشحًا سيفه، قال: « **فأدخله علي** » قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه[٤] بها، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول اللَّه ﷺ فاجلسوا عنده. واحذروا من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول اللَّه ﷺ فلما رآه رسول اللَّه ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: « **أرسله يا عمر.. ادن يا عمير** » فدنا ثم قال: انعموا صباحًا - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول اللَّه ﷺ: « **قد أكرمنا اللَّه بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة** »، فقال: أما واللَّه يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: « **فما جاء بك يا عمير** »، قال: جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم فأحسنوا فيه، قال: « **فما بال السيف في عنقك؟** » قال: قبحها اللَّه من سيوف وهل أغنت عنا شيئًا؟ قال: « **اصدقني ما الذي جئت له؟** » قال: ما جئت إلا لذلك. قال: « **بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، واللَّه حائل بينك وبين ذلك** ». قال عمير: أشهد أنك رسول اللَّه، قد كنا يا رسول اللَّه نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فواللَّه إني لأعلم ما أتاك به إلا اللَّه، فالحمد للَّه الذي هداني للإسلام،

---

(١) شحذ له: سن له وحده.
(٢) حرش بيننا: أفسد بيننا.
(٣) حزرنا: قدر عددنا.
(٤) لببه: جمع ثيابه عند نحره في الخصومة ثم جره.

وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول اللَّه ﷺ: « فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره » ففعلوا.

ثم قال: يا رسول اللَّه، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور اللَّه، شديد الأذى لمن كان على دين اللَّه ﷻ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى اللَّه تعالى، وإلى رسوله وإلى الإسلام، لعل اللَّه يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول اللَّه ﷺ ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بواقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا.

قال ابن إسحاق: فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه كثير، قال ابن إسحاق: وعمير بن وهب، أو الحارث بن هشام، قد ذكر لي أحدهما الذي رأى إبليس حين نكص[1] على عقبيه يوم بدر، فقال: أين أي سراقة، ومَثَلَ عدوُّ اللَّه فذهب)[2].

بقي أن نعيد إلى الذاكرة أن عمير بن وهب ﷺ هو الذي كان يعد في المسلمين بألف رجل، وهو واحد من الأربعة الذين بعثهم عمر بن الخطاب ﷺ مددًا لعمرو في مصر، وحسبهم على عمرو بأربعة آلاف.

وأما قصة الفداء بتعليم الكتابة أو بغير فداء فهي كما رواها المقريزي: (وفك رسول اللَّه ﷺ عن السائب بن عبيد وعبيد بن عمرو بن علقمة بغير فدية. وقد أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي؛ لأنهما لا مال لهما، ولم يقدم لهما أحد. وكان في الأسرى من يكتب ولم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، وكان منهم من لا مال له، فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة، ويخلي سبيله. فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار.

خرَّج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس قال: كان ناس من

---

(١) نكص: لطئ بالأرض واختفى.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣٠٩).

الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء. فجعل رسول اللَّه ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء غلام يبكي إلى أبيه. قال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث يطلب بِذَحْلِ[1] بدر. واللَّه لا تأتيه أبدًا[2]. وقال عامر الشعبي: كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علَّم عشرة من أولاد المسلمين، فكان زيد بن ثابت ممن علَّم)[3].

وهكذا كان وضع الأسرى، مدرسة تربوية في المدينة، نشروا العلم في ربوع الأنصار وتعرفوا على المجتمع الإسلامي عن كثب. حيث كان أمر رسول اللَّه ﷺ بالإحسان إليهم واضحًا إذ قال: استوصوا بالأسارى خيرًا.. وكثير منهم أسلم بعدما رأى من حسن هذه المعاملة، وذلك كما يروي لنا بن إسحاق عن أبي عزيز ابن عمير (فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول اللَّه ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها فيردها عليَّ ما يمسها)[4] ولا غرو أن يخاطبهم اللَّه تعالى:

﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ أي إسلامًا ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠]. أي من الفدية، قيل: في الدنيا، وقيل: في الآخرة (وفي صحيح مسلم: أنه لما قدم على النبي ﷺ من مال البحرين قال له العباس: إني فاديت نفسي، وفاديت عقيلًا، فقال رسول اللَّه ﷺ « خذ » فبسط ثوبه وأخذ ما استطاع أن يحمله)[5].

***

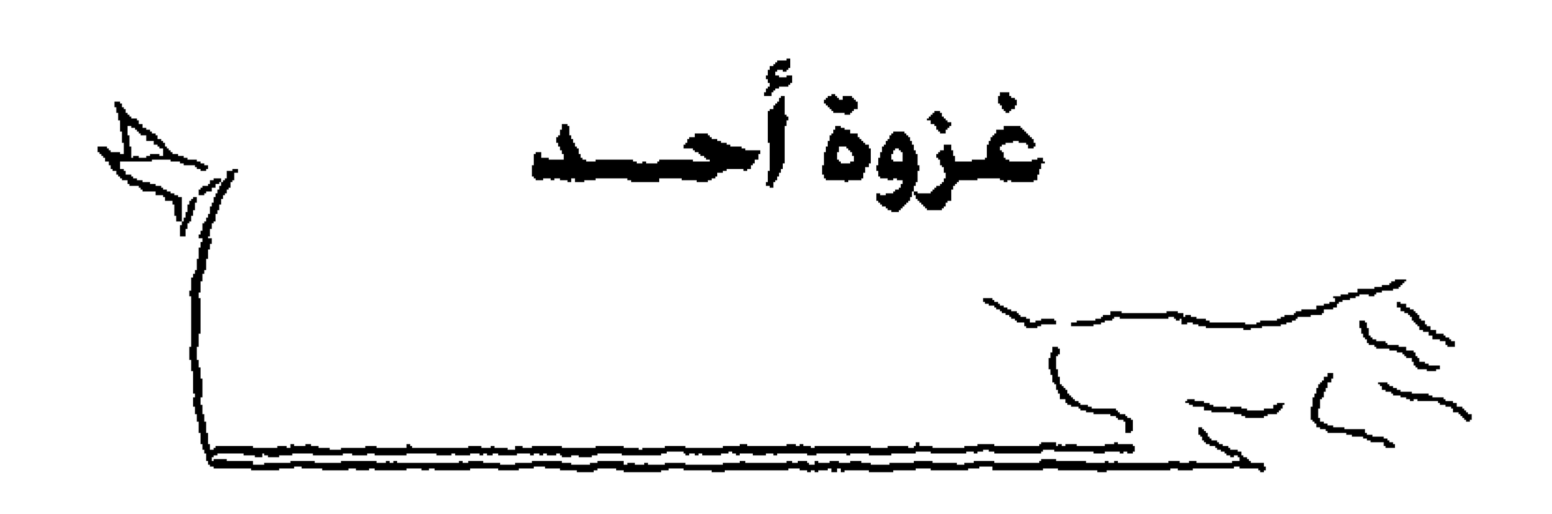
(١) الذحل: الثأر أو العداوة والحقد.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢١٧).

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ١٠١).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٨٨).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٨/ ٥٣).



غزوة أحد

معركة الأخلاق:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ۞ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠ - ١٣٦].

يحسن ألا ننسى أن هذه التوجيهات القرآنية تتنزل على المجتمع الإسلامي الأول على تفاوت طبقاته ففيهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وفيهم الجيل الجديد الذي غزا الإسلام قلبه بعد بدر ورأى نصر اللَّه تعالى يتنزل على المؤمنين، ووضح له الفرقان بين الحق والباطل من خلالها، أي أن عمره في الإسلام عام واحد فقط، ومن بين هؤلاء الذين لا يزالون في الصف المسلم من المنافقين، ولا يزال النداء يتوجه إليهم ليثوبوا إلى رشدهم، ويؤمنوا حقيقة لا نفاقًا، ويتقوا النار التي أعدت للكافرين، ويسارعوا إلى مغفرة من ربهم، وتوبة نصوح تغسل حوبتهم، وتعيد نظافتهم مما تلوثوا به من النفاق.

وكان كل فرد في الصف المسلم يتلقى هذه الآيات حسب مستوى الإيمان عنده ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتاب الذين في قلوبهم مرض.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ولا يزال البناء بالصبر والتقوى، هذا البناء الذي ظهر على الساحة خلل فيه، فأفقد المؤمنين النصر، لا بد أن يعودوا إلى صياغة البناء من جديد.

(أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كانوا يتبايعون إلى الأجل فإذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾[1]).

ويعجب المرء عن علاقة الربا في معركة أحد، لكن هذا العجب سرعان ما يزول حين نعلم أن الربا ابتداءً جشع في النفس ونهم إلى المال، وحين نذكر أن هذا الداء من النهم إلى المال والطمع في الدنيا هو الذي قاد محنة أحد إلى المسلمين، حين لم يتمالكوا أنفسهم أمام الغنيمة من المشركين، وعصوا أمر رسول اللَّه ﷺ الصريح في عدم مغادرتهم مواقعهم، يتضح تمامًا دور هذا التوجيه في أعقاب المعركة.

والدواء الأصيل للمؤمن في الخلاص من أكل الربا، هو تقوى اللَّه، وخوف عذابه في النار التي أعدت للكافرين، ولكنها قد تلتهم المؤمنين العصاة، الذين يحاربهم اللَّه ورسوله ما لم يذروا الربا.

ومن جانب آخر إذا كان الإصرار على الربا عقوبته ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والذي يحاربه اللَّه ﷻ ليس مؤهلًا للاستخلاف من جهة، أو النصر من جهة ثانية، فلا بد أن يخلص الصف المؤمن من هذا الداء الوبيل، ويرتفع إلى مستوى الطاعة التامة للَّه والرسول لتحقيق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

لكن هل يكفي الامتناع عن الربا، وأكله أضعافًا مضاعفة، للنجاة والفلاح والنجاح؟

---

(١) الدر المنثور (٤/ ٣١٣).

لا بد من الخطوة اللاحقة لتحقيق التقوى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والمسارعة إلى التوبة من الربا وذيوله لتحقيق المغفرة واتقاء النار التي أعدت للكافرين، لا بد من الخطوات الإيجابية السريعة للوصول إلى الجنة التي أعدت للمتقين. فليس الأمر كفًّا عن الحرام فقط، لكنه كذلك مبادرة إلى الخيرات.

فمن هؤلاء؟ هم المتقون.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

(فليس الأمر انتهاءً عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة لإثمار المال بالطرق الحرام، بل هو إنفاق كذلك في السراء والضراء، في العسر واليسر، لإثمار المال بالطريق الحلال. إنها خطوات ضخمة في البناء، من تنمية المال بالحرام أضعافًا مضاعفة إلى إنفاقه في الحلال أضعافًا مضاعفة، في الفاقة والغنى، والعسر واليسر، والسراء والضراء، ولا شك أن هذا يحتاج إلى خطوات متسارعة للوصول إلى هذا الأفق الوضيء من ذلك المستنقع الوبيء، وتبقى القضية كلها ابتداءً معركة نفوس ترقى وترقى حتى تصل إلى هذا المستوى، فوراء الربا أضعافًا مضاعفة نفوس منحطة منهمة شرهة، تقتات على حاجة الآخرين، ووراء الإنفاق في السراء والضراء نفوس عالية كريمة رفيعة تتخلى عن قوتها لتكفي حاجة الآخرين، وشتان بين الثرى والثريا.

هذه النفوس تحتاج إلى بذل غير بذل المال، تحتاج لتكون من المتقين أن تكون من: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تحتاج ابتداءً أن توقف جماح غيظها وغضبها، كما توقف جماح نهمها وشهوتها، ثم تنتقل بعدها إلى العفو والإحسان، إلى الإنفاق من العفو كما تنفق من المال، إلى الصدقة بالإعراض على من شتم، كما تتصدق بالضراء على من احتاج، تحتاج إلى أن تكون من المحسنين إلى من أساء إليها بالعفو والإكرام، وإلى من

احتاج النفقة أو القوت بالبذل والإكرام، وتبقى أخيرًا ضمن إطار المتقين. هذا الصبر وهذه التقوى، الذي فات قبل أحد، كيف يعاد؟ وكيف يبنى من جديد؟

كظم الغيظ لا يكفي (فالغيظ انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم، فهي إحدى دفعات التكوين البشري وإحدى ضروراته، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراقة التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات، وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين.. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن.. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين – إنها العفو والسماحة والانطلاق.

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه، وشواظ يلفح القلب، ودخان يغشى الضمير.. فأما حين تصفح النفس، ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرفة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير.. والله يحب المحسنين)[١].

(وحين تتجسد الآية في واقع عملي تتضح أبعادها، فقد روي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة، وعنده أضياف، فعثرت فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي استعمل قول الله تعالى ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ قال لها: قد فعلت، فقالت: اعمل بما بعده ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فقال: قد عفوت عنك، فقالت الجارية: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ميمون: قد أحسنت إليك فأنت حرة لوجه الله تعالى)[٢].

وروي عن الأحنف بن قيس مثله.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤/ ٤٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣٠٧).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

ثلاثة خطوط في النفس البشرية - تنطلق هذه الآيات لتعالجها: شهوة المال، وشهوة الغضب، وشهوة الجنس. ولا بد من ضبط هذه الشهوات ابتداءً بحيث لا تجمح خارج الإطار، في الربا الماحق، والغضب الساحق، والفاحشة المهلكة، ثم تعود لترتفع بعدها، إلى الإنفاق في السراء والضراء، وإلى العفو عن المسيء، والإحسان إليه، وإلى الاستغفار وهجر الإصرار.

وكم هو ارتباط الصبر والتقوى بكبح جماح هذه الشهوات الثلاث، التي يعتمل سعارها في القلب فيؤدي لظاها إلى السعير، بينما تقف عظمة مواجهتها حرقًا لحب المال بالإنفاق، وخنقًا للغيظ بالإحسان، وإطفاءً للهيب الشهوة الحرام بالتوبة النصوح.

وإن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين.. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة اللّه، ولا تجعلهم في ذيل القافلة.. قافلة المؤمنين.. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة.. مرتبة « المتقين ».. على شرط واحد، شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته.. أن يذكروا اللّه فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى: أن يكونوا في إطار العبودية للّه والاستسلام له في النهاية، فيظلوا في كنف اللّه وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

(إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر اللّه في حمى الاندفاع، يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه،

ولا يبادر إلى طرده من رحمة اللّه حين يظلم نفسه، حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة.. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته باللّه ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له ربًّا يغفر، وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف المخطئ المذنب بخير، إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل.

فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر، فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه، والحبل في يده، ما دام يذكر اللّه ولا ينساه، ويستغفره، ويقر بالعبودية له، ولا يتبجح بمعصيته)[١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

فلا بد أن تكون النتيجة جاهزة والثمرة دانية للذين يستغفرون ولا يصرون على ما فعلوا، فالجزاء المغفرة والجنة التي تجري من تحتها الأنهار.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **إن أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال اللّه: أذنب عبدي، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك** » [٢].

(وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: « **عليكم بلا إله إلا اللّه والاستغفار، فأكثروا منهما فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، فأهلكوني**

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول اللّه تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، حديث (٧٥٠٧) ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، حديث (٢٧٥٨).

بلا إله إلا اللّه والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون »)[١].

النفوس في جو فقدان القائد:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣ - ١٤٥].

وبعد أن أعلم اللّه تعالى المؤمنين سننه في الأمم من قبلهم، وأن التمحيص لا بد وأن يقع في الصف المؤمن، عرض القرآن الكريم الصفحة النفسية ابتداءً والتي كان عليها المؤمنون قبيل أحد، ذلك الجو المشحون بالشهادة، العبق بالدم.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

(أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ونستشهد، أو ليت لنا يومًا كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلي فيه خيرًا، ونلتمس الشهادة والجنة والحياة والرزق، فأشهدهم اللّه أُحُدًا فلم يلبثوا - إلا من شاء اللّه منهم - فقال اللّه: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ... ﴾[٢].

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: غاب رجال عن بدر، فكانوا يتمنون مثل بدر فيصيبوا من الأجر والخير ما أصاب أهل بدر، فلما كان يوم أحد ولى من ولى، فعاتبهم اللّه على ذلك)[٣].

(وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: بلغني أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده (١/ ١٢٣).

(٢) الدر المنثور (٢/ ٣٣٥). (٣) المرجع السابق.

كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبي ﷺ لنفعلن ولنفعلن، فابتُلوا بذلك، فلا واللّه ما كلهم صدق اللّه، فأنزل اللّه ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ... ﴾)[1].

هذه الصورة نلقاها في القرآن الكريم، ونلقاها في التفسير، لكننا نبحث عنها في ثنايا السيرة فلا نجدها وكل ما نجده عند ابن إسحاق في السيرة قوله:

(ولقد كنتم تمنون الشهادة على الذي أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم، يعني الذين استنهضوا رسول اللّه ﷺ إلى خروجه بهم إلى عدوهم؛ لما فاتهم من حضور اليوم الذي كان قبله ببدر، ورغبة في الشهادة التي فاتتهم بها فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ أي الموت بالسيوف في أيدي الرجال قد خلى بينكم وبينهم، وأنتم تنظرون إليهم، ثم صدهم عنكم)[2].

ولا نلاحظ من خلال تفسير ابن إسحاق - رحمه اللّه تعالى - للآية معنى هذا العتاب النفسي، والذي هو هدف رئيسي في التربية القرآنية.

وحين نعرض للآيتين بهدف المقارنة للتربية المطلوبة يتضح جانب مهم من المعنى المطلوب بناؤه في نفس الجيل النبوي:

الآية الأولى في بدر: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

والآية الثانية في أحد: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ فقد كان الخوف من المواجهة مع العدو هو الشعور المسيطر قبيل بدر ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] وهذا الخطاب عام لأهل بدر، وإن كان هذا الشعور قد ارتفع أكثر وأكثر عند فريق منهم، فبلغ ذروته، كما يشهد التعبير القرآني ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦].

بينما كانت الثقة بالنصر والتأييد الرباني، والرغبة في الشهادة، هي الشعور

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٤/ ٧٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣/ ١١١).

المسيطر قبيل أحد ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾.

والفرق واسع جدًّا بين ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ وبين ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ... ﴾ والأنعام هي التي تساق للذبح.

وكلا الشعورين، حين يعرضهما القرآن جليين يهدف إلى عرض الضعف البشري عند الخوف من المواجهة والضعف البشري عند الاستخفاف بالعدو، والإرادة الربانية تقول لهذا الجيل: إن الصورتين متكاملتان على ما فيهما من تناقض، وهو تعالى الذي يملك النصر ويعطيه هبة منه سبحانه على إرادتكم غير ذات الشوكة، ورعب فريق منكم كأنه يساق إلى الموت.

وهو جل شأنه الذي يقرر الابتلاء والمحنة، رغم الاستخفاف بالعدو، وتمني الموت، والاعتماد على النفس في إمكانية تحقيق النصر.

إنه درس عميق لهذه النفوس حين تخاف وحين ترجو: أن ترتبط بالله وحده واهب النصر، والقادر على المحنة والابتلاء.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾.

يقول الإمام ابن جرير:

(ثم قال لأصحاب محمد معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد أن محمدًا قد قتل، ومقبحًا إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم. أفإن ماتِ محمد أيها القوم لانقضاء أجله أو قتله عدوكم انقلبتم على أعقابكم؟ يعني ارتددتم عن دينكم الذي بُعث محمدًا بالدعاء إليه، ورجعتم عنه كفارًا بالله بعد الإيمان به.. ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ يعني ذلك: من يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافرا بعد إيمانه فلن يضر الله شيئا، يقول: فلن يوهن ذلك عزة الله وسلطانه، ولا يدخل بذلك نقص في ملكه بل نفسه يضر)[1].

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٧٤).

فهل كان مقتل رسول اللّه ﷺ من الضخامة بحيث يدفع بعض المسلمين إلى الارتداد عن دينه؟

لقد برزت هذه الظاهرة في إطار ضيق في أحد، ولكنها كانت في إطار واسع بعد وفاة رسول اللّه ﷺ يوم كانت الردة الكبرى من العرب.

إن غياب شخص القائد عن الساحة له من الآثار الضخمة بحيث يؤدي إلى الارتداد والكفر عند ضعاف الإيمان، خاصة إذا كان القائد هو رسول رب العالمين.

وحين يشير القرآن إلى هذا الأمر الخطير - نجد أن كتب السيرة لا تعطيه حجمه المطلوب، إنما تركز على الذين ثبتوا مع رسول اللّه ﷺ، بحيث لا يكاد حيز هذه القضية يذكر بجوارهم. بينما نرى صورة واضحة عن ذلك في كتب التفسير.

(فعن قتادة قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... ﴾ قال: ذاكم يوم أحد حين أصابهم القرح والقتل ثم تناعوا نبي اللّه ﷺ بقية ذلك، فقال أناس: لو كان نبيًّا ما قتل، وقال أناس من علية أصحاب نبي اللّه ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح اللّه لكم أو تلحقوا به)[١].

وعن السدي قال: (وفشا في الناس أن رسول اللّه ﷺ قد قتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولًا إلى عبد اللّه بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم)[٢].

وعن الضحاك قال: (نادى مناد يوم أحد حين هزم أصحاب محمد ﷺ: ألا إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى دينكم الأول، فأنزل اللّه ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾)[٣].

وفي رواية عنه (.. ناس من أهل الارتياب والمرض والنفاق قالوا يوم فر

(١-٣) تفسير الطبري (٤/ ٧٤).

الناس عن نبي اللَّه ﷺ وشج فوق حاجبيه، وكسرت رباعيته: قتل محمد فالحقوا بدينكم الأول)[1].

وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما (أن رسول اللَّه ﷺ اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة والناس يفرون ورجل قائم على الطريق يسألهم: ما فعل رسول اللَّه ﷺ؟ فيقولون: ما ندري ما فعل، فقال: والذي نفسي بيده لئن كان النبي ﷺ قتل لنعطينهم بأيدينا إنهم لعشائرنا وإخواننا)[2].

(وصرخ الشيطان عند جبل عينين. وقد تصور في صورة جعال بن سراقة ﷺ: إن محمدًا قد قتل (ثلاث صرخات) ولم يشك فيه أنه حق، وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك: إن كان رسول اللَّه ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا اللَّه شهداء؟ وقالت جماعة: ليت لنا رسولًا إلى عبد اللَّه بن أبي ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم)[3].

ونلحظ أن الذين ارتدوا على أعقابهم هم الذين قالوا: لو كان نبيًا ما قتل، فارجعوا إلى دينكم الأول.

أما الذين ضعفوا، وانهارت عزائمهم، فلا يدخلون ضمن هذا الفريق..

والملاحظة الثانية: أن هؤلاء ليسوا من المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، إنما هم من المؤمنين الذين ارتدوا على دينهم، وانقلبوا على أعقابهم حين علموا بمقتل الرسول ﷺ.

والحديث في هذا القسم من الآيات لا يزال يتناول فريق المؤمنين، الثابتين منهم كالطود لا يتزعزع إيمانهم ولا يضعفون ولا يستكينون، والذين اهتزت نفوسهم وضعفوا ووصل الأمر لدى بعضهم أن يطلبوا الأمان من أبي سفيان عن

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٧٤). (٢) المرجع السابق.

(٣) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٦٠، ٢٦١).

طريق عبد اللّٰه بن أبي، أو يلقوا بأنفسهم أسرى بيد أعدائهم، أو فروا من المعركة، والفريق الثالث هم الذين نكصوا على أعقابهم، وارتدوا على أدبارهم.

ولا يفوتنا أن نشير إلى رأي آخر في تفسير هذه الآية، وهو أن المقصود بالانقلاب على العقب هو الانهزام من المعركة.

يقول القرطبي: (... روي أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد حين صاح الشيطان: قد قتل محمد. قال عطية: فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم ما بأيديكم فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم، حتى تلحقوا به فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... ﴾ فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ بالموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء. واللّٰه أعلم)[1].

النصر أولًا، وأسباب المحنة ثانيًا:

يقول جل ثناؤه:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾:

ولنستمع إلى صدق هذا الوعد من الشهود العيان:

١ - فعن البراء بن عازب قال:

(لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول اللّٰه ﷺ ناسًا من الرماة وأمَّر عليهم عبد اللّٰه بن جبير، وقال لهم: « لا تبرحوا مكانكم، وإذا رأيتموهم

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم » فلما التقى القوم، وهزمهم المسلمون؛ حتى نظروا إلى النساء يشتددن في الجبل قد رفعن عن سوقهن، بادية خلاخيلهن، فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال لهم عبد اللّه: أمهلوا، أما عهد إليكم رسول اللّه ﷺ ألّا تبرحوا؟ فانطلقوا. فلما أتوهم صرف اللّه وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلًا)[1].

٢ – وعن الزبير ﷺ قال:

(واللّه لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل! انكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم)[2].

٣ – وعن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال:

(ما نصر اللّه نبيه في موطن كما نصر يوم أحد، فأنكروا، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب اللّه، إن اللّه تعالى يقول في يوم أحد ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ والحس: القتل، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإنما عنى هذا الرماة، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال: **« احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا »** فلما غنم النبي ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماة جميعًا فدخلوا في العسكر ينتهبون، والتفت صفوف المسلمين، فهم هكذا – وشبك بين يديه – والتبسوا، فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها دخل الخيل من ذلك الموضع على الصحابة، فضرب بعضهم بعضًا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، ولقد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٦٧). وقد روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير مثله.

(٢) السيرة لابن هشام (٢/ ٢٥).

كان لرسول اللَّه ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجَالَ المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغاب. إنما كانوا تحت المهراس وصاح الشيطان: قتل محمد، فلم يشك فيه أنه الحق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قتل، حتى طلع بين السعدين نعرفه بتكفؤه إذا مشى، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، فَرَقِيَ نحونا وهو يقول: « **اشتد غضب اللَّه على قوم أدموا وجه نبيهم** »)[1].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(لما رأى أصحاب عبد اللَّه بن جبير - وهم الرماة - ما حصل للمشركين قالوا: أي قوم الغنيمة الغنيمة، لِمَ تقيمون ها هنا في غير شيء؟ وقد هزم اللَّه تعالى العدو، وهؤلاء إخوانكم قد ظهروا، وهم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم، فقال عبد اللَّه بن جبير ومن وافقه: ألم تعلموا أن رسول اللَّه ﷺ قال لكم: « **احموا ظهورنا، ولا تبرحوا مكانكم، وإذا رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإذا غنمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا..** ».

فقال الآخرون: لم يرد رسول اللَّه ﷺ هذا وانطلقوا. فلم يبق مع أميرهم عبد اللَّه بن جبير إلا دون العشرة، وذهب الباقون إلى عسكر المشركين ينتهبون، فلما أتوهم صرفت وجوههم فانقلبوا منهزمين، ونظر خالد بن الوليد إلى الجبل وقلة أهله، فكرَّ بالخيل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل - وأسلما بعد ذلك - فحملوا على من بقي من الرماة حتى قتلوهم، وثبت أميرهم عبد اللَّه بن جبير، فقاتل حتى قتل، فجردوه ومثلوا به أقبح مثلة، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه، حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته، وخرجت حشوته، وأحاطوا بالمسلمين.

فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت الخيول تنادي فرسانها

---

(١) الدر المنثور (٢/ ٣٤٥) معزوًّا إلى ابن أبي حاتم.

بشعارهم: يا للعزى، يا لهبل، ووضعوا السيف في المسلمين وهم آمنون وكل في يديه أو حضنه شيء قد انتهبه، ولما رأى المشركون خيلهم ظاهرة رجعوا فشدوا على المسلمين، فهزموهم، فقتلوا فيهم قتلًا ذريعًا، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وخلوا من أسروا، وانتقضت صفوف المسلمين، واستدارت رحاهم، وكانت الريح أول النهار صبًا فصارت دبورًا، وكر الناس منهزمين يحطم بعضهم بعضًا، فصاروا أثلاثًا: ثلثًا جريحًا، وثلثًا منهزمًا، وثلثًا مقتولًا. وصرخ الشيطان لعنه اللَّه: أي عباد اللَّه إخوانكم، فرجعت أولاهم، فاجتدلت هي وأخراهم وهم يظنون أنهم من العدو، وكان غرض إبليس من ذلك أن يقتل المسلمون بعضهم بعضًا، وكان أول النهار للمسلمين على الكفار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين، وصرخ الشيطان عند جبل عينين، وقد تصور في صورة جعال بن سراقة ﷺ « إن محمدًا قد قتل » ثلاث صرخات، ولم يشك في أنه الحق، وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك: إن كان رسول اللَّه قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم؟ وعلى ما كان نبيكم حتى تلقوا اللَّه تعالى شهداء؟! وقالت جماعة: ليت لنا رسولًا إلى عبد اللَّه بن أبي ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، واختلط المسلمون، فصاروا يقتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضًا من العجلة والدهش وما يدري)[1].

لقد كان تسلسل الحوادث يقتضي أن تكون الآيات ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... ﴾

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٨٩ - ٢٩١).

بعد هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾.

لكن المنهج القرآني للتربية يقتضي غير ذلك، فالآيات تتنزل على المسلمين بعد أحد، وقد انتهت المعركة، وسقط من سقط شهيدًا، وأثخن بالجراح من أثخن، والنفوس تعتمل بالألم، وتفعم بالتساؤلات، وجمهور أهل أحد وغيرهم يتساءلون عن هذا الواقع، فتأتي الآيات تترى، والنفوس في هذا الجو العالي من التوتر، تحتاج إلى تثبيت ومواساة.

فجاء البيان القرآني الشافي، ليؤكد أن ما تم ليس فلتة عابرة، ولا صدفة هائمة، إنما هي سنن اللّٰه ثابتة خالدة ربانية، مع جنوده وأعدائه لا تتخلف.

سنن القتال في الأمم والتطبيق العملي:

وأول هذه السنن: أن العزة للّٰه ولرسوله وللمؤمنين، رغم هول المحنة، وفداحة المصيبة.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وثاني هذه السنن: أن الأمر بين الأنبياء وأعدائهم دول، وليس نصرًا دائما لا يتخلف كما تراءى للقوم بعد بدر.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وثالث هذه السنن: أن القرح الذي يصيب المؤمنين هو لتمحيص الصف المؤمن، ولاصطفاء الشهداء منه.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ورابع هذه السنن: هدف المحنة في الصف المؤمن هو التمحيص فقط، بينما هدف القرح في الصف الكافر هو المحق والإبادة.

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وخامس هـذه السنن: أن المعاناة العملية للابتلاء أمـر ثابت، يخـتلف عن التحليق الشاعري، والاندفاع العاطفي، ولن تتضح هذه السنة إلا من خلال القرح والمحنة.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وسادس هذه السنن: أن ارتباط المؤمن بدينه وعقيدته هو الأصل. أما ارتباطه بجماعته وقيادته هو تبع لذلك الأصل، فلا عذر للمؤمن في نكوصه وارتداده إن فقد قيادته.

وسابع هذه السنن: أن الارتداد على العقب فرارًا وكفرًا، لن ينال من دين اللّٰه شيئًا، ولن يضر هذا الأمر إلا صاحبه.

وثامن هذه السنن: أن أصحاب الأنبياء على مدار التاريخ - كانوا يصابون بهذا القرح والابتلاء - فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر اللّٰه، وهذه الأكثرية الصابرة هي التي يؤتيها اللّٰه تعالى نصره، يؤتيها ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

وتنتقل الآيات بعد عرض هذه السنن الربانية في الأمم السابقة لتعرض هذه العصبة المؤمنة عليها، ويبدأ العرض المباشر لتطبيق الواقع القائم في أُحد على السنن الربانية الثابتة، علمًا بأن هذه السنن قد تَوَضَّحَ جزء كبير منها من الواقع العملي الحي للمسلمين ومن المحنة التي عانوها.

لقد اختل شرط كبير من شروط تحقيق النصر، وهو مدار الحديث في الآية السابقة، وتم اختلال هذا الشرط أثناء المعركة، وقبل أن يختل تحقق موعود اللّٰه وتم النصر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وكما مر معنا من واقع المعركة:

(لقد رأيتني أنظر إلى خدم[١] هند وصويحباتها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير).

(قد هزم اللّه العدو، وهؤلاء إخوانكم قد انتصروا).

لكن أعجب ما في هذه السُنَّة، في الجيل الرائد، أنه لم يمر لحظات على المخالفة حتى فقد النصر، ففي السنن لدى الأمم، يمهل اللّه تعالى الأمة قليلًا قليلًا حين تخالف، أما هنا فقد كانت المحنة مباشرة بعد المخالفة.

ولم تكن العقوبة والقرح والمحنة لأن الرماة تركوا الجبل في تصرف شخصي بحسب، فقد كان يمكن في عالم الأسباب أن يستمر النصر، ولا تنتبه خيالة المشركين إلى فقدان أربعين من الرماة مواقعهم في الجبل، وتستمر هزيمة المشركين ويسلم اللّه تعالى من البلاء، كما سلم اللّه تعالى في أكثر من موطن.

ولنقف عند هاتين المقارنتين:

يقول اللّه تعالى في بدر: ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ [الأنفال: ٤٣].

والمفروض في عالم الأسباب أن يراهم رسول اللّه ﷺ كثيرًا، فقد أراهم اللّه تعالى نبيه قليلًا - على غير واقعهم - ليقضي اللّه أمرًا كان مفعولًا.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ [الأنفال: ٤٤].

فليست القضية معجزة خاصة بالنبي ﷺ، بل هي معجزة له في جيشه كله، وكرامة لأصحابه وجيشه كله، أن تنقلب الحقيقة كلها فيراهم المسلمون قليلًا وأن تظهر الحقيقة كما هي للمشركين ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وقد وقعت في أُحد كرامات ومعجزات لا تحصى:

لماذا سلم اللّه في بدر، ولم يكن الفشل والتنازع؟

ولماذا لم يسلم اللّه تعالى في أحد وكان الفشل والتنازع؟

---

(١) الخدم: الخلاخل.

والفشل والتنازع عمومًا سنة من سنن الهزيمة.

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

والجواب واضح؛ فكثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين في بدر لم يكونا ناشئين عن معصية، فما تخلف أحد عن بدر معصية للّه ورسوله، بينما انسحب ثلث الجيش في أُحد معصية للّه ورسوله، وما تخاذل أهل بدر رغم رؤيتهم قوة عدوهم، وما وهنوا وما استكانوا، وقاتلوا مع رسولهم.

بينما كانت مغادرة الجبل في أُحد معصية ظاهرة للّه ورسوله، إذ قال لهم رسول اللّه ﷺ: « **لا تبرحوا مكانكم، ولو رأيتم الطير تخطفنا فلا تعينونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، احموا ظهورنا** ».

ولا عذر بالنسيان، فقد ذكرهم أميرهم بأمر رسول اللّه ﷺ ألا يغادروا مواقعهم.

وحتى لا يقع في حس المسلم أن فقدان النصر في أحد كان مداره السبب المباشر من أسباب الأرض، وهو مغادرة الجبل، والتي كانت في القدرة الربانية يمكن أن تسد ثغرتها، لم يذر القرآن الكريم الحادثة ذاتها، فليست هي الهدف، إنما ذكر الدافع لها مباشرة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ومع أن الفشل والتنازع والمعصية لم تقع في الجيش كله، إنما وقع في مجموعة صغيرة منه، والذين يريدون الدنيا - كما برزوا في الغزوة - لم يكونوا كثرة بالنسبة للجيش، وإن كانوا كثرة بالنسبة للرماة؛ إذ بلغوا أربعة أخماسهم.

فالخلل في البناء التربوي النفسي، والمعصية، وحب الدنيا، والتنازع جعل العقوبة الربانية جاهزة، ومع ذلك ففي هذه العقوبة لطف وعفو وحكمة.

﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقد حال بين الرماة العصاة وبين الغنائم، وانهزموا عندما مضوا إلى المعسكر ينتهبون، حتى تبرز معصيتهم واضحة، فلا يضيعوا في خضم الذين يجمعون الغنائم دون معصية، برزت قضيتهم جلية للعيان، ولعلها – والله أعلم – لم تبرز كما برزت وجلاها القرآن الكريم في الآية.

ولم تكن القضية على الأقل واضحة في البداية – حين وقعت المحنة – فقد تتالت المحن يعقب بعضها بعضًا، والغم يتلو الغم، بحيث لم تنجلِ الصورة تمامًا إلا بالعرض القرآني بعد ذلك.

﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقد كان يمكن أن تكون نتيجة هذه المعصية استئصال المؤمنين وانتهاءهم وإبادتهم، وكان هذا في متناول المشركين، بل رأوا أنهم فعلوا ذلك حين وقف أبو سفيان بعد المعركة، يسأل: أفيكم ابن أبي كبشة؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم ابن الخطاب؟

وهم يرون أنهم قضوا على هذه القيادات، وانتهى أمر المسلمين بذلك، وهنا تتجلى الحكمة أوضح، في أن سبقت الآية ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [آل عمران:١٥١]. الآية المذكورة.

فعندما توجه المشركون للاستئصال، دفع عنهم ذلك الأعرابي الذي لقوه فحذرهم من المسلمين فعادوا إلى مكة والرعب يملأ كيانهم. أليس هذا من العفو والفضل على المؤمنين؟ هناك فرق كبير بين القرح والمحنة، وبين المحق والإبادة: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١].

ولعل آية إلقاء الرعب في قلوب الكافرين هي الدليل الأكبر الأوضح على عفو الله ولطفه بالمؤمنين، لكنه عفو مرتبط بالابتلاء ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وتنتقل الآيات إلى حيث تم التوافق النفسي والتربوي مع التوافق الحركي للأحداث. ويتجلى ذلك في الآية التالية:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

إنه القرآن الكريم يتابع عرض الواقع الذي أدى للهزيمة، ونجد أنه قد أفرد للمعصية الثانية آية مبينة، ما كنا لندرك أبعادها لولا القرآن الكريم:

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾.

فإذا كان **الفريق الأول** قد عصى وأراد الدنيا، فإن **الفريق الثاني** لم يستجب لرسول اللّه ﷺ، وهو يدعوه للثبات، وليست هذه المعصية بأقل من تلك.

ونبحث في جل مصادر السيرة فلا نجد هذه الصورة أبدًا ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ وإنما نجدها لدى المفسرين حين يعرضونها بالشرح والتعليق.

وهذه المعصية من الأهمية بحيث يجليها القرآن الكريم، ويوضح عقوبة الغم المضاعف بسببها، أي لا يمكن أن يقف المرء أمامها عرضًا، ويمر عليها عابرًا، فهي جديرة بالوقوف والتأني جدارة المعصية الأولى، لأخذ العبرة منها.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾.

(وقراءة العامة تصعدون - بضم التاء وكسر العين - وقرأ أبو رجاء العطاردي وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن وقتادة بفتح التاء والعين، يعني: تصعدون الجبل، وقال أبو حاتم: أصعدت: إذا مضيت حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت في جبل أو غيره، فالإصعاد: السير في مستوٍ من الأرض، وبطون الأودية والشعاب، والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج)[(١)].

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨٨).

(أخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ... ﴾ قال: صعدوا في أحد فرارًا وهو يدعوهم في أخراهم: « **إلي عباد اللَّه ارجعوا، إلي عباد اللَّه ارجعوا** »)[1].

(أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن قوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ الآية. قال: فروا منهزمين في شعب شديد لا يلوون على أحدِ، والرسول يدعوهم في أخراهم « **إلي عباد اللَّه إلي عباد اللَّه** » ولا يلوي عليه أحد)[2].

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ ﴾ الآية. قال: ذاكم يوم أحد صعدوا في الوادي فرارًا ونبي اللَّه ﷺ يدعوهم في أخراهم « **إلي عباد اللَّه إلي عباد اللَّه** »)[3].

وحسب تسلسل الأحداث لا بد أن تكون هذه الدعوة مباشرة، بعد كرِّ خيل المشركين على المسلمين، وكما تصف أحداث السيرة أن المسلمين قد أصبحوا بين فكي كماشة، حيث عاد المشركون من أمامهم يقاتلونهم، والخيل والفرسان يطعنون بهم من خلفهم، وكان رسول اللَّه ﷺ في أخراهم لأنهم كانوا متقدمين ينتهبون الغنائم ويلحقون بالفارين من المشركين، وأمام هول الصدمة ووقع المفاجأة حيث وجدوا أنفسهم يقتلون من أمامهم ومن خلفهم، وأحيانًا يجتلدون مع بعضهم، فروا مذعورين، وفي بداية هذا الفرار - ولا يزال الجيش الإسلامي على وضعه - كانت دعوة رسول اللَّه ﷺ لهم كي يثبتوا، ويدعوهم إلى التجمع حوله، ويلح في ذلك، وهم لا يلوون على أحد.

لأن المرحلة التالية، وحين أفرد رسول اللَّه ﷺ مع اثني عشر من أصحابه، ثم غدا وحده، وفصل بينه وبين جيشه، لم تعد الخطة النبوية أن يعلن عن وجود النبي ﷺ؛ لأنه الهدف الرئيسي في المعركة، فلو نادى المسلمين، لانقض المشركون إلى موقع النداء. ووجدنا سمة هذه المرحلة كما وصفها

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤/ ١٣٣).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٩٠)
(٣) الدر المنثور (٣/ ٣٥٠).

كعب بن مالك ﷺ، حين رأى رسول اللَّه ﷺ، فصاح: هذا رسول اللَّه! فأشار له رسول اللَّه ﷺ أن اصمت. وللمبالغة في السرية، أخذ لأمة كعب وأعطاه لأمته، ليفوت الهدف على العدو في مقتله، ونال كعبًا ﷺ بضع عشرة ضربة في رأسه، على أساس أنه رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه.

فقد كانت الدعوة ابتداءً - وحين كانت أم عمارة تذود عن رسول اللَّه ﷺ - أما بعد تفرق الجيش، وتبعثره في الشعاب والأودية، فقد انتهت الدعوة.

ولا بد أن نشير إلى ثبات الرسول ﷺ وقد فرَّ عنه أصحابه: روى البيهقي عن المقداد بن عمرو قال:

(... فأوجعوا واللَّه قتلًا ذريعًا. ونالوا من رسول اللَّه ﷺ ما نالوا، ألا والذي بعثه بالحق إن زال رسول اللَّه ﷺ شبرًا واحدًا، وإنه لفي وجه العدو يفيء إليه طائفة من أصحابه مرة، وتفترق مرة عنه، فربما رأيته قائمًا يرمي عن قوسه، ويرمي بالحجر حتى تحاجزوا، وثبت رسول اللَّه ﷺ في عصابة صبروا معه)[1].

(وقال محمد بن عمر: ثبت رسول اللَّه ﷺ مكانه ما يزول قدمًا واحدًا، بل وقف في وجه العدو وما يزال يرمي عن قوسه حتى تقطع وتره، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبرًا في سية القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له، فقال: يا رسول اللَّه: لا يبلغ الوتر، فقال: « مُدَّهُ فيبلغ »، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ وطويت منه ليتين أو ثلاثًا على سية القوس، ثم أخذ رسول اللَّه ﷺ قوسه، فما زال يرمي به، وأبو طلحة يستره مترسًا عنه، حتى تحطمت القوس، وصارت شظايا، وفنى نبله، فأخذ القوس قتادة بن النعمان، فلم تزل عنده. ورمى رسول اللَّه ﷺ بالحجارة، وكان أقرب الناس إلى العدو..)[2].

(وروى الطبراني عن ابن عباس: أن ابن مسعود ثبت يومئذ مع رسول اللَّه ﷺ،

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٦٤) وانظر سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٩١).

(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٤٢).

وجعل رسول اللَّه لما انكشف الناس عنه إلى الجبل لا يلوون عليه يدعوهم في أخراهم يقول: « إلي يا فلان أنا رسول اللَّه » فما يعرج عليه أحد، هذا والنبل يأتيه من كل ناحية، واللَّه تعالى يصرف ذلك عنه)[1].

(وروى عبد الرزاق بسند مرسل قوي عن الزهري قال: ضرب وجه رسول اللَّه ﷺ يوم أحد سبعين ضربة بالسيف، وقاه اللَّه شرها كلها.

قال الحافظ: ويحتمل أنه أراد بالسبعين حقيقتها، أو المبالغة في الكثرة. انتهى).

فدعوة رسول اللَّه ﷺ لهم أثناء فرارهم تشي بثباته ﷺ دون أن يتزحزح شبرًا واحدًا عن موقعه، إلا عندما رسم الخطة لإعادة تجميع جيشه من جديد، ومضى نحو الجبل ليواجه بكتائب العدو تريد قتله واستئصاله. لكن ثباته وشجاعته حطم هذا الكيد، وأوصله إلى جيشه المبعثر.

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٩٢).

غزوة الأحزاب

نصر من اللَّـه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ [الأحزاب: ٩]:

١ - (عن عبد اللَّه بن عمر قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال: ائتنا بطعام ولحاف. قال: فاستأذنت رسول اللَّه ﷺ فأذن لي وقال: « من لقيت من أصحابي فمرهم أن يرجعوا » قال: فذهبت الريح تسفي كل شيء فجعلت لا ألقى أحدًا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ. قال: فما يلوي أحد منهم عنقه، وكان معي ترس فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأنفذها إلى الأرض)[1].

٢ - (وعن مجاهد قوله: ﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ... ﴾ قال: عيينة بن بدر وأبو سفيان وقريظة، وقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ [الأحزاب: ٩] قال: ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم على أفواهها، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم، وقوله: ﴿ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩] قال: يعني الملائكة، ولم تقاتل يومئذ)[2].

٣ - (وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وابن مردويه، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: لما كانت ليلة الأحزاب جاءت الشمال (ريح الشمال) إلى الجنوب، قال: انطلقي فانصري اللَّه ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرة لا تسري بالليل،

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري (١٠/ ٨٠).

(٢) المصدر نفسه.

فغضب اللَّه عليها وجعلها عقيمًا، فأرسل اللَّه عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم، وقطعت أطنابهم فقال رسول اللَّه ﷺ: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » فذلك قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩][1].

٤ - قال ابن إسحاق: (.. فقال: « يا حذيفة، قم فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا » قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود اللَّه تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي، فقلت: من أنت، قال: فلان بن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم واللَّه ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف أخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل؛ ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فوثب به على ثلاث، فواللَّه ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول اللَّه ﷺ إلي « أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني »، ثم شئت، لقتلته بسهم، فرجعت إلى رسول اللَّه ﷺ وهو قائم يصلي في مرط[2] لبعض نسائه مراجل، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم)[3].

٥ - (وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: نزلت هذه الآية يوم الأحزاب، وقد حصر رسول اللَّه ﷺ شهرًا، فخندق رسول اللَّه ﷺ، وأقبل أبو سفيان بقريش ومن معه من الناس حتى نزلوا بعفوة رسول اللَّه ﷺ، وكاتب اليهود أبا سفيان فظاهروه، فبعث اللَّه عليهم الرعب والريح، فذكر أنهم كانوا كلما بنوا بناءً قطع

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٥٧٣) وقال فيه الهيثمي (٦/ ١٣٩): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مرط: كساء من وشي اليمن.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٢).

اللّٰه أطنابه، وكلما ربطوا دابة قطع اللّٰه رباطها، وكلما أوقدوا نارًا أطفأها اللّٰه، حتى لقد ذكر لنا أن سيد كل حي يقول: يا بني فلا ن، هلم إلي، حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاة النجاة، أتيتم لما بعث اللّٰه عليهم الرعب)[1].

لقد رأينا آثار جند اللّٰه تعالى، وهي الريح، وكم فعلت في القوم، ورأيناها إعصارًا تدمر كل شيء، تقلب القدور، وتهدم البيوت، وتقطع الأطناب، وتطفئ النار، وإن أهلكت الدبور عادًا، لكنها لم تنشط لنصر اللّٰه ورسوله، وما أروع تلك المناجاة بينها وبين أختها الصبا. إننا لنحس ونحن نقرأ النص أن الوجود كله يشارك في المعركة، وأن لهذا الوجود مشاعره، لم ينقل لنا إلا مشاعر الصبا وغيرتها أن تنصراللّٰه ورسوله، وكيف تحث أختها الدبور لتشارك فتعتذر عن النصرة، وتتعلل بقولها: إن الحرة لا تسير بليل، فتنال عقوبة التخاذل عن نصرة اللّٰه ورسوله، ويجعلها عقيمًا، لا تحمل مطرًا ولا غيثًا، وتندفع الصبا لتشارك في المعركة، فتصبح لنا نحن المسلمين ويثني عليها الحبيب المصطفى صلوات اللّٰه عليه، فيقول: « **نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور** »[2].

وكان الجند الثاني هو الرعب، كما رأينا في النص السابق رقم « ٥ »: (فبعث اللّٰه عليهم الرعب والريح..).

وحدثنا عن فعل الريح، وأما فعل الرعب فقال عنه: (حتى لقد ذكر لنا أن سيد كل حي يقول: يا بني فلان. هلم إلي، حتى إذا اجتمعوا عنده قال: النجاة النجاة، أتيتم لما بعث اللّٰه عليهم الرعب).

وهو جند ثان قال عنه عليه الصلاة والسلام: « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** »[3].

وتلك شهادة ثانية عن جيش الرعب الذي يرسله اللّٰه تعالى على أعدائه: عن

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٥٧٦). (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التيمم، حديث (٣٣٥) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث (٥٢١).

معاوية بن حيدة القشيري قال: أتيت فلما دفعت إليه قال:

« أما إني سألت اللّه أن يغنيني بالسنة تحفيكم[١]، وبالرعب يجعله في قلوبكم » فقال بيده جميعًا - أي معاوية -: أما إني قد حلفت هكذا وهكذا أن لا أؤمن بك. فما زالت السنة تحفيني، وما زال الرعب في قلبي حتى قمت بين يديك[٢].

وكان الجند الثالث سيدًا من سادات غطفان، نعيم بن مسعود الأشجعي:

(حدثنا عبد اللّه بن عاصم الأشجعي عن أبيه. قال: قال نعيم بن مسعود: كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال، وكنا قومًا عربًا، لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاة وبعير، فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم. ثم يحملونني تمرًا على ركابي ما كانت، فأرجع إلى أهلي. فلما سارت الأحزاب إلى رسول اللّه ﷺ سرت مع قومي وأنا على ديني، وقد كان رسول اللّه ﷺ عارفًا، فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الكراع والخف، وقذف اللّه ﷻ في قلبي الإسلام، وكتمت قومي إسلامي، فأخرج حتى آتي رسول اللّه ﷺ بين المغرب والعشاء وأجده يصلي، فلما رآني جلس ثم قال: **« ما جاء بك يا نعيم؟ »** قلت: إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به هو الحق، فمرني بما شئت يا رسول اللّه، فواللّه ما تأمرني بأمر إلا مضيت له، إن قومي لا يعلمون بإسلامي ولا غيرهم. قال: **« ما استطعت أن تخذل الناس فخذل »** قال: قلت: أفعل، ولكن يا رسول اللّه أقول؟ فأذن لي. قال: **« قل ما بدا لك فأنت في حل »**.

قال: فذهبت حتى جئت بني قريظة فلما رأوني، رحبوا وأكرموا، وحيوا، وعرضوا علي الطعام والشراب فقلت: إني لم آتِ لشيء من هذا إنما جئتكم نصبًا بأمركم، وتخوفًا عليكم لأشير برأي، وقد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. فقالوا: قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما تحب من الصدق

---

(١) تحفيكم: الجدب ينزل بكم فيهلككم.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ٦٦) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

والبر. قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: إن أمر هذا الرجل بلاء، صنع ما رأيتم في بني قينقاع وبني النضير، وأجلاهم عن بلدهم بعد قبض الأموال، وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا، فاجتمعنا معه لنصركم، وأرى الأمر قد تطاول كما ترون، وإنكم واللَّه ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة؛ أما قريش وغطفان فهم قوم قد جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كانت الحرب وأصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم، وأنتم لا تقدرون على ذلك، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وقد غلظ عليهم جانب محمد، أجلبوا عليه أمس إلى الليل، فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه مجرحين، وهم لا غناء بهم عنكم لما تعرفون عندكم، فلا تقاتلوا مع غطفان وقريش حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم تستوثقون به منهم. قالوا: أشرت بالرأي علينا والنصح، ودعوا له وشكروا وقالوا: نحن فاعلون، قال: لكن اكتموا عني. قالوا: نعم، نفعل.

ثم خرج إلى أبي سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال: يا أبا سفيان، قد جئتك بنصيحة فاكتم عني. قال: أفعل. قال: تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وأرادوا إصلاحه ومراجعته، أرسلوا إليه وأنا عندهم: إنا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلًا نسلمهم إليك تضرب أعناقهم، وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم - يعنون بني النضير - ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك، فإن بعثوا إليك يسألونكم رهنا فلا تدفعوا إليهم أحدًا واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفًا. قالوا: لا نذكره.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إني رجل منكم فاكتموا عني، واعلموا أن قريظة قد بعثوا إلى محمد - وقال لهم مثل ما قال لقريش - فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحدًا من رجالكم، وكان رجلًا منهم فصدقوه.

وأرسلت اليهود غزال بن سموأل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش:

إن ثواءكم قد طال، ولم تصنعوا شيئًا، وليس الذي تصنعون برأي، إنكم لو وعدتمونا يومًا تزحفون فيه على محمد، فتأتون من وجه وتأتي غطفان من وجه ونخرج نحن من وجه آخر، لم يفلت من بعضنا، ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهان من أشرافكم يكونون عندنا، فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا محمدًا بالعداوة، فانصرف الرسول إلى بني قريظة، ولم يرجعوا إليهم شيئًا، وقال أبو سفيان: هذا ما قاله نعيم)[1].

(فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله لقد حدثكم نعيم بن مسعود بحق فأرسلوا إلى بني قريظة. إنا والله ما ندفع إليكم رجلًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، فأرسلوا الرسل إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا؛ فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم)[2].

ونعود إلى نص الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

فنجد الهدف الرئيسي منها هو ربط هذه القلوب المؤمنة بالله ﷻ، الذي أرسل الريح والجنود، فهزم الأحزاب وحده. وبذلك تنقطع القلوب من الاعتماد على الأسباب وتتصل برب الأرباب، وحده لا شريك له، وهو المقصود من هذا العرض القرآني – والله أعلم –.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠]:

وتأتي الآية الثانية لتضع على الساحة الذروة التي وصلت إليها المحنة، حية

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٨٠) وما بعدها.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي – المغازي (ص٢٩٤).

شاخصة كأنها تعاد في عرض حي جديد، والجديد فيه ليس مظاهره فقط، إنما عرضه من داخل أعماق القلوب، وكأن القلوب نفسها تشخص، والروع والفزع يجسد، والزلزلة القلبية والنفسية تعرض حسب مراحل غليانها:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

ونستعرض من الأحداث ما يسعف في تجلية هذه الصورة:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾.

أخرج ابن إسحاق، وابن مردويه عن ابن عباس قال: « أنزل اللَّه في شأن الخندق وذكر نعمه عليهم، وكفايته إياهم عدوهم بعد سوء الظن، ومقالة من تكلم من أهل النفاق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ... ﴾ وكانت الجنود التي أتت المسلمين: أسد وغطفان وسليمًا، وكانت الجنود التي بعث اللَّه عليهم من الريح والملائكة فقال: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ... ﴾ فكان الذين جاؤوهم من فوقهم بني قريظة، والذين جاؤوهم من أسفل منهم قريشًا وغطفان وأسدًا... »[1].

ولنشهد كيف جاءت بنو قريظة من فوقهم، بعد أن شهدنا كيف جاءت قريش وغطفان.

قال ابن إسحاق: (وخرج عدو اللَّه حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب ابن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول اللَّه ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب حيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب! افتح لي، قال: ويحك يا حيي: إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدًا فلست

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٥٧٤).

بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقًا. قال: ويحك افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: واللَّه إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك[1] أن آكل معك منها، فأحفظ[2] الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام[3]، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أُحُد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه. قال: فقال له كعب: جئتني واللَّه بذُلِّ الدهر وبجَهَام[4] قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك ياحيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقًا.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[5] حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من اللَّه وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول اللَّه ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول اللَّه ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث رسول اللَّه ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دليم، أحدَ بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد اللَّه بن رواحة، أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف؛ فقال: « **انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه ولا تفتوا في أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس** ».

قال: فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا

---

(١) جشيش: هو البر يطحن غليظًا. (٢) أحفظه: أغضبه.
(٣) طام: مرتفع. ويريد كثرة الرجال. (٤) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.
(٥) في الذروة والغارب: هذا مثل وأصله في البعير يستصعب عليك فتأخذ الفراء من ذروته وغارب سنانه وتفتل هناك فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك، فضرب هذا الكلام مثلًا في المراوضة والمخاتلة.

من رسول اللَّه ﷺ، وقالوا: من رسول اللَّه؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدة. فقال سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول اللَّه ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة، أي عذر كعذر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه: فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اللَّه أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين** »)[١].

(وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول اللَّه هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: « **نعم، اللَّهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا** » قال: فضرب اللَّه وجوه أعدائه بالريح فهزمهم اللَّه بالريح)[٢].

(قالوا: ونجم النفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء وكانوا كما قال اللَّه تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾[الأحزاب: ١٠] ورسول اللَّه ﷺ والمسلمون في وجه العدو، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقبون خندقهم ويحرسونه...)[٣].

تقول أم سلمة - رضي اللَّه عنها -: (قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف - المريسيع، وخيبر، وكنا في الحديبية، وفي الفتح، وفي حنين - لم يكن من ذلك شيء أتعب لرسول اللَّه ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، والمدينة تحرس حتى الصباح، يسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خواف، حتى ردهم اللَّه بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى اللَّه المؤمنين القتال)[٤].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦١٣) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٧٣).

(٣) المغازي للواقدي (٢/ ٤٥٩).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٧).

ويقول الصديق ﷺ: (لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين حمدت اللّه ﷻ، فكان مما رد اللّه به قريظة عما أرادوا أن المدينة تحرس)[1].

ويقول حذيفة ﷺ: (لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر. فقال رسول اللّه ﷺ: « **ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله اللّه معي يوم القيامة؟** » فسكتنا، فلم يجبه أحد. ثم قال: « **ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله اللّه معي يوم القيامة؟** » فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: « **ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله اللّه معي يوم القيامة؟** » فسكتنا فلم يجبه منا أحد. فقال: « **قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم** » فلم أجد بدًّا حين دعاني باسمي أن أقوم. قال: « **فاذهب فائتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي** » فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول اللّه ﷺ: « **ولا تذعرهم علي** » ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته بخبر القوم وفرغت، قررت، فألبسني رسول اللّه ﷺ من فضل عباءة كان يصلي بها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: « **قم يا نومان** »[2].

ومن هذه النصوص المتعددة يبدو لنا مدى الخوف الذي وصل بالمسلمين وبالمؤمنين، والحديث عنهم، وقد قرره القرآن في هذه الغزوة دون الغزوات الأخرى، في أجلى صورة حسية ومعنوية: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾.

والمبالغات البشرية أحيانًا تنفي الخوف في الصف الإسلامي، وتعتبره يتناقض مع الإيمان، وهذا المد الشعوري الطاغي كثيرًا ما يجعل الإحباط

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب، حديث (١٧٨٨).

يسيطر على النفس البشرية، ونتيجة ذلك الحكم المغالي في الفهم، والمجافي للواقع البشري، ولقد شهدنا نموذجًا من هذا الشعور في الجيل الثاني الذي تلقى على جيل الصحابة، فالذي كان يسأل حذيفة ﷺ يقول له: (يا أبا عبد اللّٰه أرأيتم رسول اللّٰه ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال فكيف كنتم تصنعون؟قال: واللّٰه لقد كنا نجهد. فقال: واللّٰه لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا)[1].

فتخيل الأمور شيء، ومعاينة الواقع شيء آخر، والحديث عن الإسلام وبطولاته شيء، والتطبيق الحي العملي شيء آخر.

وهذه القضية من أكبر القضايا التي عانت منها الجماعات المسلمة التي تسعى لإعادة التمكين في الأرض، إنها حين تتحدث عن البيئة المحيطة، والأحزاب المعادية، والحكومات القائمة، تتحدث من علٍ وبنقاء وطهر، وهي تقوم لوثات تلك الأحزاب الجاهلية، وتصدر الأحكام المبرمة على الناس والأشخاص والأحداث، وتلصق كل الانحرافات بالخصوم، وتتصور أنها بمجرد أن يتاح لها الحكم فسوف تعيد سيرة الشيخين أبي بكر وعمر، وسيكون شبابها ورجالها في طهر الملائكة، خالين من الهوى والأنانية وحب الذات والاختلاف، وستتحرر الأرض كلها بهم، فليس فيهم إلا الشجاعة والنجدة والإيثار والتضحية والنبل والارتفاع فوق الذات، والعدل للخصم والصديق إلى آخر تلك القيم التي يمثلها الإسلام.

وحين يعالج الأمر على ضوء الواقع، نلاحظ أن هذه الحركات الإسلامية قد مر على بعضها ما ينوف على نصف قرن، ولم تتمكن في الأرض، ولم تحقق موعود اللّٰه فيها، وحين يسأل عن ذلك يكون الجواب جاهزًا وحاضرًا في البديهة: إنه العدو، الاستعمار، إسرائيل، القوى الكبرى في الأرض، وهم الذين يحولون دون تمكين الجماعة المسلمة وتحكيم شريعة اللّٰه في الأرض.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣١).

هذا حق، وسيبقى أعداء اللّه في وجه هذه الدعوة إلى قيام الساعة.

ولكنه جزء من الحقيقة، وليس الحقيقة كلها، والجانب الآخر هو سلامة البناء الداخلي للجماعة، وصحة الطريق الذي تسير عليه، وارتفاع الجماعة إلى مستوى القوم الذين ذكرهم اللّه تعالى أنهم البديل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأحوج ما تحتاج إليه الحركة الإسلامية اليوم هو أن تنكفئ على ذاتها، وتقوم مسيرتها وأشخاصها ومستوى تربيتها وتفقه الخلل فيه؛ لترتفع إلى المستوى المطلوب.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

والأرجح أن هذه الظنون خصت المنافقين في الصف الإسلامي، والذين سيأتي الحديث التفصيلي عنهم فيما بعد، كما هي الرواية عن مجاهد:

(أخرج ابن جرير، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ هم المنافقون يظنون باللّه ظنونًا مختلفة)[١].

قال ابن جرير: (ظن بعض من كان مع رسول اللّه ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، وأن اللّه سيفعل ذلك، وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ الظنون الكاذبة، وذلك كظن من ظن منهم أن رسول اللّه ﷺ يغلب، وأن ما وعده اللّه من النصر أن لا يكون، ونحو ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها من ظن ممن كان مع رسول اللّه ﷺ في عسكره)[٢].

أما الرواية عن الحسن كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ قال: ظنون مختلفة؛ ظن المنافقون أن محمدًا وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم اللّه ورسوله حق أنه سيظهر على الدين كله)[٣].

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٥٧٧).
(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٨٤).
(٣) الدر المنثور (٦/ ٥٧٧).

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

جهاد العدو في غزوة الخندق:

- (عن جابر بن عبد اللّه - رضي اللّه عنهما - أن عمر بن الخطاب ﷺ جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول اللّه، ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: « **واللّه ما صليتها** ». فنزل النبي ﷺ إلى بطحان، وأنا معه، فتوضأ ثم صلى - يعني العصر - بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب)[١].

(عن أبي عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود قال: قال عبد اللّه بن مسعود: إن المشركين شغلوا رسول اللّه ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق حتى ذهب من الليل ما شاء اللّه، ثم أمر بلالًا فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء)[٢].

(قال: وفي الباب عن أبي سعيد، وجابر، وعن النسائي عنه قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ فحبسنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فاشتد ذلك علي فقلت في نفسي: نحن مع رسول اللّه ﷺ وفي سبيل اللّه، فأمر رسول اللّه ﷺ بلالًا فأقام فصلى بنا الظهر، ثم أقام فصلى بنا العصر، ثم أقام فصلى بنا المغرب، ثم أقام فصلى بنا العشاء، ثم طاف علينا فقال: « **ما على الأرض عصابة يذكرون اللّه غيركم** »)[٣].

(... فحدثني ابن أبي سبرة، عن الحارث بن فضيل، قال: همت بنو قريظة أن يغيروا على بيضة المدينة ليلًا، فأرسلوا حيي بن أخطب إلى قريش أن يأتيهم منهم ألف رجل، ومن غطفان ألف، فيغيروا بهم، فجاء رسول اللّه ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاء، فكان رسول اللّه ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن حريش الأشهلي في

---

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب غزوة الأحزاب حديث (٦٤١).

(٢) الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الرجل تفوته الصلاة حديث (١٧٩).

(٣) سنن النسائي، كتاب المواقيت، باب كيف يقضي الفائت الصلاة حديث (٦٢٢).

مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير، ومعهم خيل المسلمين، فإذا أصبحوا أمنوا، فكان أبو بكر الصديق ﷺ يقول:

لقد خفنا على الذراري في المدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، ولقد كنت أوفي على سلع فأنظر إلى بيوت المدينة، فإذا رأيتهم هادين حمدت اللّه ﷻ، فكان مما رد اللّه به قريظة مما أرادوا أن المدينة كانت تحرس)[١].

(وحدثني أبو بكر بن أبي سبرة، عن عبد اللّه بن أبي بكر بن حزم، قال: خرج نباش بن قيس ليلة من حصنهم يريد المدينة، ومعه عشرة من اليهود من أشدائهم وهم يقولون: عسى أن نصيب منهم غرة، فانتهى إلى بقيع الغرقد فيجدون نفرًا من المسلمين من أصحاب سلمة بن أسلم بن حريش، فناهضوهم فراموهم ساعة بالنبل، ثم انكشف القرظيون مولين، وبلغ سلمة بن أسلم وهم بناحية بني حارث، فأقبل في أصحابه حتى انتهوا إلى حصونهم، فجعلوا يطيفون بحصونهم حتى خافت اليهود، وأوقدوا النيران على أطامهم وقالوا: البيات! وهدموا قرني[٢] بئر لهم وهوروها[٣] عليهم، فلم يقدروا يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفًا شديدًا)[٤].

(وحدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر، عن عبد اللّه بن أبي بكر بن حزم، قالت أم سلمة: كنت مع رسول اللّه ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله، وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قر شديد، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء اللّه أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: « يا عباد بن بشر ». فقال عباد: لبيك. قال: « أمعك أحد؟ » قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك. قال: « **فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم يطمعون أن يصيبوا منكم غرة، اللّهم ادفع شرهم، وانصرنا**

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٠).

(٢) قرني: القرنان منارتان تبنيان على رأس البئر ويوضع فوقهما خشبه تعلق البكرة فيها.

(٣) هوروها: هدموها.

(٤) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٢).

عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك ».

فخرج عباد بن بشر في أصحابه، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق، وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أذلقناهم[١] بالرمي فانكشفوا راجعين إلى منزلهم، ورجعت إلى رسول اللّه ﷺ فأجده يصلي فأخبرته.

قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه، فما تحرك حتى سمعت بلالًا يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين، فكانت تقول: يرحم اللّه عباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول اللّه ﷺ لقبة رسول اللّه يحرسها أبدًا)[٢].

(فحدثني أيوب بن النعمان، عن أبيه، قال: كان أسيد بن الحضير يحرس الخندق في أصحابه، فانتهوا إلى مكان من الخندق تطفره الخيل، فإذا طليعة من المشركين مائة فارس أو نحوها عليهم عمرو بن العاص يريدون أن يغيروا إلى المسلمين، فقام أسيد بن الحضير عليها بأصحابه، فرموهم بالحجارة والنبل حتى أجهضوا وولوا، وكان في المسلمين تلك الليلة سلمان الفارسي، فقال لأسيد: إن هذا مكان من الخندق متقارب ونحن نخاف تطفره خيلهم - وكان الناس عجلوا في حفره - وبادروا فباتوا يوسعونه حتى صار كهيئة الخندق وأمنوا أن تطفره خيلهم، وكان المسلمون يتناوبون الحراسة، وكانوا في قر شديد وجوع)[٣].

- (فحدثني إبراهيم بن جعفر، عن أبيه قال: قال محمد بن مسلمة: أقبل خالد بن الوليد تلك الليلة في مائة فارس، فأقبلوا من العقيق حتى وقفوا بالمداد وجاه قبة النبي ﷺ، فنذرت بالقوم، فقلت لعباد بن بشر - وكان على حرس قبة النبي ﷺ وكان قائمًا يصلي - فقلت: أثبت! فركع ثم سجد. وأقبل خالد في

---

(١) أذلقناهم: أضعفناهم.
(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٣).
(٣) المرجع السابق (٢/ ٤٦٥).

ثلاثة هو رابعهم. فأسمعهم يقولون: هذه قبة محمد، ارموا، فرموا، فناهضناهم حتى وقفنا على شفير الخندق، وهم بشفير الخندق من الجانب الآخر فترامينا، وثاب إلينا أصحابنا، وثاب إليهم أصحابهم، وكثرت الجراحة بيننا وبينهم، ثم اتبعوا الخندق على حافتيه وتبعناهم، والمسلمون على محارسهم، فكلما نمر بمحرس نهض معنا طائفة وثبت طائفة، حتى انتهينا إلى راتج، فوقفوا وقفة طويلة، وهم ينتظرون قريظة، يريدون أن يغيروا على بيضة المدينة، فما شعرنا إلا بخيل سلمة بن أسلم بن حريش يحرس، فيأتون من خلف راتج، فلاقوا خالد بن الوليد فاقتتلوا واختلطوا فما كان إلا حلب شاة حتى نظرت إلى خيل خالد مولية وتبعه سلمة بن أسلم حتى رده من حيث جاء، فأصبح خالد، وقريش وغطفان تزري عليه وتقول: ما صنعت شيئًا فيمن في الخندق ولا فيمن أصحر[1] لك. فقال خالد: أنا أعقد الليلة، وابعثوا خيلًا حتى أنظر أي شيء تصنع.

فحدثني ابن أبي سبرة، عن عبد الواحد بن أبي عون، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: واللّه إني لفي جوف الليل في قبة النبي ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة وقائل يقول: يا خيل اللّه - وكان رسول اللّه ﷺ جعل شعار المهاجرين: يا خيل اللّه - ففزع رسول اللّه ﷺ بصوته، فخرج من القبة فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها، منهم عباد بن بشر. فقال: « ما بال الناس؟ » قال عباد: يا رسول اللّه، هذا صوت عمر بن الخطاب؛ الليلة نوبته ينادي: يا خيل اللّه، والناس يثوبون إليه وهو من ناحية مسيكة ما بين ذباب ومسجد الفتح. فقال رسول اللّه ﷺ لعباد بن بشر: « اذهب فانظر، ثم ارجع إليَّ إن شاء اللّه فأخبرني ». قالت أم سلمة: فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به. قالت: فلم يزل رسول اللّه ﷺ قائمًا حتى جاء عباد بن بشر فقال: يا رسول اللّه هذا عمرو ابن عبد في خيل المشركين، معه مسعود بن رخية في خيل غطفان، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة. قالت:فدخل رسول اللّه ﷺ فلبس درعه ومغفره،

---

(١) أصحر لك: برز لك.

وركب فرسه، وخرج معه أصحابه حتى أتى تلك الثغرة، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال: « **حرفهم[1] اللّه وقد كثرت فيهم الجراحة** ». قالت: فنام حتى سمعت غطيطه، وسمعت هائعة أخرى ففزع فوثب فصاح: « **يا عباد بن بشر** » قال: لبيك! قال: « **انظر ما هذا؟** » فذهب ثم رجع فقال: هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين، معه عيينة بن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عبيد والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل، فعاد رسول اللّه ﷺ فلبس درعه، وركب فرسه، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة، فلم يأتنا حتى كان السحر فرجع وهو يقول: « **رجعوا مفلولين، قد كثرت فيهم الجراحة** » ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس)[2].

محاولات فك الحصار:

(فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول اللّه ﷺ - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم، عن محمد بن مسلم الزهري - إلى عيينة ابن حصن، وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك، فلما أراد رسول اللّه ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول اللّه، أمرًا تحبه فتصنعه، أم شيئًا أمرك اللّه به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ فقال: « **بل شيء أصنعه لكم، واللّه ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما** » فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان، لا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلّا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ واللّه ما لنا

---

(١) حرفهم اللّـه: صرفهم اللّـه.

(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٥ - ٤٦٧).

بهذا من حاجة، واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم؛ قال رسول اللّه ﷺ: « **فأنت وذاك** ». فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا)[١].

أما في رواية الواقدي فعنده عن محمد بن عبد اللّه، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: حوصر رسول اللّه ﷺ وأصحابه بضعة عشرة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب، وقال رسول اللّه ﷺ « **اللّهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللّهم إنك إن تشأ لا تعبد** ». فبينا هم على ذلك من الحال، أرسل رسول اللّه ﷺ إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف، قال: « **أرأيت إن جعلتُ لكم ثلث ثمار المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟** » قالا: تعطينا نصف ثمر المدينة، فأبى رسول اللّه ﷺ أن يزيدهما عن الثلث، فرضيا بذلك وجاء بعشرة من قومهما حين تقارب الأمر.

فجاؤوا وقد أحضر رسول اللّه ﷺ أصحابه، وأحضر الصحيفة والدواة، وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة وهو يريد أن يكتب الصلح بينهم، وعباد بن بشر قائم على رأس رسول اللّه ﷺ مقنع في الحديد، فأقبل أسيد ابن الحضير إلى رسول اللّه ﷺ ولا يدري بما كان من الكلام، فلما جاء إلى رسول اللّه ﷺ وجاء عيينة مادًّا رجليه بين يدي رسول اللّه ﷺ وعلم ما يريدون فقال: يا عين الهجرس، اقبض رجليك! أتمد رجليك بين يدي رسول اللّه ﷺ - ومعه الرمح - واللّه لولا رسول اللّه ﷺ لأنفذت من خصيتيك بالرمح! ثم أقبل على رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه، إن كان أمرًا من اللّه فامض له، وإن كان غير ذلك فواللّه لا نعطيهم إلا السيف..

فقام عيينة وهو يقول: أما واللّه للتي تركتم خير لكم من الخطة التي أخذتم، وما لكم بالقوم من طاقة.

فقال عباد بن بشر: يا عيينة، أبالسيف تخوفنا؟ ستعلم أينا أجزع..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٣).

فقال النبي ﷺ: « ارجعوا، بيننا السيف »! رافعًا صوته.

فرجع عيينة والحارث وهما يقولان: واللَّه ما أرى أن ندرك منهم شيئًا، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم، واللَّه ما حضرت إلا كرهًا لقوم غلبوني، وما مقامنا بشيء، مع أن قريشًا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أننا خذلناها ولم ننصرها.

قال عيينة: هو واللَّه ذلك.

قال الحارث: أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصرة قريش على محمد، واللَّه لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب، مع أني أرى أمر محمد أمرًا ظاهرًا، واللَّه لقد كان أحبار يهود خيبر، وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم على صفته.

قال عيينة: إنا واللَّه ما جئنا ننصر قريشًا، ولو استنصرنا قريشًا ما نصرتنا، ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر، مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود، فهم جلبونا إلى هاهنا.

قال الحارث: قد واللَّه أبت الأوس والخزرج إلا السيف واللَّه لنقاتلن عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم، وقد أجدب الجناب، وهلك الخف والكراع.

قال عيينة: لا شيء.

فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا: ما وراءكم؟ قالوا: لم يتم الأمر؛ رأينا قومًا على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم، وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريش تنصرف ولا تكلم محمدًا! وإنما يقع حَرّ محمد ببني قريظة، وإذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا ما بأيديهم. قال الحارث: بعدًا وسحقًا! محمد أحب إلينا من يهود)[1].

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٧٧) وما بعدها.

وقفات مع ابتلاءات الخندق:

وسنقف بعض الوقفات أمام هذا الابتلاء الذي نزل بالمؤمنين وزلزلهم زلزالا شديدًا:

١ - لأول مرة يحضر سلمان الفارسي ﷺ معركة مع المسلمين، وسلمان طراز خاص وطاقات جديدة أضيفت إلى الطاقة الإسلامية، وخبرات علمية، فهو ابن دهقان فارس، وهو الذي عاش في بلاط الحضارة الفارسية، وهو الذي تنقل في أقصى المعمور يبحث عن النور، وكان أن أضاف أول خبراته في حفر الخندق من الناحية النظرية، وساهم في التنفيذ العملي، وكان له دور بارز وواضح في الحفر نفسه، حتى ليتسابق عليه الأنصار والمهاجرون يعتبرونه منهم، لما أبرز من قوة عضلية، وخبرة عملية في الحفر، فيحسم الأمر رسول اللّه ﷺ بقوله: « **سلمان من أهل البيت** ».

٢ - وقد بذلوا جهودًا فائقة ولا شك في حفر الخندق، وبرزت النفسيات واضحة جلية خلال ذلك وارتبط هذا الأمر ارتباطًا وثيقًا بالإيمان.

ولكن القائد الذي يحرص على نجاح خطته هو القائد الفذ الذي يعيش فردًا من أمته، ويتعب ويكد معها ولا يستعلي عليها، وسيد القادة في الأرض عليه الصلاة والسلام لا يرضى وأحد من أمته في النار.

إن ما نراه اليوم من القيادات بمثل هذه المناسبات هو أن تتشرف بوضع حجر الأساس لأي مشروع، ثم يبقى الجهد والكد والمشقة على الجمهرة الكادحة من الأمة، ومع ذلك ترضى الأمة هذا الواقع. إن المسلمين في الخندق هم في غنى عن جهد رسول اللّه ﷺ وتعبه، وإذا كان المقياس والميزان هو الحب، فلم تعرف البشرية حبًّا مثل حب رسول اللّه ﷺ. والمسلمون الذين يقدمون دماءهم رخيصة فدى لقائدهم ورسولهم محمد عليه الصلاة والسلام ليسوا بعاجزين أن يقدموا جهدهم وتعبهم، ويوفروا خدمة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام، بل هم على استعداد أن يفنوا عن آخرهم ولا يمس محمدًا عليه الصلاة

والسلام شوكة تؤذيه في رجله، وقد فعلوا، وما بخلوا به.

ولكن هل رضي رسول اللّه ﷺ بهذا الواقع دون أن يشارك صحبه وجيشه تعبه وجهده؟؟ أبدًا، لقد حمل بالمكتل، وغطى الغبار جلدة بطنه، وحفر بالفأس، ونقل الصخر، وكان الملجأ لصحبه عند العجز، وبهذه الروح النبوية، وبهذه التربية العملية، استطاع رسول اللّه أن يحفر الخندق في هذه المدة الوجيزة، وينتهي منه قبل وصول العدو.

وبرزت النفوس عارية كذلك في هذه التجربة وقد تجلت هذه الصورة أوضح ما يكون في سورة النور، بأجلى بيان حيث يقول ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النور: ٦٢ - ٦٤].

يقول الإمام السيوطي: (أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي، قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد، وجاء رسول اللّه ﷺ الخبر وضرب الخندق حول المدينة، وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل اللّه في أولئك المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ... ﴾ [النور: ٦٢] إلى قوله ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النور: ٦٤])[١].

لقد ارتبط الإيمان هنا بالإذن، فالذين يستأذنون هم الذين يؤمنون باللّه ورسوله وجاءت حصرًا في بداية الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢]. فعادل الإيمان باللّه ورسوله طاعة رسول اللّه واستئذانه، وهو عليه الصلاة والسلام يأذن لمن يشاء منهم.

أما الذين يخالفون، ويتسللون لواذًا، فليحذروا أن تصيبهم فتنة فينتكسوا مع المنافقين، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة لمعصيتهم للّه ورسوله.

٣ - كان لا بد لهذا الطعام حتى يتمكن المسلمون من جهاد عدوهم ويقوون عليه، فعظمة المعجزات في الإسلام أنها لم تأت لترفع المسؤولية والجهد البشري عن المسلمين، ويعيشوا بالدعاء فقط.

إن اللّه تعالى الذي أطعم الألف من أهل الخندق، كان بالإمكان أن يطعمهم بمائدة تنزل من السماء، وأن ينصرهم بالملائكة التي تقاتل عنهم من السماء وهم ينظرون، لكن لو تم هذا فكيف يستقيم أمر هذا الدين بعد ذلك.

إن اللّه تعالى شاءت إرادته أن يختبر صبر المسلمين على الجوع، وصبرهم على البرد، وصبرهم على الخوف، وصبرهم على الجهاد، ليكونوا أسوة لمن بعدهم في كل شيء، وصبرهم على الفاقة، وإيثار حبيبهم على أنفسهم بإطعامه وإكرامه، وصبرهم على المشقة والتعب والجهد في الحفر، حتى تعلم الأجيال بعد ذلك أن المسؤولية البشرية قائمة، لم يعف منها سيد خلق اللّه عليه الصلاة والسلام وصفوة الخلق معه، والدعاء وحده لا يكفي ما لم يرافقه بذل الجهد، وتحمل الابتلاء، والإعداد للمواجهة، والتخطيط لتفتيت كيان العدو،

---

(١) الدر المنثور (٦/ ٢٢٩).

فقد وزع رسول اللَّه ﷺ خيَّالته، وأعاد قسمًا منها إلى المدينة، على رأسها سلمة بن أسلم ﷺ، بعد غدر بني قريظة لا قبله، يمضون ليلهم بالتكبير حتى الصباح، حتى لا تطمع قريظة بالهجوم على المدينة، ولم يكتف سلمة ﷺ بصد الهجوم المباغت القرظي، بل مضى يطاردهم داخل حصونهم، حتى هدموا قرني بئر لهم وهوروها عليهم فلم يقدروا يطلعون من حصونهم وخافوا خوفًا شديدًا.

٤ - وكانت حراسة الخندق شغل رسول اللَّه ﷺ الشاغل، يطلب من عباد بن بشر ﷺ أن يدع خيمته ويمضي لحراسة الخندق في جميع الاتجاهات.

لم تكن المحاولات قليلة، فلم تكن تمر ليلة إلا وهجوم مباغت يأتي على الخندق من طرف من أطرافه، وبالنبل والحجارة يصد المشركون، وتتوزع المسؤوليات بين الأحزاب (قريش وغطفان وقريظة) في محاولات مستميتة لاقتحام الخندق، وتطويق المسلمين، غير أن الوعي والاستعداد فاق تصورات العدو، بمواجهة مباشرة أو غير مباشرة.

ويكفي أن نعلم أن الهجوم الشديد الأول انتهى وكادت صلاة العصر تفوت المسلمين.

٥ - أما الهجوم الشامل فقد استمر طيلة النهار وهويًا من الليل، والمسلمون يقاتلون ويواجهون ويصدون، حتى ليصلي عليه الصلاة والسلام بالمسلمين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بعد صد ذلك الهجوم الشرس، ويغادر عليه الصلاة والسلام قبته ثلاث مرات، وقد لبس سلاحه وركب فرسه عندما سمع صوت الحطمة، والاشتباك بين المسلمين وأعدائهم. والدعاء لا ينقطع. والمواجهة لا تنقطع.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

٦ - وكانت محاولة رسول اللَّه ﷺ في فك الحصار عن المسلمين، والاتصال السري بقيادات غطفان ومراوضتهم على ثلث ثمار المدينة.

لقد أشفق عليه الصلاة والسلام على جنده، الذين لم يدخروا جهدًا ولا روحًا ولا مالًا وقدموه في سبيل اللَّه، والبرد والخوف والجوع يعصف بهم، فكانت هذه الصفات، تذليلًا لفك الحصار.

والقضية تعني أول ما تعني الأنصار فهم جمهرة المقاتلين، وذراريهم ونساؤهم محاصرون في الآطام فلا بد من أن يؤدي الفكر البشري دوره في محاولة تفتيت هذه الحرب الضروس، وتفريق كلمة المشركين فيها، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يجاوز المراوضة حتى يضع بين يدي الأنصار الأمر فيحكمان فيه، لم يحملهم عليه الصلاة والسلام مسؤولية تهيئة هذا الموضوع، فقد قام به وحده وقدمه بين يديهم جاهزًا، حتى لا يكونوا في حرج من السعي له.

وكان جواب السعدين:

(يا رسول اللَّه أمرًا تحبه فنصنعه؟ أم شيئًا أمرك اللَّه به لا بد من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟).

إنها قمة الأدب مع رسول اللَّه ﷺ؛ فإن كان أمرا من اللَّه فلا مجال فيه للرأي. لكن الجديد في الأمر: (يا رسول اللَّه أمرًا تحبه فنصنعه).

فيكفي أن يكون لرسول اللَّه ﷺ هوى فيه أو حب، فهم جاهزون كذلك للتنفيذ، ولو لم يكن هناك وحي، ولو أدى الأمر إلى أن يعطي ثلث ثمارهم لعدوهم، أو كل ثمارهم، أو كل أموالهم.

فقد محضوه الحب، ومحضوه الولاء، وفدوه بالولد والأهل والنفس، فيكفي أن يحب ذلك ويهواه حتى ينفذوه. وأما إن كان لمصلحتهم هم، فعندها يكون لهم كلام مناسب.

يقول عليه الصلاة والسلام « **بل شيئًا أصنعه لكم، واللَّه ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رموكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما** ».

٧ - فإذا كان البلاء قد بلغ ذروته فلا بد من هذه المحاولات، لتخفيف حدته

وشدته، لكن هل نفد صبر المؤمنين؟ وهل نزل بهم الوهن والعجز حتى يساوموا على أموالهم لإنقاذ أنفسهم من الحصار؟

أبدًا: لقد كان الموقف عنيفا وشديدًا:

يا رسول اللَّه إن كانوا ليأكلون العلهز في الجاهلية من الجهد، ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرى. فحين أتانا اللَّه تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك، نعطي الدنية؟ لا نعطيهم أبدًا إلا السيف! فقال رسول اللَّه ﷺ: «شق الكتاب» فتفل سعد فيه ثم شقه وقال: بيننا السيف.

وحاول عيينة بن حصن أن يراوغ ويهدد فجاءه الجواب المناسب: يا عيينة، أبالسيف تخوفنا، ستعلم أينا أجزع... أما واللَّه لولا مكان رسول اللَّه ما وصلتم إلى قومكم، فقال النبي ﷺ: «ارجعوا، بيننا السيف» رافعًا صوته.

لقد امتحن اللَّه المؤمنين بالجوع فصبروا، وبالخوف فثبتوا، وبالجهد فحفروا وعملوا، وبالقتال فقاتلوا واستبسلوا، وبالبرد فصبروا، حتى أذن اللَّه بعد ذلك بتفريج الكرب واستجابة الدعاء ونصر اللَّه.

الأسوة الحسنة:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢١ - ٢٣].

لقد كان رسول اللَّه ﷺ سيد المجاهدين وسيد العابدين وسيد الصابرين في الأرض، ولهذا كان الأسوة الحسنة لأصحابه.

يقول الإمام ابن جرير: (هذا عتاب من اللَّه للمتخلفين عن رسول اللَّه ﷺ وعسكره بالمدينة من المؤمنين به، يقول لهم جل ثناؤه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أن تتأسوا به، وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ يقول: فإن من يرجو ثواب اللّه ورحمته في الآخرة لا يرغب بنفسه ولكن تكون له به أسوة في أن يكون معه حيث هو)[1].

(وعن يزيد بن رومان قال: ثم أقبل على المؤمنين فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أن لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكان هو به، ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يقول: وأكثر ذكر اللّه في الخوف والشدة والرخاء)[2].

(وأخرج ابن أبي حاتم، عن السدي ﷺ، في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: مواساة عند القتال)[3].

(وأخرج ابن مردويه والخطيب في رواية مالك وابن عساكر وابن النجار، عن ابن عمر - رضي اللّه عنهما - في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع رسول اللّه ﷺ)[4].

وعند القرطبي: (الثانية: قوله تعالى ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأسوة: القدوة، الأسوة: مما يتأسى به، أي يتعزى به، فيقتدي به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، وقتل عمه حمزة، وجاع بطنه، ولم يلف إلا صابرًا محتسبًا، وشاكرًا راضيًا)[5].

ولا بد من عرض نماذج من هذه الأسوة الحسنة في هذه المواقف العصيبة:

١ - في حفر الخندق:

(كان البراء بن عازب يقول: ما رأيت أحدًا أحسن في حلة حمراء من رسول اللّه ﷺ، فإنه كان أبيض شديد البياض، كثير الشعر، يضرب الشعر منكبيه، ولقد رأيته يومئذ يحمل التراب على ظهره حتى حال الغبار بيني وبينه، وإني لأنظر إلى بياض بطنه)[6].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٩٠).
(٢ - ٤) الدر المنثور (٦/ ٥٨٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن القرطبي (٧/ ١٤/ ١٥٥).
(٦) المغازي للواقدي (٢/ ٤٤٩).

(وقال أبو سعيد الخدري: لكأني أنظر إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يحفر في الخندق مع المسلمين، والتراب إلى صدره وبين عكنه، وإنه ليقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

يردد ذلك)[1].

(وعن أبي واقد الليثي قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، فأجاز من أجاز، ورد من رد، وكان الغلمان يعملون معه، الذين لم يبلغوا ولم يجزهم، ولكنه لما لحم الأمر، أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام والذراري، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، فلقد كنت أرى رسول اللَّه ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول، ومرة يغرف بالمسحاة، ومرة يحمل التراب في المكتل، ولقد رأيته يومًا بُلغ منه فجلس رسول اللَّه ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقة الأيسر، فذهب به النوم، فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه ينحيان الناس أن يمروا به فينبهوه، وأنا قربت منه، ففزع ووثب، فقال: « **ألا أفزعتموني** » فأخذ الكرزن يضرب به، وإنه ليقول:

اللَّهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

اللَّهم العن عضلا والقارة فهم كلفوني أنقل الحجارة)[2]

٢ - خوفه على المسلمين:

(وكانت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: لقد رأيت لسعد بن أبي وقاص ليلة ونحن بالخندق لا أزال أحبه أبدًا. قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها، حتى إذا آذاه البرد جاءني فأدفأته في حضني، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة يحرسها، ويقول: « **ما أخشى أن يؤتى الناس إلا منها** ». فبينا رسول اللَّه ﷺ في حضني قد دفئ وهو يقول: « **ليت رجلًا صالحًا يحرسني الليلة** ». قالت: إلى أن سمعت صوت السلاح وقعقعة الحديد، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **من هذا؟** ». فقال: سعد بن أبي وقاص. قال: « **عليك الثلمة فاحرسها** ». قالت:

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٤٩).

(٢) المصدر نفسه (ص ٤٥٣).

ونام رسول اللَّه ﷺ حتى سمعت غطيطه)[١].

وقالت أم سلمة: (كنت مع رسول اللَّه ﷺ في الخندق فلم أفارقه مقامه كله، وكان يحرس بنفسه في الخندق، وكنا في قرٍّ شديد، فإني لأنظر إليه قام فصلى ما شاء اللَّه أن يصلي في قبته، ثم خرج فنظر ساعة فأسمعه يقول: « **هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، من لهم؟** »، ثم نادى: « **يا عباد بن بشر** ». فقال عباد: لبيك، قال: « **أمعك أحد؟** » قال: نعم، أنا في نفر من أصحابي كنا حول قبتك. قال: « **فانطلق في أصحابك فأطف بالخندق، فهذه خيل من خيلهم تطيف بكم، يطمعون أن يصيبوا منكم غرة. اللَّهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم واغلبهم ولا يغلبهم غيرك** »، فخرج عباد بن بشر في أصحابه، فإذا بأبي سفيان في خيل من المشركين يطيفون بمضيق الخندق، وقد نذر بهم المسلمون، فرموهم بالحجارة والنبل، فوقفنا معهم فرميناهم حتى أزلقناهم بالرمي، فانكشفوا راجعين إلى منزلهم، ورجعت إلى رسول اللَّه ﷺ، فأجده يصلي فأخبرته، قالت أم سلمة: فنام حتى سمعت غطيطه فما تحرك حتى سمعت بلالًا يؤذن بالصبح وبياض الفجر، فخرج فصلى بالمسلمين. فكانت تقول: يرحم اللَّه عباد بن بشر، فإنه كان ألزم أصحاب رسول اللَّه ﷺ لقبة رسول اللَّه يحرسها أبدًا)[٢].

وعن أم سلمة – رضي اللَّه عنها – قالت: (واللَّه إني لفي جوف الليل في قبة النبي ﷺ وهو نائم إلى أن سمعت الهيعة، وقائل يقول: يا خيل اللَّه! وكان رسول اللَّه ﷺ قد جعل شعار المهاجرين: « يا خيل اللَّه ». ففزع رسول اللَّه ﷺ بصوته، فخرج من القبة، فإذا نفر من الصحابة عند قبته يحرسونها، منهم عباد ابن بشر. فقال: « **ما بال الناس؟** » قال عباد: يا رسول اللَّه، هذا صوت عمر ابن الخطاب، الليلة نوبته ينادي: يا خيل اللَّه. والناس يثوبون إليه، وهو من ناحية حسيكة ما بين ذباب ومسجد الفتح. فقال رسول اللَّه ﷺ لعباد بن بشر: « **اذهب فانظر، ثم ارجع إلي إن شاء اللَّه فأخبرني!** ».

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٣). (٢) المرجع السابق (٢/ ٤٦٤).

قالت أم سلمة: فقمت على باب القبة أسمع كل ما يتكلمان به. قالت: فلم يزل رسول اللّه ﷺ قائمًا حتى جاءه عباد بن بشر. فقال: يا رسول اللّه، هذا عمرو بن عبد ود في خيل من المشركين، ومعه مسعود بن رخية.. في خيل غطفان، والمسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة.

قالت: فدخل رسول اللّه ﷺ، فلبس درعه ومفغره، وركب فرسه، وخرج معه أصحابه، حتى أتى تلك الثغرة، فلم يلبث أن رجع وهو مسرور فقال: « **صرفهم اللّه، وقد كثرت فيهم الجراحة** ». قالت: فنام حتى سمعت غطيطه، وسمعت هائعة أخرى ففزع ووثب فصاح: « **يا عباد بن بشر** » قال: لبيك! قال: « **انظر ما هذا؟** » فذهب ثم رجع فقال: هذا ضرار بن الخطاب في خيل من المشركين، معه عيينة ابن حصن في خيل غطفان عند جبل بني عبيد، والمسلمون يرامونهم بالحجارة والنبل، فعاد رسول اللّه ﷺ فلبس درعه، وركب فرسه، ثم خرج معه أصحابه إلى تلك الثغرة، فلم يأتنا حتى كان السحر، فرجع وهو يقول: « **رجعوا مفلولين، قد كثرت فيهم الجراحة** »، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس)[1].

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فرسول اللّه ﷺ القدوة لصحبه، يجوع أكثر مما يجوعون، ويتعب أكثر مما يتعبون، ويقوم بنفسه عليه الصلاة والسلام على ثلمة الخندق فيحرسها ولا تذوق عينه الغمض عندما يسمع الهيعة، فينهض فزعًا، وعندما يتأكد من الالتحام مع العدو يدع فراشه، ويلبس درعه ومغفره، ويمتطي فرسه، ويمضي إلى ساحة النزال حتى يطمئن على هزيمة المشركين، وقد يتم ذلك في الليلة الواحدة مرة ومرات، ويشتبك المسلمون في القتال فيكون على رأس الجيش، حتى ليحال بينه وبين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وهم في اشتباكهم مع العدو، وحين يود أن يطعم لا يرضى أن يطعم لوحده بل ينادي: « **يا أهل الخندق، إن أخاكم جابرًا قد صنع لكم طعامًا** ». ويقوم هو عليه الصلاة

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٤٦٦).

والسلام بذاته الشريفة يطعم أصحابه، يغرف من البرمة، ويتناول الخبز، حتى ينتهوا عن آخرهم وهم قرابة الألف أو يزيدون، حتى وعندما يكون الطعام تميرات بيد جارية أنصارية صغيرة لا يرضى إلا أن ينادي المسلمين إلى هذا الطعام، ويقدمه لهم بثوبه، ويأكل بعد أن يصدروا جميعًا شباعًا، وحين تدلهم الخطوب، وتشتد المحنة، يتصل بقيادات غطفان في محاولة لتفتيت الصف المشرك، ويتابع الأخبار داخل المدينة، الذراري والنساء، يبعث من يحرسهم طيلة الليل، لقد كان عليه الصلاة والسلام سيد الصابرين، وسيد المجاهدين، وأول الجائعين، وأشد العاملين، فلا غرو أن يفتديه صحبه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأرواحهم، فتأسوا به، واقتفوا هديه، واقتدوا بسنته.

ولقد رأينا ذلك التأسي العظيم برسول الله ﷺ، ففي الوقت الذي لا يرقأ لرسول الله ﷺ جفن خوفًا على جنده أن يأتيهم عدوهم من تلك الثلمة، لا يرقأ لسعد بن أبي وقاص جفن خوفًا على قائده عليه الصلاة والسلام فيكون في بهيم الليل حول قبته يحرسه، وفي الوقت الذي يلبس رسول الله ﷺ سلاحه ودرعه ومغفره، ويمتطي فرسه ليشارك جنده القتال، كانت عين عباد بن بشر وصحبه الذين معه باتت تحرس رسول الله ﷺ في الليل والنهار، ومع الإشارة أو الكلمة يكون عباد بن بشر بين يدي قائده يتلقى منه التوجيهات والأوامر، وكذلك كان المسلمون جميعًا، فما من محاولة للتسلل والانقضاض من أي جهة من جهات الخندق، إلا وصدت بعنف وصلابة، حتى يعود المشركون مثخنين بالجراح، وعندما دعا داعي المواجهة كان الجيش الإسلامي كله يواجه ويتلقى عنف الحرب وضراوة المعركة، حتى ليعجز عن صلاة الأوقات الأربعة، وهو يصد الهجوم الكبير والزحف الرهيب.

هذا ما وعدنا الله ورسوله:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ألا، يا روعة الثناء على هؤلاء المؤمنين. وكم الهوة سحيقة، والبون شاسع بين من يقولون: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢]. وبين من يقولون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهل أحس المنافقون بثقل المحنة فقط؟

أبدًا، لقد كانت المحنة شديدة الوطأة على الفريقين معًا، وكلا الفريقين نزل به الخوف والفزع، لكن المنافقين نجم نفاقهم، وتزعزع إيمانهم، وكشفوا خبث طويتهم.

أما المؤمنون فقد زادوا تمسكًا بدينهم، وثقة بربهم، وتسليمًا لقدره، وإيمانًا بنصره وتمكينه: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢].

(أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ ﴾ إلى آخر الآية قال: إن اللَّه تعالى قال لهم في سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] فلما مسهم البلاء حيث رابط الأحزاب في الخندق ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ فتأول المؤمنون ذلك، فلم يزدهم إلا إيمانًا وتسليمًا)[1].

فلم يحس المؤمنون باقتراب نصر اللَّه إلا مع هول المحنة وشدتها، ولم يروا هذه الآية: ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٤] إلا في هذه الشدة وهذا الكرب، فزادهم ثقة بربهم أنهم صاروا على وشك النصر: ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

---

(١) ذكره البيهقي في الدلائل (٣/ ٤٣٤) والطبري في تفسيره (٢١/ ١٤٤) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٥٨٥).

وقول ثانٍ رواه كثير بن عبد اللَّه بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: (خطب رسول اللَّه ﷺ عام الأحزاب فقال: « **أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها - يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر** » فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد للَّه، موعد صادق، إذا وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٢٢] وذكره الماوردي..

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا وتسليمًا.. والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيمانًا بالرب وتصديقًا بالقضاء، قاله الحسن..

ولما اشتد الأمر على المسلمين، وطال المقام في الخندق، قام عليه الصلاة والسلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده اللَّه من النصر وقال: « **من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة** » فلم يجبه أحد، وقال ثانيًا وثالثًا فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: « **من هذا؟** » فقال: حذيفة. فقال: « **ألم تسمع كلامي منذ الليلة؟** » قال حذيفة: فقلت: يا رسول اللَّه، منعني أن أجيبك الضر والقر. قال: « **انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم، اللَّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي، انطلق ولا تحدث شيئًا حتى تأتيني** ».

فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول اللَّه ﷺ يده يقول: « **يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي** » فنزل جبريل وقال: « **إن اللَّه قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك** »

فخر رسول اللَّه ﷺ على ركبتيه وبسط يديه، وأرخى عينيه وهو يقول: « **شكرًا شكرًا كما رحمتني ورحمت أصحابي** ». وأخبره جبريل أن اللَّه تعالى مرسل عليهم ريحًا، فبشر أصحابه بذلك.

قال حذيفة: فانتهيت إليهم، وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديد فيها

حصباء، فما تركت لهم نارًا إلا أطفأتها، ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون في الحصباء.

وقام أبو سفيان على راحلته، وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس، وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول اللَّه ﷺ فعاد إلى المدينة، وبه من الشعث ما شاء اللَّه، فجاءته فاطمة بغسول فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: « وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء » ثم قال: « انهض إلى بني قريظة »[1].

فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ونقف مع هذا الآية من ثلاثة جوانب: سبب نزولها، وتعدد معناها، ونماذج من هؤلاء الرجال الذين استحقوا هذا التقريظ والثناء من ربهم ﷻ.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: (عمي أنس بن النضر – سميت به – ولم يشهد بدرًا مع رسول اللَّه ﷺ فكَبُر عليه فقال: أول مشهد شهده رسول اللَّه ﷺ غبت عنه، أما واللَّه لئن أراني اللَّه مشهدًا مع رسول اللَّه ﷺ فيما بعد ليرين اللَّه ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها؛ فشهد مع رسول اللَّه ﷺ يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واهًا لريح الجنة: أجدها دون أحد؛ فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية – فقالت عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه.

ونزلت هذه الآية ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/ ١٤/ ٢٥٧).

(وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ إلى ﴿ تَبْدِيلًا ﴾ ثم قال رسول اللَّه ﷺ: « **أشهد أن هؤلاء شهداء عند اللَّه يوم القيامة فأْتوهم وزُوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه** »)[1].

وفي معنى الآية:

(القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤] يقول تعالى ذكره: من المؤمنين باللَّه ورسوله رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه، يقول: أوفوا بما عاهدوه عليه من الصبر على البأساء والضراء وحين البأس، فمنهم من قضى نحبه، يقول: فمنهم من فرغ من العمل الذي كان نذره للَّه، وأوجبه له على نفسه، فاستشهد بعض يوم بدر، وبعض يوم أحد، وبعض في غير ذلك من المواطن، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من قضى منهم على الوفاء للَّه بعهده، والنصر من اللَّه والظفر على عدوه.

والنحب: النذر في كلام العرب، وللنحب أيضًا في كلامهم وجوه غير ذلك، منها: الموت، كما قال الشاعر:

....   قضى نحبه في ملتقى القوم هـوبر

يعني منيته ونفسه، ومنها الخطر العظيم، كما قال جرير:

بطخفة جـالـدنا المـلوك وخيلنـا   عشية بسـطـام جـرين على نحب

أي على خطر عظيم، ومنها: النحيب، يقال: نحب في سيره يومه أجمع،

---

(١) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٨٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

إذا مد فلم ينزل يومه وليلته.. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل)[١].

(وأخرج الترمذي، عن طلحة بن عبيد اللّه ﷺ أن أصحاب رسول اللّه ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعليّ ثياب خضر، فلما رآني رسول اللّه ﷺ قال: « **أين السائل عمّن قضى نحبه؟** » قال: أنا يا رسول اللّه. قال: « **هذا ممن قضى نحبه** ».

وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير)[٢].

فإذا كان النحب الأجل، فهو ينطبق على أنس بن النضر ومصعب بن عمير، شهداء المسلمين الذين قضوا أجلهم، واستشهدوا في المعركة على الوفاء بعهدهم الذي عاهدوا، وصدقوا ما عاهدوا اللّه عليه. والمؤمنون الصادقون ينتظرون أجلهم وهم على ما هم عليه.

وإذا كان النحب العهد، فهو ينطبق على طلحة بن عبيد اللّه الذي وفى بما عاهد عليه اللّه وأمثاله الذين جاهدوا في اللّه حق جهاده.

وطلحة ﷺ الذي فاز بهذه الشهادة، هو الذي أسماه رسول اللّه ﷺ بالشهيد الحي، كما ورد في الحديث: « **من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد اللّه** »[٣].

ولا يغيب عن البال كذلك أن أحدًا إذا ذكرت أمام أبي بكر ﷺ كان يقول: « ذلك يوم كله لطلحة ».

وهو الذي جاهد جهاد الأحد عشر أنصاريًّا وحده، وهو يذب عن

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢١/ ٩٢).

(٢) الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب، حديث (٣٢٠٣).

(٣) الترمذي كتاب المناقب باب مناقب طلحة بن عبيد اللّه، حديث (٣٧٣٩) باب (٢٦)، (ج ٥) (ح ٣٩٣٩). وقال فيه: حديث غريب.

رسول اللَّه ﷺ. وحين نعلم أن هذه الآية قد نزلت في أحد، ثم نزلت ثانية في آيات الأحزاب، أو وضعت فيها بأمر رسول اللَّه ﷺ، وأنها كادت تفقد كما في الحديث الذي أخرجه أحمد، وعبد الرزاق، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن أبي داود في المصاحف، والبغوي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن زيد بن ثابت ﷺ قال:

لما نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول اللَّه ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول اللَّه ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فألحقتها في سورتها في المصحف[1].

وكفى اللَّه المؤمنين القتال:

حين نعلم ذلك لا بد لنا أن نعرج على نماذج ممن قضوا نحبهم في الخندق وصدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه:

١ - لقد تشابهت الآية الأولى والآية الأخيرة في العرض القرآني حول غزوة الأحزاب:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وبين هاتين الآيتين تم التركيز على ضراوة المحنة، وشدة الابتلاء، وموقف المؤمنين فيه، وموقف المنافقين، وتم توضيح هذه المواقف، والتمييز بين الفريقين، ثم هزيمة الكافرين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ حديث (٤٧٨٤) وأحمد في مسنده (٢١١٣١)، وانظر الدر المنثور (٦/ ٥٨٦).

٢ - لقد شارك في الحرب خمسة عناصر كانت لصالح المسلمين، وكفى اللَّه بها المؤمنين القتال:

أ - الجنود: وهم الملائكة الذين حضروا الحرب وبثوا الرعب في قلوب الكافرين، وأكثروا سواد المسلمين، ولم يشاركوا في القتال، والأحاديث الصحيحة التي تؤكد قول جبريل فيما بعد، تؤكد هذا المعنى.

« وضعت السلاح ولم تضع الملائكة السلاح بعد، إني ماضٍ إلى بني قريظة فمزلزل من حصونهم ».

ب - الريح: وقد رأينا فعلها الشديد الذي نصرت به رسول اللَّه ﷺ، وقد ذكرها أبو سفيان عنصرًا من أهم العناصر الرئيسية في انسحابه:

« وقد لقينا من الريح ما ترون واللَّه ما يثبت لنا بناء ولا تطمئن لنا قدر ».

جـ - نعيم بن مسعود: ودوره الرئيسي في تخذيل المشركين واليهود عن الصف المسلم: وتشير بعض الروايات لذلك وهي التي أخرجها ابن سعد عن سعيد بن المسيب: فبينما هم على ذلك إذ جاءهم نعيم بن مسعود الأشجعي وكان يأمنه الفريقان جميعًا، فخذل بين الناس، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال، فذلك قوله: ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

د - دعاء الرسول ﷺ وتضرعه إلى ربه ﷻ: (دعا رسول اللَّه ﷺ على الأحزاب في مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء، فعرفنا السرور في وجهه).

هـ - صمود المسلمين العظيم وثباتهم: ففي الهجوم الأخير الذي رصد المشركون له كل قواتهم، وجيشوا كل أبطالهم، وأتوا الخندق من كل جانب واستمرت المواجهة من الظهر إلى هوى من الليل، عجزوا أن يزحزحوا المسلمين شبرًا عن مواقعهم، وتشير الروايات التي أوردناها من قبل إلى ذلك.

و - البطولات العظيمة من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه: فيقظة عباد ابن بشر ﷺ قائد حرس النبي ﷺ. وقتل الزبير نوفل بن عبد اللَّه المخزومي،

ومصرع عمرو بن عبد ود العامري، أنهى كل تفكير لدى العدو في مغامرات يكسب بها أي جولة. فاقتحام الفرسان الخندق وهم أبطال قريش، ومقتل اثنين منهم، قلب الموازين كلها في صفوفهم.

٣ - وحين نعدد هذه العناصر لا بد أن نربط بينها الربط المنطقي الموضعي:

فثبات المؤمنين ابتداءً كما وصفهم اللَّه ﷻ: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

هذا الوصف الذي نال صفهم العام، ووصف الصفوة منهم: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

هذا الوصف الرباني لهم يجعلهم أهلًا لنصر اللَّه وعونه وتأييده، يطعمهم ويسقيهم ويبعث لهم الملائكة وجنده من الريح والرعب ليحقق بهم موعوده، ويمكن لهم في الأرض.

فالعناصر الأخرى إذن هي ثمرة سلامة الصف، وقوة تربيته، وعظمة إيمانه، ومدى تجرده واعتماده على اللَّه ﷻ، حتى ليثق بموعود اللَّه حين تصل المحنة إلى الذروة، ويقولون: هذا ما وعدنا اللَّه ورسوله، متأولين قول اللَّه ﷻ في سورة البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فاستدلوا على اقتراب النصر بالزلزلة وشدة المحنة التي نزلت بهم. فكانت العناصر الباقية عناصر خارجية، وأمدادًا ربانية، لا يملكونها بقوتهم البشرية.

الريح، الملائكة، والرعب، وتخذيل نعيم بن مسعود، كلها عناصر مبنية على سلامة العنصر الأول، وهو أن الصف الإيماني بلغ من التلاحم والقوة والثبات ما يجعله مؤهلًا لنصر اللَّه وتمكينه في الأرض.

٤ - وفي مقارنة بين أحد والخندق نلحظ الصفين معًا، وكيف استحق الصف النتائج المترتبة على مستواه:

- فالصف المؤمن في أحد كما وصفه اللَّه تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. هذا الصف، حيل بينه وبين النصر لكونه بهذه المواصفات.

- أما الصف المؤمن في الخندق:

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فلم ترهبه قوة العدو، ولم تُلن قناته ضغوط الكفار والمشركين، ولم يثن عزمه أو يوهن إيمانه الجنود الذين جاؤوا من فوقه ومن أسفل منه، وقد بلغ به الخوف مبلغه: ﴿ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

لكنه رغم هذا كله بقي على التزامه على طاعته، وعلى ولائه، وعلى ثباته، فجاءه نصر اللَّه.

٥ - وجود المستويات الإيمانية الفائقة في المعركتين، وبروز بطولاتها فيها، قد يخفف من وطأة المحنة، وقد يخفف من شدة البلاء، لكنه لا يغير قوانين النصر والهزيمة:

فالحكم ابتداءً هو على المستوى العام للصف كله، ويكفي أن نعلم أن الآية التي تحدثت عن المستويات الإيمانية الفائقة، هي هي نفسها وردت في أحد ووردت في الخندق: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ

نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٦ - وكما أن وجود المستويات الإيمانية الفائقة في الصف المسلم لا يؤثر على قوانين النصر والهزيمة، فكذلك وجود الطابور الخامس من المنافقين لا يؤثر على نتيجة المعركة عند سلامة الصف الداخلي وقوته:

فقد تحدث القرآن الكريم عنهم في الخندق أكثر مما تحدث عنهم في أحد وفضحهم وعرَّاهم، ومع ذلك لم يحولوا دون تحقيق النصر؛ لأن تأثيرهم محصور عليهم، وتعريتهم حتى لا تتجاوز مواقفهم غيرهم، بل نجد أكثر من ذلك أن بعض هؤلاء عصم في أحد، وزل في الخندق، لكن هذا كله لم يحل دون نصر اللَّه ﷻ.

لقد كان تأثير المنافقين في أحد على الصف المؤمن كبيرًا فخلخله، فدفع بعض أفراده إلى الفرار، وبعضهم إلى إلقاء السلاح، وبعضهم إلى الارتباك وبعضهم إلى أن يهم بالتخاذل مع ابن أبي وحزبه لكنه في الخندق لم يتجاوز أولئك المغموصين في النفاق، والذين حوصروا من كل جهة، ونقلت أخبارهم إلى القيادة النبوية وكانت مخططاتهم مكشوفة وكيدهم ضعيف حقير لا يقوى على زعزعة الصف المسلم.

٧ - ولا شيء أروع من إيضاح ما كفى اللَّه به المؤمنين القتال، مثل دراسة خسائر المعركة:

لقد كان حصار خمسة عشر يومًا من المشركين واليهود للمسلمين، مقتل ستة أشخاص فقط، رموا بحربة أو بسهم، وهم:

سعد بن معاذ ﷺ، وأنس بن أوس بن عتيك، وعبد اللَّه بن سهل الأشهلي، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة من نمابي، وكعب بن زيد من بني دينار والثلاثة هؤلاء خزرجيون.

وأن تنتهي معركة بهذه الضخامة والمحنة والمواجهة، ويحشد لها عشرة آلاف مقاتل وتنتهي بستة قتلى، ليؤكد أن اللَّه تعالى كفى المؤمنين القتال، وأن الأمر

كان بالنسبة لهم محنة وابتلاء، ثبتوا فيه وصبروا وتحملوا، فوقاهم اللَّه سيئات مكر الكافرين.

وحين نذكر أن معركة أحد التي لم تتجاوز يومًا واحدًا، قد انتهت بسبعين من الشهداء المسلمين، نلاحظ الفرق بين الغزوتين، وأن الجانب النفسي والبناء التربوي في أحد هو المقصد الأساسي من العرض الرباني لها.

٨ - وفي قصة حذيفة ﷺ وخروجه للإتيان بخبر القوم، لا يفوتنا الحديث عن هذا الالتزام العجيب الذي صبغ الصف المسلم كله:

فأمام الخوف والبرد حين كان الأمر متروكًا لحرية المسلمين لم يتحرك أحد، مع أن رسول اللَّه ﷺ شرط لهم العودة والرفقة في الجنة، وبذلك نلحظ مدى الخوف والبرد الذي عاشه هذا الجيش، لكن عندما صدر الأمر صراحة لحذيفة، لم يكن له بد أن يقوم. ونجد روعة الالتزام عنده، وقد مُكن من قتل قائد جيش العدو، ولا يكلفه الأمرُ إلا سهمًا واحدًا فقط، لكنه تذكر أمر رسول اللَّه ﷺ أن لا يحدث حدثًا، فتوقف عن ذلك.

ونجد هذا الالتزام لدى قيادات الأنصار فإن كان إعطاء الثلث من ثمار المدينة لغطفان هوى لرسول اللَّه ﷺ يحب أن يصنعه فلا نقاش لهم في ذلك، وإن كان أمرًا يصنعه لهم فلهم رأي آخر.

ونجد هذا الالتزام لدى هذه الآلاف وهي تحفر الخندق، رغم الجوع الشديد، والبرد الشديد:

(فقد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا).

وهي لا تتحرك إلا بإذن ولا تمضي إلى بيوتها إلا بإذن.

ونجد هذا الالتزام المشوب بالحب والفداء والتضحية لدى الأبطال الذين برزوا في ساحة المعركة: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسلمة بن سلامة بن وقش، وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير، وغيرهم كثير من الذين صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه.

٩ - وحين نذكر الالتزام لا بد أن نذكر بالمقابل المخالفة للذين في قلوبهم مرض، والذين ذكرهم القرآن أنهم يتسللون لواذًا دون أمر رسول اللّه ﷺ، والذين يتعللون أن بيوتهم عورة:

ولا بد أن نذكر حالة ذكرتها كتب السيرة لا تتحدث عن الذين في قلوبهم مرض، إنما تتحدث عن الجيش كله:

(وكره رسول اللّه ﷺ أن تعلم بنو قريظة رجعتهم إلى منازلهم، فأمر بردهم وبعث من ينادي في أثرهم، فما رجع رجل واحد. فكان ممن يردهم عبد اللّه بن عمر، أمره رسول اللّه ﷺ. قال عبد اللّه: فجعلت أصيح في أثرهم في كل ناحية: إن رسول اللّه يأمركم أن ترجعوا، فما رجع رجل واحد منهم من القر والجوع، فكان يقول: كره رسول اللّه ﷺ يرى سرعتهم، وكره أن يكون لقريش عيون. قال جابر: أمرني رسول اللّه ﷺأن أردهم، فجعلت أصيح بهم فما يرجع أحد، فانطلقت في أثر بني حارثة، فواللّه ما أدركتهم حتى دخلوا بيوتهم، ولقد صحت فما يخرج إليَّ أحد من جهد الجوع والقر، فرجعت إلى النبي ﷺ فألقاه في بني حرام منصرفًا، فأخبرته، فضحك ﷺ)[1].

لقد جاء النداء بعد الأوامر الصريحة بالانصراف، وبعد أن كفى اللّه المؤمنين القتال، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وبعد أن تفرق الجميع إلى بيوتهم، دون تحديد ساعة محددة أو وقت محدد للعودة.

وكان حرص كل رجل على أن يأوي لبيته، بعد خمسة عشر يومًا من الجوع والقر، قد سجل بطئًا في التنفيذ لدى الجميع، ولا ننسى أن المنادي هو عبد اللّه بن عمر وهو صبي يجاز لأول مرة بحضور المعركة، حيث رد في أحد وأجيز في الخندق، وجابر الذي لم يجز في أحد، وأجيز بعدها، والظاهر أن الأمر ليس محددًا في ذلك، فما رجع أحد.

لكن حتى لا تعتبر ظاهرة عامة لا بد أن نذكر أنه عندما صار النداء في اليوم نفسه:

---

(١) المغازي للواقدي (ص ٤١٨) سبل الهدى والرشاد (٢/ ١٠).

« من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » لم يتخلف أحد من المسلمين، ووصل بعضهم قبل فوات العصر، وبعضهم بعد المغرب، لكن التنفيذ لتعبئة جيش قوامه ثلاثة آلاف، وتحركه لحصون بني قريظة، ومسافة عدة ساعات، احتاج هذا التحرك لبضع ساعات، قد لا تتجاوز الخمسة.

وهذا في التعبئة العسكرية وضع مثالي لا يجارى، وذلك بعد إذن لم يتجاوز الساعات كذلك في رؤية الأهل، وتناول بعض الطعام الخشن يتقوى به المسلم على المواجهة.

١٠ - ونذكر الحديث الصحيح الذي أنهى به رسول اللّه ﷺ مرحلة اختتمت من الجهاد والعناء، إلى مرحلة جديدة كل الجدة في معالمها، وخطوطها، حيث تم الانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، وجاء نصر اللّه بعد أن جاءهم مثل الذين خلوا من قبلهم:

فقد جاء في البخاري: (سمعت أبا إسحاق يقول: سمعت سليمان بن صرد يقول: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: **« الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم »**)[1].

وانتهت بذلك تلك المرحلة الصعبة العنيفة التي عاشها المسلمون قرابة ثلاث سنوات، شديدة الوطأة، صبر بها المسلمون وصابروا، وعانوا من الآلام والجراح والتضحيات وثبتوا، وصدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، وابتدأت مرحلة جديدة، تنتقل بالمسلمين إلى احتلال المواقع الجديدة بعد أن ثبَّتوا المواقع الأولى، وهو من جانب آخر تصديق لنبوءة النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

فرغم زعم أبي سفيان أنه سيعيد الكرة، كما ذكر في رسالته إلى رسول اللّه ﷺ: « فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد » لكنه كان عاجزًا بعدها عن أن يجيِّش أي جيش يتحرك به نحو المدينة، فقد بذل المشركون واليهود قاطبة كل ما يملكون، وحزبوا الأحزاب من الأرض العربية كلها، وكما يقول عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث (٤١١٠).

والسلام: « **رأيت العرب قد كالبوكم ورموكم عن قوس واحدة** ».

ومع ذلك - وبعد حصار الخمسة عشر يومًا - كانت النتيجة أن ردهم اللَّه بغيظهم لم ينالوا خيرًا. وكفى اللَّه المؤمنين القتال، ولم تقم لهم بعدُ قائمة، أو تتحرك لهم كتيبة.

« **اللَّهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللَّهم اهزمهم وزلزلهم** »[(١)].

وذلك بعد أن تبرأ المسلمون من قوتهم، وتضرعوا إلى رسول اللَّه ﷺ أن يدعو لهم ليكشف عنهم فقالوا: يا رسول اللَّه، ما نقول؟ قد بلغت القلوب الحناجر. قال: « **قولوا: اللَّهم آمن روعاتنا واستر عوراتنا** ».

ومن أجل ذلك عندما تم النصر الرباني بالجنود والريح، قال عليه الصلاة والسلام: « **لا إله إلا اللَّه وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده** »[(٢)].

وبقي أثر هذا النصر في نفس النبي ﷺ عميق الغور، بحيث بقي مرافقًا له طيلة حياته، كما يروي عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ إذا قفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرات ثم يقول: « **لا إله إلا اللَّه وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق اللَّه وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده** »[(٣)].

ومضى هذا الدعاء خالدًا يردده المسلمون في أقطار الأرض في كل زمان ومكان إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، يرددونه إذا حجوا أو اعتمروا أو قفلوا من غزو، وترسَّخ هذا المعنى التربوي الجهادي في أذهانهم بأجلى صورة وأوضح بيان، وأنصع تعبير:

« **لا إله إلا اللَّه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث (٤١١٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٤١١٦).

قبله ولا شيء بعده ».

فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا:

يقول ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦ ، ٢٧].

فسبب غزوهم إذن هو نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها على المسلمين، في أثناء حصار الأحزاب في المدينة. وهذا السبب قد ثبت طرق قابلة بمجموعها للاحتجاج بها، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد أرسل الزبير بن العوام لاستطلاع خبرهم كما جاء ذلك في الصحيح.

حامل راية المسلمين يوم بني قريظة:

من حديث عروة قال : (وبعث عليًا على المقدمة ، ودفع إليه اللواء، وخرج رسول اللّه ﷺ على إثره).

قصة أبي لبابة:

من حديث عائشة قولها: (فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم ، واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول اللّه ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة ابن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح)؛ حيث أكد القرآن الكريم أن قتلهم وأسرهم لأنهم ظاهروا قريشًا ونقضوا عهدهم مع رسول اللّه ﷺ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

سعد بن معاذ وبنو قريظة:

ولسنا بصدد استعراض شخصه، ولكننا ندرس دوره في غزوة بني قريظة، والمستوى الرفيع الذي مثله فيه، فهو ﷺ دعا ربه: « ولا تمتني حتى تشفني من بني قريظة ».

إنهم حلفاؤه وهو الذي سمع منهم قذارتهم وتهكمهم برسول اللّه ﷺ وهو الذي تلقى من أحد قادتهم حين أخذهم الزهو والعزة بالإثم تلك الكلمة الخبيثة: أكلت أير أبيك.

وهو الذي يحاول أن يحرك كوامن الخير فيهم لعلهم يرعوون فما زادوا إلا صلفًا واستعلاءً على اللّه ورسوله، وتركهم وقلبه يئن من الألم لهذا الغدر المبيت الذي أقدموا عليه في أسوأ الظروف.

لهذه العوامل جميعًا، وهو سيد قومه، وسيد الأوس، ومن أبرز سادات المسلمين - ضبط جميع انفعالاته وحدد موقفهم بقوله: (ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة)[1].

هذا القلب الموصول باللّه، هذا القلب الرباني، استجاب اللّه تعالى له، وإذا بسيد الخلق يدعوه ليحكم في بني قريظة، والأوس يختارونه ليحكم بينهم، واليهود يختارونه ليحكم عليهم.

وكانت فرصة مواتية، هيأت لسعد أن يبني عرش ذاته أمام هذا الإجماع الساحق عليه، وهذا ما دعاه إليه قومه وتواثبوا عليه يقولون: (يا أبا عمرو، إن رسول اللّه قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم، فأحسن، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه. وأكثروا من هذا وشبهه).

ولو فعل ذلك لأرضى قومه الأوس ورسخ قيادته فيهم، ولأصبح اليهود من بني قريظة يدينون له الولاء طيلة حياتهم فقد أنقذهم من الموت، والمسلمون جميعًا يتحدثون من خلال هذه الثقة التي أعطيت له عن أبعاد هذه الزعامة، ولحقق انتصارًا ساحقًا على منافسه سعد بن عبادة، إلى آخر هذه الأمجاد، التي يتسابق عليها القواد ويتنافس عليها الزعماء.

ولكن هذا الرجل الرباني حسم الموقف بكلمة واحدة، فليس له ذات منفصلة عن دينه، لقد انصهر في بوتقة هذا الدين وصيغ في كل جزئية من جزئياته بهذه

---

(١) ونسبتها لابن معاذ أصح وابن عبادة هو المشهور في الحدة.

العقيدة، ومسح كل ذرة من ذرات الجاهلية، وخلع ربقة الجاهلية من عنقه، وأعطى ولاءه للّه وحده ولرسوله، ورمى خلف ظهره كل أمجاد الجاهلية السابقة، ورسم الأفق الأعلى للمؤمن:

(وقد آن لسعد أن لا تأخذه في اللّه لومة لائمة).

إن سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام يعرف المعدن النفيس الذي ينتمي إليه سعد، فلم يتردد لحظة واحدة في أن يترك حكمه عليه الصلاة والسلام وينزل عنه إلى حكم سعد بن معاذ، ويعلن هذا أمام الملأ جميعًا أنه يقبل بحكم سعد، إنه يعلم عليه الصلاة والسلام أي طراز من الرجال هو، وبذلك رمى الأوس بقائدهم ليحكم بحلفائه بني قريظة.

وحين وقف ﷺ بين الصفين، بذلت اليهود كل ما تملك من إغراء ورجاء وتذلل وصغر لسعد على أمل أن ينقذهم، وحركوا فيه كل نوازع الزعامة السابقة، ولم يدروا أنها قد استؤصلت من نفسه منذ زمن بعيد.

قالوا: نعم قد رضينا بحكمك، وأنت غائب عنا، اختيارًا منا لك، ورجاءً أن تمن علينا كما فعل غيرك بحلفائه من بني قينقاع، وأثرنا عندك أثرنا، وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك.

وخبرة الرسول ﷺ بنفسية سعد الربانية، لم تجعل الشك يحوم لحظة واحدة فيه بجندية الذي يعرض اليهود كل إغراءاتهم عليه، ورضي - ولأول مرة في التاريخ - أن يحكم جندي من جنوده بينه وبين عدوه، ويعلن على الملأ قبوله بحكمه، بقوله: « **وعلى من ها هنا مثل ذلك** ».

وعندما أصدر حكمه ﷺ لم يراع أحدًا إلا اللّه ورسوله؛ لم يراع رغبة قومه، ولم يراع رغبة اليهود، ولم يراع الرغبات المدفونة في نفسه، والتي حاولت أن ترفع رأسها وتبث سمومها فيه، لقد رمى بذلك كله خلف ظهره وقال: « أحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى؛ وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار ». ولم تقبل مراجعة الأنصار حين قالوا:

« إخواننا كنا معهم ». فأكد حكمه بقوله: « أحببت أن يستغنوا عنكم ».

وتكفيه شهادة رسول رب العالمين: « **لقد حكمت فيهم بحكم اللَّه الذي حكم به من فوق سبع سماوات** »، وفي رواية: « **بذلك طرقني الملك سحرًا** ».

هذا هو الموقف الأول، والموقف الثاني الذي لاحق تنفيذ هذا الحكم عندما قال سعد بن عبادة ﷺ: « إن الأوس قد كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم ».

فقال: « ما كرهه من الأوس أحد فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه اللَّه ».

وحين نتحدث عن سعد بن معاذ لا بد أن نتحدث عن دور القيادات كذلك في الصف الإسلامي، فموقف عبد اللَّه بن أبي في بني قينقاع كان موقفًا سيئًا مزق الصف الإسلامي، وتحمل الصف عقابيله في لقاء أحد، وأحرج رسول اللَّه ﷺ.

وخلاف السعدين في الرأي (سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) يمكن أن يمزق الصف الإسلامي كذلك وينذر بكارثة فيه، وقد رأينا في حديث الإفك شيئًا من هذا، تداركه عليه الصلاة والسلام بحكمته، وإبراز ظاهرة الأوس، وعدم رضاهم بقتل بني قريظة، لو تركت تنمو وتستفحل لأوجدت هوة في الصف الإسلامي يصعب ردمها وقد تجز إلى مواقف أسوأ.

فكان الحسم العظيم من سيد الأوس، قطعًا للفتنة من دابرها، ولم يكن موقف أسيد بن الحضير أدنى من موقف أخيه سعد، بل دعا إلى الحسم العملي للفتنة، بأن دعا إلى أن يباشر الأوس قتل حلفائهم من بني قريظة، لتوءد هذه الفكرة في مهدها، فتوحُّد موقف القائدين للأوس، سعد وأسيد، وقيامهم بالإشراف على تنفيذ الحكم بأيد أوسية، اقتلع الفتنة من جذورها والتحمت القلوب كلها حول قائدها، وارتفع الصف الإسلامي بهذه التربية الربانية آفاقًا جديدة.

ولم ينج من الموت إلا أربعة نفر.. أعلنوا براءتهم من غدر اليهود، وخرجوا على قومهم. فحفظ الوفاء لهم دماءهم.

أما العدو اللدود، شيطان الإنس الرجيم حيي بن أخطب، فقد أعلن عدالة

الحكم الإسلامي في قتل يهود حين قال: (وقد التمست العز في مكانه، فأبى اللَّه إلا أن يمكنك، لقد قلقلت كل مقلقل لكنه من يخذل اللَّه يخذل)[1] ويعلن تجبره وهو يلقى مصرعه بقوله: (لا بأس قدر وكتاب وملحمة كتبت على بني إسرائيل)[2].

وكما حكم اللَّه عليهم أن اقتلوا أنفسكم حين عبدوا العجل نالوا عقوبة القتل على الغدر؛ لأنه من يخذل اللَّه يخذل.

***

(١، ٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/ ٢٣، ٢٤).

صلح الحديبية

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ١ - ٣].

(أخرج ابن إسحاق والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها)[١].

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي. فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نزرت رسول اللّه ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك، فحزكت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن. فما نشبت أن سمعت صراخًا يصرخ بي، فرجعت، وأنا أظن أنه نزل في شيء. فقال النبي ﷺ: « **لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة أحب إلي من الدنيا وما فيها:** ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ »[٢].

(وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن مجمع بن جارية الأنصاري قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها إلى كراع الغميم إذا الناس يوجفون الأباعر. فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول اللّه ﷺ، فخرجنا مع

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٨) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٥٠٧ - ٥٠٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٠٤٤) وأبو داود في الجهاد، باب فيمن أسهم له سهماً (٢٧٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٣٩٢).

الناس نوجف، فإذا رسول اللَّه ﷺ على راحلته على كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول اللَّه، أو فتح هو؟ قال: « والذي نفسي بيده إنه لفتح »)[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أو كما شاء اللَّه، فقال نبي اللَّه ﷺ: « لقد أنزلت عليَّ آية أحب إليَّ من الدنيا جميعًا »[2].

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: (نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية، وقد حيل بينهم وبين نسكهم، فنحر الهدي بالحديبية وأصحابه فخالطوا الكآبة والحزن فقال: « لقد أنزلت علي آية أحب إلي من الدنيا جميعًا » فقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى قوله ﴿عَزِيزًا﴾ فقال أصحابه: هنيئًا لك يا رسول اللَّه...

من خلال الروايات المذكورة لاحظنا أن السورة نزلت والمسلمون تغشاهم الكآبة، ويخالطهم الحزن، وعمر بن الخطاب ﷺ يراجع رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات، ولا يرد عليه الرسول ﷺ ولا خيار لنا من الوقوف عند حدوث صلح الحديبية الذي تم بكل تفصيلاته، ونشهد من خلاله الأوضاع النفسية التي نزلت بالمسلمين على أثره، وكيف جاء القرآن الكريم ليغسل هذا الأسى ويمحو هذه الكآبة، ويُسعد رسوله ﷺ بأحب آية إليه.

روى ابن إسحاق، وأبو عبيد، وعبد الرزاق، والإمام أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، ومحمد بن عمر، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، والشيخان عن سهيل بن حنيف: أن عثمان لما قدم مكة هو ومن معه، ورجع سهيل بن عمرو وحويطب ومكرز إلى قريش فأخبروهم بما رأوا من سرعة أصحاب النبي ﷺ إلى البيعة وتشميرهم إلى

(١، ٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري (م ١١)، (٢٦/ ٤٣، ٤٤).

الحرب - اشتد رعبهم، فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصالح محمدًا على أن ينصرف عنا عامه هذا، ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنَّا قد صددناه، ويرجع قابلًا فيقيم ثلاثًا وينحر هديه وينصرف، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا، فأجمعوا على ذلك، فلما أجمعت قريش على الصلح والموادعة بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب ومكرز وقالوا لسهيل: إيت محمدًا فصالحه، وليكن في صلحك ألَّا يدخل عامه هذا، فواللَّه لا تحدث العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا.

فأتى سهيل رسول اللَّه ﷺ، فلما رآه رسول اللَّه قال: « **قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا** » وفي لفظ: فقال رسول اللَّه ﷺ: « **سهل أمركم** » وجلس رسول اللَّه ﷺ متربعًا، وكان عباد بن بشر وسلمة بن أسلم بن حريش على رأسه، وهما مقنعان بالحديد - فبرك سهيل على ركبتيه، فكلم رسول اللَّه ﷺ فأطال الكلام وتراجعا، وارتفعت الأصوات وانخفضت.

وقال عباد بن بشر لسهيل: اخفض صوتك عند رسول اللَّه ﷺ. والمسلمون حول رسول اللَّه جلوس، فجرى بين رسول اللَّه ﷺ وبين سهيل القول حتى وقع الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضًا، وأن يرجع رسول اللَّه ﷺ عامه هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها فدخل مكة، فأقام فيها ثلاثًا، فلا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القرب، لا يدخلها بغيره. وأنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - رده إلى وليه، وأنه من أتى قريشًا ممن اتبع محمدًا لم يردوه عليه، وأن بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ عيبة[1] مكفوفة، وأنه لا إسلال[2] ولا إغلال[3]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

فكره المسلمون هذه الشروط وامتعضوا منها، وأبى سهيل إلا ذلك، فلما

---

(١) عيبة مكفوفة: أي تكف عنا ونكف عنك.

(٢) الإسلال: السرقة. (٣) الإغلال: الخيانة.

اصطلحوا ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، ألست نبي اللَّه حقًّا؟ قال: « بلى » قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: « بلى » قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: « بلى » قال: علام نعط الدنية في ديننا؟ ونرجع ولم يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إني عبد اللَّه ورسوله، ولست أعصيه ولن يضيعني، وهو ناصري** ». قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقًّا؟ قال: « **بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟** » قال: لا: قال: « **فإنك آتيه ومطوف به** » فذهب عمر إلى أبي بكر متغيظًا ولم يصبر، فقال: يا أبا بكر، أليس هذا نبي اللَّه حقًّا؟ قال: بلى. قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعط الدنية في ديننا، ونرجع ولم يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول اللَّه، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه[1] حتى تموت.. فو اللَّه إنه لعلى الحق - وفي لفظ: فإنه رسول اللَّه - فقال عمر: وأنا أشهد أنه رسول اللَّه، قال: أوليس كان يحدثنا أنه سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فلقي عمر من هذه الشروط أمرًا عظيمًا وقال كما في الصحيح: واللَّه ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، وجعل يرد على رسول اللَّه ﷺ الكلام. فقال أبو عبيدة ابن الجراح: ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول اللَّه ﷺ يقول ما يقول، تعوَّذ باللَّه من الشيطان واتهم رأيك. قال عمر: فجعلت أتعوذ باللَّه من الشيطان حياءً، فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم، وعملت بذلك أعمالًا - أي صالحة - لتكفر عني ما مضى من التوقف في امتثال الأمر ابتداءً - كما عند ابن إسحاق وابن عمر الأسلمي.

قال عمر: فما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا.

---

(١) الغرز: بمنزلة الركاب للسرج، والمراد: الزم أمره.

وروى البزار عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول اللّه ﷺ برأيي، وما ألوت على الحق. قال: فرضي رسول اللّه ﷺ وأبيت حتى قال: « **يا عمر، تراني رضيت وتأبى؟** ».

فقال سهيل: هات، اكتب بيننا وبينك كتابًا، فدعا رسول اللّه ﷺ عليًّا، كما في حديث البراء عند البخاري في كتاب الصلح وكتاب الجزية، ورواه إسحاق ابن راهويه من حديث المسور، ومروان، وأحمد، والنسائي، والبيهقي، والحاكم وصححه، عن عبد اللّه بن مغفل المزني، فقال رسول اللّه ﷺ: « **اكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم** » فقال سهيل - وأسلم بعد ذلك -: أما الرحمن الرحيم فواللّه ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللّهم كما كنت تكتب. اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال المسلمون: واللّه لا نكتبها إلا بسم اللّه الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: « **اكتب باسمك اللّهم** ».

ثم قال: « **هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه ﷺ** »، فقال سهيل: واللّه لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، اكتب في قضيتنا ما نعرف، اكتب: محمد بن عبد اللّه. فقال رسول اللّه ﷺ لعلي: « **امحه** » فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه - وفي لفظ: أمحاك. وفي حديث محمد بن كعب القرظي: فجعل يتلكأ، وأبى أن يكتب إلا محمد رسول اللّه -، فقال رسول اللّه ﷺ: « **اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد** »[1].انتهى.

وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة أخذا بيد علي ومنعاه أن يكتب إلا (محمد رسول اللّه) وإلا فالسيف بيننا وبينهم، فارتفعت الأصوات، فجعل رسول اللّه ﷺ يخفضهم ويومئ بيده إليهم: اسكتوا. فقال: « **أرنيه** » فأراه، فمحاه رسول اللّه ﷺ بيده وقال: « **اكتب: محمد بن عبد اللّه** ».

---

(١) يشير إلى ما وقع لعلي ﷺ يوم الحكمين، فإنه لما كتب الكاتب هذا ما صالح عليه علي أمير المؤمنين أرسل معاوية يقول: لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين بايعته، امحها واكتب علي بن أبي طالب. فقال علي: اللّـه أكبر مثل بمثل، امحها.

قال الزهري: وذلك لقوله ﷺ: « **لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها** ».

فقال رسول اللَّه ﷺ: « **على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف** » فقال سهيل: لا واللَّه لا تحدث العرب أنا أخذنا ضغطة[١]، ولكن لك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا أحد بغير إذن وليه، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

فقال المسلمون: سبحان اللَّه، أيكتب هذا؟ كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟! فقال رسول اللَّه ﷺ: « **نعم إنه من ذهب منا إليهم، فأبعده اللَّه، ومن جاء منهم إلينا سيجعل اللَّه له فرجًا ومخرجًا** ».

وروى الإمام أحمد وعبد بن حميد ومسلم، عن سلمة بن الأكوع قال: فبينما الناس على ذلك إذ أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين، وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه، فخرج من السجن، واجتنب الطريق، وركب الجبال حتى أتى الحديبية، فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك، وأخذ بتلابيبه ثم قال: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **إنا لم نقض الكتاب بعد** » قال: فواللَّه إذن لا أصالحك على شيء أبدًا. قال « **فأجزه لي** »[٢] قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: « **بلى فافعل** ». قال: ما أنا بفاعل. فقال مكرز و حويطب: بلى قد أجزناه لك. فأخذاه فأدخلاه فسطاطًا فأجازاه وكف عنه أبوه.

فقال أبو جندل: أي معاشر المسلمين، أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا، فرفع رسول اللَّه ﷺ صوته وقال: « **يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن اللَّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين**

---

(١) ضغطة: قهرًا.

(٢) أجزه لي: أمض لي فعلي ولا أرده عليك واستثنه من القضية.

فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا مع القوم صلحًا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدًا، وإنا لا نغدر». ومشى عمر بن الخطاب إلى جنب أبي جندل وقال له: اصبر واحتسب فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، وجعل يدني قائم السيف منه، قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. قال: فضن الرجل بأبيه.

وقد كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول اللَّه ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول اللَّه ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، فزادهم أمر أبي جندل على ما بهم، ونفذت القضية وشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين، أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد اللَّه بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمود بن مسلمة، وعلي ابن أبي طالب - رضي اللَّه عنهم - ومكرز بن حفص وهو مشرك.

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول اللَّه ﷺ: « **قوموا فانحروا ثم احلقوا** »، فواللَّه ما قام رجل منهم، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فاشتد ذلك عليه، فدخل على أم سلمة فقال: « **هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا** »، وفي رواية: « **ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي** ».

فقالت: يا رسول اللَّه، لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح. يا نبي اللَّه: اخرج، ولا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فجلى اللَّه تعالى عن الناس بأم سلمة.

فقام رسول اللَّه ﷺ فاضطبع[1] بثوبه، فخرج فأخذ الحربة، ويمم هديه، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعًا صوته: « **بسم اللَّه واللَّه أكبر** » ونحر، فتواثب المسلمون إلى الهدي وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض.

---

(١) اضطبع بثوبه: أدخله تحت إبطه اليمنى وألقاه على عاتقه الأيسر.

وروى ابن سعد، عن جابر: فلما فرغ رسول اللَّه ﷺ من نحر البدن، دخل قبة له من أدم حمراء، ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبي، فحلق رأسه. ورمى شعره على شجرة كانت إلى جنبه من سمرة خضراء، فجعل الناس يأخذون الشعر من فوق الشجرة فيتماصونه، وأخذت أم عمارة طاقات من شعره، فكانت تغسلها للمريض، وتسقيه فيبرأ، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وحلق بعض المسلمين وقصر بعض. فأخرج رسول اللَّه ﷺ رأسه من قبته وهو يقول: « **رحم اللَّه المحلقين** » قيل: يا رسول اللَّه والمقصرين قال: « **رحم اللَّه المحلقين** » ثلاثًا، ثم قال: « **والمقصرين** ». وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أنهم قالوا: يا رسول اللَّه ما بال المحلقين ظاهرت عليهم الترحيم؟ قال « **لأنهم لم يشكوا** » رواه البيهقي مرفوعًا [١].

١ - لعل هذا العرض المسهب كله، يستطيع أن يقدم صورة صادقة عن الوضع النفسي، والأزمة العنيفة التي كان يعيشها المسلمون عند تنزل الآيات، وبعد عقد الحديبية، وبالوقوف عند العوامل الرئيسية التي صعدت الأوضاع النفسية لديهم نجد ما يلي:

أ - لقد خرجوا من المدينة وهم لا يشكون في الفتح، وهم يعلمون أن رؤيا رسول اللَّه ﷺ حق، وحين يرى الرؤيا تأتي كفلق الصبح. (والسبب في ذلك ما رواه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة، والبيهقي عن مجاهد، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا: أُري رسول اللَّه ﷺ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه وعرف مع المعرفين[٢])[٣].

ولم يخطر بذهن معظمهم أن هذا الأمر غير واقع هذا العام، خاصة وقد تحركوا على ضوء هذه الرؤيا.

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي: (٥) مقتطفات من (ص ٨٥ - ٩٤).

(٢) عرف مع المعرفين: وقف بعرفات. (٣) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٥).

ب - تصاعد الأحداث النفسية، وأخذ البيعة على الموت، أو على أن لا يفروا فقد عبأت هذه البيعة النفوس وشحنتها إلى أعلى حدود التعبئة، وأصبحت جاهزة للمواجهة، وزادهم ثقة بنصر الله ﷻ وبين يديهم رؤيا رسول الله ﷺ التي تأتي كفلق الصبح.

جـ - الانتقال المفاجئ من هذا الجو المتوتر العالي إلى عملية المصالحة، وليس فيها دخول مكة، وفيها بعض الشروط المجحفة بحق المسلمين - كما يبدو للوهلة الأولى - جعل الصف كله في شبه حالة انهيار كامل، وعواطف مكظومة، ومشاعر مكبوتة.

د - وجاء قدوم أبي جندل بن سهيل ﷺ، ليرفع الجو إلى درجة الانفجار، فهذه أول ثمرة مُرة من ثمار هذه الشروط المجحفة، فأبو جندل يصرخ ويستغيث بالمسلمين: يا معشر المسلمين أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما لقيت؟

وهذا الموقف يعني أنه موقف كل مسلم يفتن ويعذب في سبيل الله، والمسلمون لا يحركون ساكنًا نحوه، وهم غير مضطرين إلى ذلك.

هـ - بالإضافة إلى تمادي سهيل بن عمرو الذي بلغ به التحدي لمشاعر المسلمين تحديًا سافرًا، فهو يقول لحبيبهم ورسولهم عليه الصلاة والسلام: اكتب اسمك واسم أبيك، وهو لا يعترف بالرحمن أبدا. فلم يقبلون هذا الضيم، وهم قد بايعوا جميعًا على الموت؟

٢ - وقد دفع هذا التوتر النفسي إلى موقف عام اشترك به الجيش كله، وهو تلكؤهم عن النحر والحلق، حين وجه رسول الله ﷺ أمره إليهم بذلك، فلعل طارئًا يطرأ، ويعيد المواجهة، وتنتكس القضية، ويلغى الصلح. فكان كل مسلم ينتظر أخاه في ذلك:

وهو الموقف الذي أغم رسول الله ﷺ حتى ليقول لزوجه أم سلمة - رضي الله عنها -: « **ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه، وهم يسمعون كلامي**

وينظرون وجهي؟ » فتجيبه بحكمتها وحصافتها - رضي اللَّه عنها -:

« يا رسول اللَّه لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم، مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح.. ».

لقد لخصت أم سلمة - رضي اللَّه عنها - الموقف تلخيصًا شاملًا حيًّا، استوعب الصورة كاملة. فهذا هو الوضع النفسي للجيش، وهذا هو الذي دفعه إلى هذا التصرف وهو موقف يظهر لأول مرة في التاريخ الإسلامي كله، ولا نستطيع أن نعتبر الموقف يوم الخندق من هذا المستوى، حين دعا عليه الصلاة والسلام المسلمين ليأتي أحدهم بخبر القوم، رغم التلكؤ في ذلك الوقت؛ لأن الأمر يقوم على الطلب والحث والتحضيض، وليس على التعيين، ومن أجل ذلك عندما جاء على التحديد والتعيين لحذيفة ﷺ قال: « فلم يكن لي بد أن أقوم ».

أما الأمر هنا فهو أمر يخص كل جندي في الجيش الإسلامي، ويطالبه بأمر محدد وهو أن يقوم فينحر بدنه ويحلق رأسه، ولا مجال للتأويل، ولهذا الأمر قلنا: إنها صورة لم تظهر قبل الآن ولم تتكرر بعد ذلك، ومن هنا يمكن القول: إن المسلمين كانوا يعانون أعظم حالة من حالات التوتر النفسي، والانهيار المعنوي - مع بنود الصلح - مرت بهم في تاريخهم كله.

لقد كان تاريخهم العام كله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا. وقد يشوب هذه الحالة العامة بعض الحالات الاستثنائية الشاذة، لدى بعض النوعيات المدخولة أو المشبوهة أو الضعيفة، لكنها لا تبلغ أبدًا حالة ما يسمى: (الاستعصاء العام) إلا في هذه الحالة. وأكدت أن الدافع لهذا الموقف ليس أبدًا فكرة معصية رسول اللَّه ﷺ - وإن برزت بهذه الصورة -. والدليل على ذلك سرعة الاستجابة بعد الموقف العملي من رسول اللَّه ﷺ.

إنما كانت هي آمال تراودهم لعل الصلح ينتكس، ويدخل المسلمون مكة. فإذا تم النحر والحلق، فهذا يعني أن الأمل قد انتهى وتحطم.

٣ - **وإذا كان الجيش الإسلامي كله ينظر إلى هذه البنود هذه النظرة، ويعاني من حالة الإحباط المعنوي ما يعاني، ولا يفقه الحكمة وراء الموقف النبوي الحاسم؛ فلا غرو أن تأتي هذه الآيات في الموقف المناسب واللحظة المناسبة لتنصُر رسول اللَّه ﷺ في موقفه، ويأتي الوحي ليؤكد للمسلمين أن الأمر ليس صلحًا يعقد له مبرراته، وتقدم وسائل الدفاع عنه:**

إنما هو فتح مبين يتم، ونصر عزيز يقع، وأعلى مستوى تكريم رباني للنبي عليه الصلاة والسلام يتلقاه بعد هذا الموقف.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح: ٢، ٣].

كانت هذه الآيات هي الجواب الحاسم لهذه النفوس المعبأة، وهي العلاج التربوي لهذا القلق المعنوي العنيف.

(ولقد فرح رسول اللَّه ﷺ بهذه السورة ؛ فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه، فرح بالفتح المبين، وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط اللَّه المستقيم، وفرح بالنصر العزيز الكريم، وفرح برضا اللَّه عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل. وقال في رواية: « **نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها** » وفي رواية: « **لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس** »)[1].

وشعر المسلمون بعظمة هذه المنة على قائدهم عليه الصلاة والسلام فبادروا يهنئونه على ما أنعم اللَّه عليه من الفتح والمغفرة والنصر.

(وروى عبد الرزاق والإمام أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والشيخان والترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم عن أنس ﷺ قال: لما رجعنا من الحديبية قال رسول اللَّه ﷺ: « **أنزلت عليَّ ضحًى آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعًا** » ثلاثًا. قلنا - وفي لفظ - قالوا: هنيئًا مريئًا لك يا رسول اللَّه، قد بين اللَّه

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٣١٧).

لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت - وفي لفظ فنزلت عليه -: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الفتح: ٥] حتى بلغ ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٥])[(١)].

٤ - وحين نقف لتحليل الموقف العام لا بد أن يستوقفنا كثيرًا بعض المواقف الخاصة التي برزت أثناء الصلح من أعظم الشخصيات الإسلامية، وعلى رأسهم الرجل الثاني في الأمة بعد رسول اللَّه ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ والرجل الرابع في الأمة علي بن أبي طالب من سادة المهاجرين، وأسيد بن الحضير سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج.

أ - أما علي ﷺ: فقال رسول اللَّه ﷺ: « **يا علي: امحه** » فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه - وفي لفظ: أمحاك. وفي حديث محمد بن كعب القرظي: فجعل علي يتلكأ، وأبى أن يكتب إلا محمد رسول اللَّه - فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اكتب فإن لك مثلها، تعطيها وأنت مضطهد** ».

ب - سيدا المهاجرين والأنصار: وذكر محمد بن عمر أن أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة أخذا بيد علي ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول اللَّه، وإلا فالسيف بيننا وبينهم، وارتفعت الأصوات، فجعل رسول اللَّه ﷺ يخفضهم، ويومئ بيده إليهم: اسكتوا.

جـ - وموقف عمر ﷺ والذي استفاضت الروايات فيه: فهذا المستوى العالي قد ند منه بعض الكلمات أو بعض التصرفات، وهي تصرفات من طراز معين، لا تبرز إلا عند هذا المعدن النفيس من الرجال، الذين اعتادوا على تقديم حياتهم ثمنًا دون دينهم وكرامتهم، ويأبون الهوان كما بدا في ظاهر الأمر.

قد كانوا على رأس المبايعين على الموت، وكانوا من أشد الناس عندما أحسوا أن شيئًا ما يتم على حساب دينهم وعقيدتهم، وهم غير مضطرين إلى ذلك.

وقد مثل عمر ﷺ هذه الثورة المكبوتة في نفسه، وخرج عن طوره كما عبر

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي (٥/ ٩٧).

فيما بعد ﷺ، لما رواه البزار عن عمر قال: اتهموا الرأي على الدين. فلقد رأيتني أرد أمر رسول اللَّه ﷺ برأيي، وما ألوت عن الحق. قال: فرضي رسول اللَّه ﷺ وأبيت، حتى قال: « **يا عمر، تراني رضيت وتأبى؟** ».

وقد تلقى جواب قائده عليه الصلاة والسلام من قبل:

« **إني عبد اللَّه ولست أعصيه، ولن يضيعني وهو ناصري** ».

وتلقى جواب الصديق ﷺ:

« أيها الرجل إنه رسول اللَّه، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه حتى تموت ».

وتلقى جواب أمين الأمة أبي عبيدة ﷺ:

« ألا تسمع يا ابن الخطاب؟! رسول اللَّه ﷺ يقول ما يقول، تعوذ باللَّه من الشيطان واتهم رأيك ».

٥ - وبعد تحليل الموقف النفسي العام والخاص، نقف لنؤكد عظمة التربية في هذه الأمة:

فأقصى ما بلغته المواجهة للموقف، هو كلمة تند أو تلكؤ يقع، دون أن يحول هذا دون تنفيذ بنود الصلح كاملة.

وقد أذهل هذا الالتزام وفد قريش: (وجعل حويطب يتعجب مما يصنعون، ويقبل على مكرز بن حفص ويقول: ما رأيت أحوط لدينهم من هؤلاء)[1].

ويعلقان على موقف المسلمين من أبي جندل بن سهيل ﷺ: (وصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك المسلمين شرًّا إلى ما بهم وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل. قال: يقول حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص: ما رأيت قومًا قط أشد حبًّا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد، وبعضهم لبعض! أما إني أقول

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٦١١).

لك: لا تأخذ من محمد نصفًا أبدًا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة. فقال مكرز: أنا أرى ذلك)[1].

ويبرز الالتزام كذلك لدى قائد الثورة عمر ﷺ وهو يقول لأبي جندل: « اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك السيف »، فرجوت أن يأخذ السيف ويضرب أباه فضن الرجل بأبيه. فقال عمر: « يا أبا جندل، إن الرجل يقتل أباه في اللّه، واللّه لو أدركنا أباءنا لقتلناهم في اللّه، ورجل برجل »، قال: فأقبل أبو جندل على عمر: « ما لك لا تقتله أنت؟ » قال عمر: « نهاني رسول اللّه ﷺ عن قتله وقتل غيره ». فقال أبو جندل: « ما أنت بأحق بطاعة رسول اللّه مني »[2].

فكلا الرجلين عمليًّا لا يمكن أن يخرجا عن الالتزام التام بموقف قيادتهم النبوية. وحين ننظر إلى شهود القضية، نجد على رأس الشهود عمر ﷺ في موقعه نفسه بعد أبي بكر ﷺ.

٦ - وإذا كانت الأمة الفتية، الأمة الربانية، يبرز بعض الخلل في رجالاتها في ضبط انفعالاتهم ومواجهة العدو كما رأينا من موقف سادة المسلمين الأربعة، فالأمة المتحللة يبرز الخلل في صفها في مواجهة العدو نفسه:

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢ - ٢٥].

وفي الأمة الفتية، الأمة الربانية يكون رفع اليد عن السلاح أثقل وأشد كثيرًا عليها من حمل السلاح، وضبط النفس في تأخير المواجهة مع العدو، أشق بكثير

(١) المغازي للواقدي نفسه (٢/ ٦٠٨).

(٢) المغازي (ص٦٠٩).

من دفعها إلى المواجهة. والالتزام يبدو في قمته يوم تصدر الأوامر بتحمل أذى العدو أكثر مما يرجو منه في مواجهته. انتهى.

وندع الحديث عن الفتح المبين لرسول اللَّه ﷺ والصحابة والتابعين وعلماء الأمة بعدهم:

أ - روى موسى بن عقبة في حديثه عن الزهري، وأخرجه البيهقي عن عروة قال: (أقبل النبي ﷺ راجعًا، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت، وصد هدينا، ورد رسول اللَّه ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه، فبلغه ذلك ﷺ فقال: « **بئس الكلام، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلدهم، ويسألوكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم اللَّه عليهم، وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون باللَّه الظنون؟** » فقال المسلمون: صدق اللَّه ورسوله، هو أعظم الفتوح واللَّه يا نبي اللَّه ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم باللَّه وبأمره منا)[1].

ب - في الصحيح عن البراء ﷺ قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة..)[2].

جـ - روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] قال: (صلح الحديبية الذي قال فيه الزهري: لم يكن في الإسلام فتح قبله أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضع الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضًا، والتقوا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل

---

(١) شرح المواهب للزرقاني (٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي باب غزوة الحديبية حديث (٤١٥٠).

فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر)[١].

د - قال ابن هشام: (ويدل أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف)[٢].

هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤ - ٧].

لا يعرف أحد طبيعة هذه السكينة وبردها على قلبه، مثل الذي يموج قلبه بالاضطراب النفسي والانفعال القلبي، حيث تأتي السكينة فتستل منه هذا الانفعال، وتطفئ هذا الاضطراب.

وعلى سبيل المقابلة:

فما عرف المسلمون قيمة الأمن في أحد، إلا بعد ذلك الغم والكرب: ﴿ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

ومن بعد هذا الكرب العظيم الخانق كان: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] بينما بقي الآخرون يفرقون فيه: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ... ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ونجد الصورة الآن كذلك في أكبر مظاهرها، فبعد أن كادوا ينحرون بعضهم من غمهم لعودتهم عن مكة دون أن يدخلوها، وبعد أن بلغت حميتهم لدينهم

(١) شرح المواهب للزرقاني (٢/ ٢١١).
(٢) شرح المواهب للزرقاني (٢/ ٢١١).

ذلك الحد الأعلى، وهم يرون هذه الشروط المجحفة القاهرة في إعادة من أسلم منهم إلى المشركين، وفي رفض الرحمن الرحيم ومحوهم لرسول اللّه، وغير ذلك - جاء القرآن الكريم فسكب السكينة في قلوبهم، فأصبحوا خلقًا آخر، ومطمئنين لخيرة رسول اللّه ﷺ لهم، واللّه تعالى زكّى هذا الاختيار وقال لهم إنه الفتح المبين. لقد استل ذلك القلق والاضطراب والانفعال، وسكبت فيهم السكينة، فراحوا يسارعون لتهنئة رسول اللّه ﷺ بعد أن هنأه جبريل بذلك.

ويحدثنا سيد قطب - رحمه اللّه - عن هذا المعنى فيقول:

(والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال، والسكينة حين ينزلها اللّه في قلب تكون طمأنينة ويقينًا وثقة، ووقارًا وثباتًا، واستسلامًا ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول اللّه ﷺ بدخول المسجد الحرام، ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام وبعد إشعار الهدي وتقليده، كان هذا أمرًا شاقا على نفوسهم ما في ذلك ريب.

وقد روي عن عمر ﷺ أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج، فكان مما قال له - غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث -: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال أبو بكر - الموصول القلب بقلب رسول اللّه ﷺ، الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول اللّه ﷺ -: بلى، أفأخبرك أنا نأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به. فتركه عمر ﷺ إلى النبي ﷺ، فقال له فيما قال: أولست تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: « **بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟** » قال: لا. قال رسول اللّه ﷺ: « **فإنك آتيه ومطوف به** ». فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب.

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى، من رد من يسلم ويأتي محمدًا بغير إذن وليه، ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم،

وفي رد صفة رسول اللَّه ﷺ. وقد روي أن عليًّا ﷺ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحاها رسول اللَّه ﷺ بنفسه وهو يقول: « **اللَّهم إنك تعلم أني رسولك** ».

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية، ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع، فلم يكن هينًا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. يبدو هذا في تباطئهم بالنحر والحلق، حتى قالها رسول اللَّه ﷺ ثلاثًا، وهم من هم طاعة لأمر رسول اللَّه وامتثالًا، كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي، ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول اللَّه ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول، وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ!

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة، لا ينوون قتالًا، ولم يستعدوا له نفسيًّا ولا عمليًّا، ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان، وبإرسال النفر الذي رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة، فلما عزم رسول اللَّه ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم، ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له، وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها، ومن خلفهم الأعراب والمشركون.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصورة يدرك معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤] ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان اللَّه يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ، وأن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية، لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم، فقد تفضل

عليهم بهذه السكينة: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ ﴾ [الفتح: ٤] والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة، فيها الثقة التي لا تقلق، وفيها الرضى المطمئن باليقين.

ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرًا ولا بعيدًا، بل كان هينًا ويسيرًا على اللَّه لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، فإن للَّه جنودًا لا تحصى ولا تغلب، تدرك النصر، وتحقق الغلب وقتما يشاء: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [الفتح: ٤] فهي حكمته وهو علمه، تسير الأمور وفقهما كما يريد)[١].

فالإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾ [الفتح: ٥].

(أخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، عن أنس ﷺ قال: أنزلت على النبي ﷺ: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]مرجعه من الحديبية فقال: « **لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض** »، ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئًا مريئًا يا رسول اللَّه، قد بين اللَّه لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾)[٢].

بلغ القلق عند عمر ﷺ أن مضى بعيدًا، وتقدم أمام الناس وقال: (وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن)، وكانت أصعب الظروف عنده يوم أن ناداه رسول اللَّه ﷺ، (فرجعت وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء)، وقد راودت هذه الأفكار المسلمين جميعًا، حين تحرجوا في نفوسهم من الصلح، وخالطهم الحزن والكآبة، كما ورد في النصوص الأخرى. وعندما تنزلت هذه الآيات الكريمة على قلب

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣١٨، ٣٣١٩).

(٢) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحي (٥/ ٩٧).

رسول اللَّه ﷺ بتعزيز موقفه، ونصر نبيه فيما أبرم من صلح، وتسميته بالفتح المبين وعدته بالنصر العزيز والمغفرة لذنبه.

أمام هذا كله، وبعد تهنئة المسلمين لنبيهم عليه الصلاة والسلام على ما أعطاه، بقي الخوف والفزع يراودهم أن ينزل القرآن فيهم على الموقف النفسي الذي يحملونه، وعلى التلكؤ الذي بدر منهم بعد الأمر النبوي بالحلق والنحر، فسارعوا للقول - يبحثون عن مصيرهم المخيف - هل هم معاقبون أم قد نالهم العفو الرباني، وبادروا بالسؤال: (هنيئًا مريئًا يا رسول اللَّه، قد بين اللَّه لك ماذا يفعل بك، فما يفعل بنا؟).

إنه سؤال الفزِع الخائف الوجل، الذي ينتظر عقوبةً عدلًا أو عفوًا فضلًا: (وما ذا يفعل بنا؟).

وجاء الجواب الشافي لما في الصدور:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

إنهم يعلمون ذنب التحرج النفسي من أمر اللَّه ورسوله:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

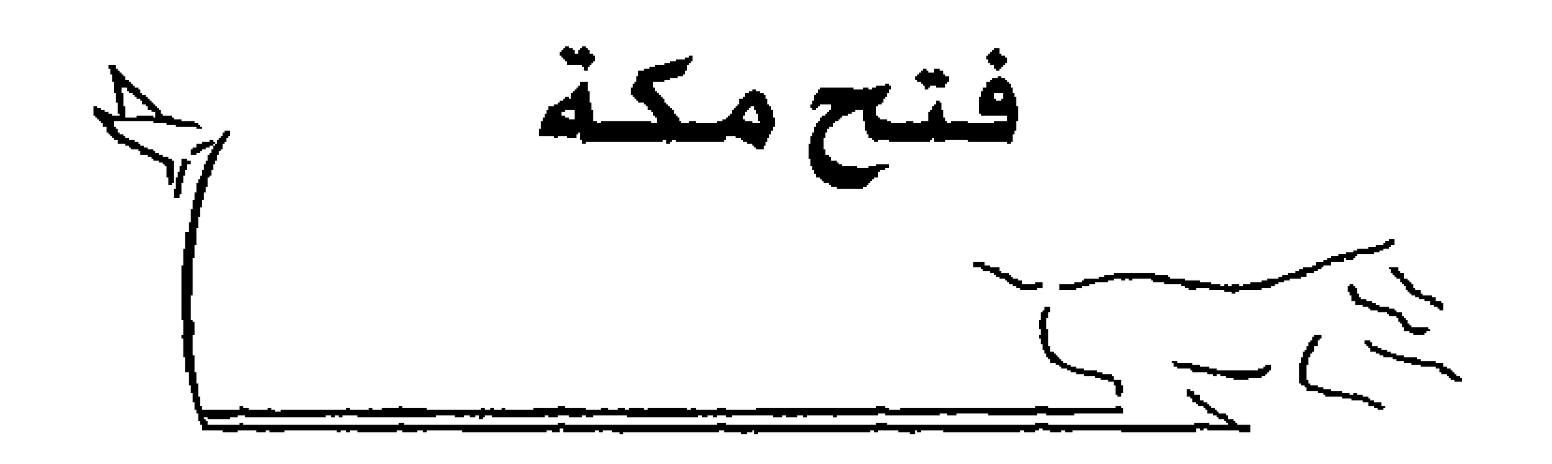
فجاء الشفاء الرباني: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ ﴾ ويسبقها: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

ومن هنا جاءت السكينة، بعد أن اطمأنوا على أنفسهم، واطمأنوا على دعوتهم، واطمأنوا على خطأ موقفهم - وقد غُفر - وعظمة موقف نبيهم الذي هو الفتح المبين وقالوا:

(وصدق اللَّه ورسوله، هو أعظم الفتوح واللَّه يا نبي اللَّه، ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم باللَّه وبالأمور منا).

***

فتح مكة



نقض العهد:

لقد كانت خزاعة طيلة حياتها مع النبي ﷺ، وكانت عيبة نصح له مسلمهم ومشركهم، وانتظرت الفرصة المواتية لتعلن انضمامها للنبي ﷺ في الحديبية، وقد نبت هذا الحلف على حلف جد النبي ﷺ عبد المطلب، وجاؤوا بنص الكتاب إلى رسول اللّه ﷺ: (هذا حلف المطلب بن هاشم لخزاعة، إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي، غائبهم مقر بما قاضى عليه شاهدهم، إن بيننا وبينكم عهود اللّه وعقوده وما لا ينسى أبدًا، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرف ثبير وثبت حراء مكانه، وما بل بحر صوفة، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجددًا أبد الدهر سرمدًا) فقال رسول اللّه ﷺ:

« ما أعرفني بخلقكم وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف، فكل حلف كان في الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا حلف في الإسلام »[1].

ولم يكن دخول بكر مع قريش إلا مضادة لخزاعة لما بينهما من ثارات، والغريب أن قريشًا بكل قياداتها تواطأت على نصر بني بكر وبني كعب بن لؤي، وبني عامر ابن لؤي، والذين وقعوا العقد وشهدوا عليه ساهموا في هذا الغدر، وحسبوا أن محمدًا ﷺ لن يعلم بالأمر، وحضروا منتقبين متنكرين إلا أبا سفيان بن حرب الذي غدا أخبر الناس برسول اللّه ﷺ، فلم يعلم بذلك، أو أعلم ورفض ذلك، وكذلك سهيل بن عمرو، وما كادوا ينتهون من حماقتهم حتى أحسوا بجريمتهم وأسقط في أيديهم، وراحوا يقلبون الأمور لمعالجة الآثار السيئة للموقف المشين.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٠٤).

وبالتغلغل لأعماق المجتمع المكي نلاحظ تضارب الآراء في اتخاذ الموقف المناسب: فسهيل بن عمرو يدعو للتبرؤ من حلف بني بكر ثأرًا لأخواله خزاعة إذ يقول له شيبة: حفظت أخوالك وغضبت لهم. ويُرفض هذا الاقتراح.

وشيبة وعثمان البدري يقول: ندي قتلى خزاعة فهو أهون علينا.

فيقف التيار المتحمس الذي يمثله قرظة بن عبد عمرو ليقول: لا واللّه لا يودون ولا نبرأ من حلف بني نفاثة، ولكننا ننبذ إليه على سواء.

ويواجهه التيار العاقل الذي يمثله أبو سفيان، وذلك بعد معاناته عند قيصر الروم، وكيف أن ملوك بني الأصفر صارت تهاب محمدا ليقول: ليس هذا بشيء، وما الرأي إلا جحد هذا الأمر، أن تكون قريش دخلت في نقض عهد أو قطع مدة، وإن قطعه قوم بغير رضى منا ولا مشورة فما علينا.

وترجَّح هذا الرأي، الذي تم على ضوئه تكليف أبي سفيان بمهمته.

وكان قدوم وفد خزاعة إلى المدينة في تظاهرة دعائية ضخمة، وكانت امتحانًا لقوة هذا الحلف بين رسول اللّه ﷺ وخزاعة، وعلى ضوء هذا الموقف سيكون للقبائل العربية موقف من محمد، فقد أصبحت المواجهة على وشك الوقوع بين الفريقين، ولو مضى الأمر دون ثأر، فسترتفع أسهم قريش عند العرب، والمخبرون موجودون في كل مكان لينقلوا الأخبار والآراء والمواقف، ووفد يضم في أعضائه أربعين راكبًا ويضم الشاعر الفحل الذي قدم هذا الغدر. وكأنه رأي عين، من خلال شعره الذي أنشده في المسجد، وكل ما تم هو قول الرسول ﷺ تلك الكلمة الحاسمة القاطعة: « **نصرت يا عمرو بن سالم** ».

أبو سفيان في المدينة:

وحين نرى ذلك الجو المتفكك المضطرب في قريش، وكيف انتهى رأيهم في إقرار أبي سفيان على رأيه:

(هذا واللّه أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، لا يحمل هذا إلا علي، ولا واللّه ما شوورت فيه، ولا هويته حين بلغني، واللّه ليغزونا محمد إن صدقني ظني، وهو

صادقي، وما بد من أن آتي محمدًا فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد العهد)[1].

وحين نرى شخصية أبي سفيان بكل ذكائه ودهائه؛ يدرك طبيعة مهمته، ويلتقي مع بديل بن ورقاء الخزاعي، ويكشف أنه جاء محمدًا ﷺ حين فت أبعار إبلهم فوجد فيها نوى تمر يثرب فيقول: أحلف باللّه لقد جاء القوم محمدًا، وبذلك يقدم على تصور يؤكد له أن خبر الغدر قد بلغ محمدًا ﷺ، فلا بد له من اتخاذ الحيطة والحذر لتأمين الوصول إلى الهدف.

لم يكن أبو سفيان - في مستوى التخطيط البشري - بأدنى من المسلمين أبدًا، ولكن الشيء الذي لم يستطع أن يصل إلى أبعاده وأعماقه هو طبيعة هذا المجتمع المسلم الذي قام في هذه الأرض، وعظمة هذا المجتمع والولاء فيه للّه ورسوله.

لقد نزل أول ما نزل على ابنته، وهو يحسب أنه دخل إلى قلب بيت النبي ﷺ، ولا غرو أن يزور ابنته، ويتعرف بذلك على كل الأسرار والأخبار للتحركات النبوية، ففي تصوره أن هذا البيت هو بمستوى السفارة له في المدينة، وكيف لا يكون ذلك وفيه ابنته وأقرب الناس إليه.

وكان سيد القادة ﷺ يعرف مَنْ أم حبيبة بنت أبي سفيان، ويعرف حقيقة الإيمان الذي ملأ كيانها - رضي اللّه عنها - فلم يصدر أمره بمنع لقائها مع أبيها خشية أن تلين قناتها معه، أو يهتز بعض قناعاتها من سيد قريش وداهيتها أبي سفيان، حتى لم تمل لنا كتب السِّيَر ولو تحذيرًا بسيطًا لها من هذا اللقاء، وتوعية لها لذلك، فأي ثقة في هذا الوجود أعظم من هذه الثقة؛ أن يرضى عليه الصلاة والسلام في دخول أعدى العدو على بيته، ويلتقي مع زوجه دون حرج؟!

وبين هذين التصورين:

- تصور أبي سفيان الذي سيبذل قصارى جهده، ومنتهى دهائه لاكتشاف كل الأخبار والأسرار من ابنته.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٠٥).

- وتصور الرسول الأعظم ﷺ وثقته بزوجه بحيث تلتقي مع أبيها بكامل حريتها ورأيها.

ماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن خرج أبو سفيان من بيت ابنته محطم النفس، ممتلئ الغيظ، فلم يلق عندها إلا الإهانة حتى لتطوي فراش رسول اللّه ﷺ عنه، وتتجرأ أكثر، فتهاجمه، وتهاجم شركه، وتدعوه إلى الدخول في الإسلام. وكان ارتفاع إيمانها وعظمة ولائها تحتاجان إلى شيء من الكف، حفاظًا على حق والدها عليها، على شركه وعدائه.

هذا النموذج الذي واجهه أبو سفيان منذ الخطوة الأولى في تحركه الدبلوماسي، هو الذي التقى معه في كل خطواته، وفي كل محاولات لقائه مع القيادات الإسلامية، فقد انتهت مهمته عمليًّا منذ لقائه مع رسول اللّه ﷺ:

- يا محمد، إني كنت غائبًا عن صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة.

- **« فلذلك قدمت يا أبا سفيان »**.

- نعم.

- **« هل كان من قبلكم من حدث! »**.

- معاذ اللّه نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل.

- **« فنحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية، ولا نغير ولا نبدل »**[1].

فماذا بقي لأبي سفيان بعد هذا الجواب؟!

كانت المحاولة الثانية أن يلتقي القيادات الإسلامية جميعًا بلا استثناء في محاولة لفتح الأبواب المغلقة، فلو كان الأمر في مكة لبرزت الصراعات والأهواء والعصبيات على أعنف ما يكون، أما هنا فقد فات أبا سفيان أنه يتحرك في مجتمع رباني، صاغه سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) دلائل النبوة (٥/ ١٠).

إن اللّهجة وإن اختلفت مع أبي سفيان عنفًا أو رقةً أو لينًا، لكن المضمون واحد: لا يجير أحد على رسول اللّه ﷺ. التقى القادة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أقرب القرابة وأعدى القرابة، والموقف واحد، والأبواب موصدة.

وكانت **المحاولة الثالثة**، وكانت جرأة نادرة في الحقيقة، أن يقرع باب الأنصار لعله يفتح له مع أسيد بن الحضير أو سعد بن عبادة، ولكن دون جدوى، فهو مجتمع مستعصٍ على الولاء لغير اللّه ورسوله. ولا يجير على رسول اللّه ﷺ أحد، والكل يعرفون هوى رسول اللّه ﷺ فلن يقدم أحد على التفكير في الحوار معه في ما يهواه، عليه الصلاة والسلام.

كل هذا كان يتم دون أجهزة المخابرات ودون المراقبة على الأنفاس، ودون البلاغات المحذرة والمهددة، دون هذا كله، إنه يصطدم بجدار صلب، لا يتفتت، فلم ير كوة واحدة يشهد خيط ضوء منها.

كانت **المحاولة الرابعة** الأجرأ، مع من؟ مع بنت رسول اللّه ﷺ، بعد أن فشل مع ابنته أم حبيبة، فلعل جاه فاطمة عند رسول اللّه ﷺ أعظم من جاه ابنته. فراح يرجوها أن تضع شفاعتها بين يدي أبيها، ويعلم حب أبيها لها. والموقف واحد، وطالب حتى بشفاعة الغلام الصغير الحسن، فلا يرد جاهه عند جده.

وقالت فاطمة: لم يبلغ ابني هذا أن يجير بين الناس.

ولم ينس أبو سفيان - وهو الخبير بكل الأحداث والأشخاص - أن يذكر فاطمة - رضي اللّه عنها - بإجارة أختها زينب لأبي العاص بن الربيع:

- أجيري بين الناس.

- إنما أنا امرأة.

- إن جوارك جائز، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع فأجاز ذلك محمد.

- ذلك إلى رسول اللّه ﷺ! وأبت ذلك عليه.

- مري أحد بنيك يجير بين الناس.

- إنهما صبيان وليس مثلهما يجير[1].

إن أبا سفيان يعلم أنه يجير بين المسلمين أدناهم، ولكن هذا في أمر شخصي، أما الأمر العام فهو لرسول اللَّه ﷺ، ولن يقبل مسلم أن يتحدث في هذا الموضوع - مجرد حديث - بعد أن عزم رسول اللَّه ﷺ على الغزو.

وبعد أن جاب أبو سفيان المدينة كلها ومع كل قياداتها، عاد إلى علي ﷺ ابن عمه فهما من بني عبد مناف، واستنصحه:

- إن الأمور قد اشتدت علي فانصحني.

- واللَّه ما أعلم شيئًا يغني عنك شيئًا، ولكنك سيد بني كنانة.

- صدقت وأنا كذلك.

- فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك.

- أوترى ذلك مغنيًا عني شيئا؟

- لا واللَّه ولكن لا أجد لك غير ذلك.

وقام أبو سفيان وأجار بين الناس ثم دخل على رسول اللَّه ﷺ وقال: يا محمد، إني قد أجرت بين الناس، فقال له: « **أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة** ».

وكان هذا الرد من أعنف الردود عليه، فهو اتفاق من طرف واحد، لم يقره عليه أحد.

ولم يستطع أبو سفيان رغم كل صلاته وعلاقاته أن يعرف شيئًا عن توجه محمد ﷺ، هل سيغزو مكة أم لا؟ ورغم ترجيحه للغزو، فلم يسمع كلمة واحدة في أرجاء المدينة كلها عن ذلك.

وكان الجميع موقفهم هو موقف قائدهم عليه الصلاة والسلام، وهو الذي يظهرون به أمام أبي سفيان، إن لم يكن هناك حدث، فنحن على عهدنا ومدتنا.

---

(١) المغازي للواقدي (٢/٧٩٣).

وفي أقصى حماس المتحمسين وأقصى لين المعتدلين، لم يجد أبو سفيان شيئًا يعطيه دليلًا على ترجيحه للغزو أو عدمه.

فأي مجتمع هذا الذي بناه عليه الصلاة والسلام؟ وأي تربية هذه التي أنشأ بها هذا الجيل إمام المربين عليه الصلاة والسلام؟

وكانت مهمة أبي سفيان قد فشلت فشلًا كاملًا، عبر عن هذا الفشل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان:

(ولقد احتَبست حتى اتهمك قومك فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل).

ولما أخبرها الخبر قالت: قبحت من رسول قوم، فما جئت بخير.

وكان رأي قريش: (رضيت بغير رضى، وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئًا. ولعمر اللَّه ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، ما زاد على أن لعب بك تلعبًا).

وفي الحقيقة، ليس فشل أبي سفيان عن قلة دهاء، أو ندرة ذكاء، أو قلة خبرة، ولكنه فشل أمام الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع، والولاء الكامل، والجندية الخالصة للَّه تعالى ولرسوله.

- **ولن نترك أبا سفيان القائد العام لقريش، فقد حمل العبء كله في مواجهة الرسول** ﷺ، ولم يكن أحد أعمق منه غورًا في التعامل مع الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو الذي خرج ثانية يتحسس الأخبار، خشية أن يغزوهم محمد، وتباد خضراء قريش، وكان القدر أن التقى مع العباس رضي الله عنه في بهيم الليل، وتعارفا من خلال الصوت، وقد راع أبا سفيان تلك النيران التي بمر الظهران وعلى مشارف مكة.

يقول بديل بن ورقاء: هذه واللَّه خزاعة قد خمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

لقد كانت الحرب النفسية التي وجهها عليه الصلاة والسلام ضد قريش -

ضمن خطة محكمة - تهدف إلى سقوط مكة بدون قتال، فكان أن طلب عليه الصلاة والسلام من كل مسلم في الجيش، أن يشعل نارًا في الليل.

فاشتعلت عشرة آلاف نار ومن ذا الذي يطيق هذه المواجهة، مع أنه كان يكفي عشر ذلك للحاجة، ولكنها الحرب النفسية ضمن الخطة النبوية، لتسقط في يد العدو، وييأس من المواجهة.

ومن هذه الحرب النفسية كذلك: حبس أبي سفيان بمضيق الوادي ليرى جنودَ اللَّه حيث تمر كالسيل الجارف لا يقف في وجهها شيء، فلا تسول له نفسه أن يجمع الجموع للمواجهة.

ومن هذه الحرب كذلك: حبسه في رحل العباس حتى الصباح، وإجراء هذا الحوار العظيم معه، ليتخذ الموقف المناسب ويعلن إيمانه باللَّه:

(لقد استنصرت إلهي واستنصرت إلهك، فواللَّه ما لقيتك من مرة إلا نصرت علي، ولو كان إلهي محقًّا وإلهك مبطلًا لقد غلبتك).

بينما تلكأ بالإيمان بمحمد رسول اللَّه ﷺ، فجاءه جواب العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق.

ولكون الإسلام جاء بهذه الصيغة فقد حرص عليه الصلاة والسلام أن يريه جنود اللَّه بمضيق الوادي.

- **لقد كان توجيه الجيش الإسلامي إلى المعركة ذا هدفين واضحين: الأول:** فتح مكة، **والثاني:** فتح القلوب العربية كلها في الطريق من المدينة إلى مكة، والاستعراض العسكري للقوة الإسلامية في الساحة العربية. وكانت التوجيهات:

« من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليحضر رمضان في المدينة ». وبعث رسلًا في كل ناحية حتى قدموا على رسول اللَّه ﷺ.

وكانت أشعارحسان بن ثابت تمثل الحرب الإعلامية المعلنة:

عناني ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي سهيل بن عمرو حرها وعقابها
فلا تأمننا يا ابن أم مجالد[1] إذا احتلبت صرفًا[2] وأعصل[3] نابها
ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها[4]

ومن التوجيهات: السماح بالفطر ابتداءً، والأمر به انتهاءً، ليكون أقوى لهم على مواجهة العدو.

ومن التوجيهات: الأمر بالتجهيز وإعداد العدة الكافية.

ومع كل هذه التوجيهات، فقد بقي الخط العام عدم إعلام المسلمين عن مكان الغزو. والناس لا يدرون أين توجُّه رسول اللَّه ﷺ إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف، فهم يحبون أن يعلموا، فجلس في أصحابه بالعرج وهو يتحدث فقال كعب بن مالك: آتي رسول اللَّه ﷺ، فأعلمكم وجهه، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول اللَّه ﷺ على ركبتيه ثم قال:

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نُسائلها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسًا أو ثقيفا
فلست لحاضر إن لم تروها بساحة داركم منها ألوفا
فننتزع الخيام ببطن وجٍّ ونترك دورهم منهم خلوفا

فتبسم رسول اللَّه ﷺ ولم يزد على ذلك، فجعل الناس يقولون: واللَّه ما بين لك رسول اللَّه شيئًا، ما ندري بم يبدي بقريش أو ثقيف أو هوازن[5].

لقد تربى هذا الجيل على الأدب مع قيادته، وكم كان حريصًا على أن يعرف

---

(١) ابن أم مجالد: عكرمة بن أبي جهل.
(٢) الصرف: اللبن الخالص.
(٣) أعصل: اعوج.
(٤) سبل الهدى والرشاد (٥ / ٣٢١)
(٥) المغازي للواقدي (٥ / ٨٠٢).

أين وجهته في القتال، وتضاربت أبيات حسان مع أبيات كعب، بأيهن يبدأ، حتى لا تنقل الأخبار إلى مكة، وأقصى ما فكر به المسلمون للسؤال هو محاولة كعب هذه، وجاء التبسم هو الجواب، ومضى القوم تحت إمرة قائدهم عليه الصلاة والسلام، ولا يدرون أين يتوجه، وبم يبدأ بل فعل عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك ليزيد الأمر إيهامًا على قريش:

(وبعث رسول اللّه ﷺ أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر إلى بطن إضم[1]، ليظن ظان أن رسول اللّه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار).

وبقيت الخطة النبوية ذاتها منذ ابتداء المسير، حتى وصل القديد فعقد الألوية وجعل الرايات، وحتى هناك لم يعرف أين يتوجه رسول اللّه ﷺ، وهو على بعد أقل من مائة كيلو متر من مكة.

- **في لقاء عمر وأبي سفيان والعباس - رضي اللّه عنهم - وقفة هامة**، فقد كان حرص عمر ﷺ شديدًا على قتل أبي سفيان، كما كان حرص العباس ﷺ على حمايته شديدًا كذلك، وفي سورة الانفعال لم يتمالك العباس ﷺ أن يقول لعمر: (مهلًا يا عمر، فواللّه لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف) وكان من الممكن لهذه الكلمة أن تشكل شجارًا عنيفًا أمام هذا الاتهام الخطير الذي يكيله العباس لعمر ﷺ، والعباس حديث عهد بالإسلام - على الظاهر - فلم يمر عليه ساعات بعد في الصف الإسلامي، وهو يتهم عمر ﷺ بالاندفاع وراء عصبيته لبني عدي، وكان من الممكن لعمر أن يرد الصاع صاعين وهو من هو قدمًا وسابقةً في الإسلام، ولكننا نجد أنفسنا أمام نموذج من الإيمان الخالص ينطق فيقول: (مهلًا يا عباس فواللّه لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. وما بي إلا أن قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول اللّه ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم).

---

(١) بطن إضم: ماء بين مكة واليمامة.

هذه الدرجة العالية من التدرج والاستعلاء على النفس والذات هي التي ميزت الجيل الإسلامي كله، وكان حب رسول اللّه ﷺ فوق حب النفس والمال والأهل والولد والناس أجمعين، ومن حبه - عليه الصلاة والسلام - حب ما يحبه وبغض ما يبغضه.

- ولا يفوتنا أن نقف عند انبهار أبي سفيان بعظمة رسول اللّه ﷺ وهو يتوقع أن يضرب عنقه ولا يكلفه ذلك إلا تحرك شفتيه عليه الصلاة والسلام بذلك. وحيث كان يتوقع الانتقام والثأر والاستعلاء إذ به يواجه بالدعوة إلى اللّه ورسوله قائلًا:

- **« يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا اللّه؟ »**.
- بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك!
- **« يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول اللّه؟! »**.
- بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك!

فهو أمام قمة البشرية التي تركت حرب عشرين عامًا معه، وراحت تدعو هذا العدو اللدود إلى اللّه ورسوله ويعطيه عليه الصلاة والسلام ما يحب من الشرف: **« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن »**، لكن ليس على حساب الدين أو العقيدة فدخول مكة قائم لا محالة.

واستطاع أبو سفيان ﷺ أن يقدم شيئًا لقومه يوم سمع قول سعد: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل اللّه قريشًا)، ولجأ إلى رسول اللّه ﷺ يشكو سعدًا إليه، فنزع الراية من سعد إلى ابنه قيس، وعاد يحذر قريشًا لتغلق عليها أبوابها وعندما يقف القائد العام ليعلن ذلك فهذا يعني الاستسلام التام وإلغاء المقاومة المسلحة، وفتح مكة على مصراعيها للرسول عليه الصلاة والسلام.

وكانت محاولة هند البائسة، في الدعوة إلى قتل زوجها، لدعوته قريشًا للاستسلام، ولم تثن أبا سفيان عن إيضاح الحقيقة: (ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به)، وليست أشعار ضرار بن الخطاب

في استعطاف رسول اللَّه ﷺ بأقل أثرًا من أشعار عمرو بن سالم في استثارة الجو على قريش، وهي التي هيأت الجو لأن تفتح مكة دون أن تثار الأحقاد على قريش، واليوم أعز اللَّه قريشًا، اليوم تعظم الحرمة، اليوم يوم المرحمة.

ولو كان الثأر والتشفي هو الجو السائد، لسالت الأودية بالدماء، إن الهدف هو أن تكون كلمة اللَّه هي العليا، وليس الهدف هو القتل والذبح والإبادة، وقد نهى - عليه الصلاة والسلام - عن القتال، إلا أناسًا بأعيانهم أمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة.

لقد تنقل أبو سفيان من مرحلة إلى مرحلة، حتى وصل إلى إعلان إسلامه واستسلامه، وهو الذي راح بشخصه وعينه يكف رسول اللَّه ﷺ عن مكة ضارعًا راجيًا، بعد أن جاءه في الخندق يستأصل شأفته، فقال له عليه الصلاة السلام: « **وليأتين عليك يوم تدافعني بالراح** ».

وجاء هذا اليوم الذي يدافعه بالراح عن مكة لا بالسلاح، وجاء اليوم الذي يسمع فيه جواب عمر ﷺ عندما سأل وهو يدعي الإسلام: فما أصنع بالعزى. فأجابه عمر من خارج القبة: تخرأ عليها.

وجاء الوقت الذي تكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة، وجاء نصر اللَّه الذي وعد اللَّه به جنده، ليكون بعده الفتح الأعظم لجيل جديد قوامه عشرة آلاف مقاتل.

لقد كان أبو سفيان وهو متجه إلى الخندق بعشرة آلاف مقاتل ليستأصل شأفة رسول اللَّه ﷺ، ويهدد بيوم تقتل فيه الرجال وتبقر فيه النساء يوم فاته أن ينتصر في الخندق، إذ بالآلاف كلها تصبح جند اللَّه، وتهوي إلى مكة، تردد شعار التوحيد، فمَنْ هذه الآلاف العشرة التي تم استعراضها أمام أبي سفيان؟

تكوين الجيش الإسلامي:

- مضى بين الحديبية وفتح مكة سنتان، وقد تكون جيل جديد خلال هاتين السنتين يمثل الطبقة الثالثة بعد أهل بدر وأهل الحديبية، وهم الذين أُطلق عليهم: من أسلم

من قبل الفتح، وجاء القرآن الكريم ليؤكد هذه الطبقة بقوله ﷻ: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠].

وحين نعود إلى كتب التراجم والطبقات نلاحظ هذا التقسيم قائمًا، حتى ليطلق على من أسلم بعد الفتح: المؤلفة قلوبهم، أو على فئة منهم على الأقل.

وإذا كان أهل الحديبية وهم صفوة اللّه من خلقه قد بلغوا ألفًا وأربعمائة، فقد بلغ عدد الذين أسلموا قبل الفتح حوالي عشرة آلاف، وهو عدد ضخم يبلغ خمسة أضعاف العدد السابق.

وحين نرجع إلى السيرة – كما مر معنا من قبل – نلاحظ هذا التوزيع واضحًا على الصورة التالية:

قال محمد بن عمر: (وحدثني سعيد بن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن جده قال: أرسل رسول اللّه ﷺ أسماء بن حارثة وهند بن حارثة إلى أسلم يقولان لهم: إن رسول اللّه يأمركم أن تحضروا رمضان بالمدينة، وأرسل رسول اللّه ﷺ جندبًا ورافعًا ابني مكيث إلى جهينة يأمرهم أن يحضروا رمضان بالمدينة، وأرسل رسول اللّه ﷺ إيماء بن رحضة وأبا رهم كلثوم بن الحصين إلى بني غفار وضمرة، وبعث رسول اللّه إلى أشجع معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود، وبعث إلى مزينة بلال بن الحارث وعبد اللّه بن عمرو المزني، وبعث إلى بني سليم الحجاج بن علاط السلمي ثم البهزي وعرباض بن سارية، وبعث إلى بني كعب بشر بن سفيان وبديل بن ورقاء، فلقيه بنو كعب بقديد وخرج معه من بني كعب من كان معه بالمدينة، وعسكر رسول اللّه ﷺ ببئر أبي عنبة..)[1].

ولو تابعنا الرواية نفسها لوجدنا أعداد كل قبيلة حضروا غزوة الفتح:

(... وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرس، وكانت

(١) المغازي للإمام الواقدي (٢/ ٧٩٩).

الأنصار أربعة آلاف معهم من الخيل خمسمائة، وكانت مزينة ألفًا فيها من الخيل مائة فارس ومائة دارع، وفيها ثلاثة ألوية.. وكانت أسلم أربعمائة فيها ثلاثون فرسًا ولواءان.. وكانت جهينة ثمانمائة معها من الخيل خمسون فرسًا فيها أربعة ألوية.. وكانت بنو كعب بن عمر خمسمائة فيها ثلاثة ألوية... ومن لم يكن خرج معه من المدينة لقيه قومه بقديد.. وخرجت بنو سليم تسعمائة على الخيول والقنا والدروع الظاهرة)[١].

فإذن نلاحظ أن القبائل العربية المجاورة للمدينة هي التي تمثل هذا الجيل الجديد وهي: أشجع، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم، وبنو عدي بن كعب من خزاعة، وهم يمتدون كذلك بين مكة والمدينة.

ولكن الملاحظ كذلك أن هذه القبائل العربية لم تكن ذات وزن ضخم في الأرض العربية، فقد كانت من الدرجة الثانية، وهذا ما يفسر لنا موقف أبي سفيان كلما مرت عليه كتائب القبائل ليقول: ما لي ولمزينة، ما لي ولأشجع، ما لي ولغفار، ما لي ولأسلم، ما لي ولجهينة.

إنها لم تكن مما يؤيه لها من قبل حتى أن غفار كانت تسمى بسراق الحجيج، ولم يكن يخيف أبا سفيان حقيقة إلا الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار الذين كانوا تقريبًا نصف الجيش.

ولتأكيد هذه الفكرة نقف أمام الحديث التالي: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **أرأيتم إن كان جهينة وأسلم وغفار ومزينة خيرًا عند اللَّه من بني أسد ومن بني تميم ومن بني عبد اللَّه بن غطفان ومن بني عامر ابن صعصعة** »، فقال رجل: قد خابوا وخسروا، فقال النبي ﷺ: « **هم خير عند اللَّه من بني تميم ومن بني عامر بن صعصعة ومن بني أسد ومن بني عبد اللَّه ابن غطفان** »[٢].

---

(١) المغازي للإمام الواقدي (٢/ ٨٠٠).

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٨١١)، وإسناده صحيح.

فهذا الحديث النبوي يوضح أن القبائل المعتد بها عند العرب هي هؤلاء الأربعة، ومن في مستواها: تميم وغطفان وأسد وبنو عامر بن صعصعة.. أما هذه القبائل مزينة وجهينة وأسلم وغفار هي في الميزان القبلي أدنى منها، ومن أجل ذلك تم توضيح هذا الأمر للمسلمين حتى لا يأخذوا بهذا الميزان.

وحيث إن العصبية القبلية كانت أضعف لدى هذه القبائل، فكان بالإمكان التفلت منها والانضمام إلى الصف الإسلامي، ووجدنا كثيرًا من أفرادها، قد انضموا في المدينة مع الأنصار يتلقون التربية النبوية منذ الهجرة، وبعضهم كان يعلن إسلامه في قبيلته دون حرج، وقد انتشر الإسلام في هذه القبائل ولم يكن يخشى المسلمون فيهم من سطوة القبيلة عليهم، وحين مر معنا حادث أبي بصير، ولاحظنا أن المئات من أفراد القبائل عادوا إلى قبائلهم ليتابعوا نشر الدعوة هناك، وذلك بعد أمر رسول اللّه ﷺ أبا بصير بالعودة إلى المدينة هو ومن معه.

لقد أتيح لهذا الجيل فرصة كافية كي يتلقى التربية المباشرة على يد النبي ﷺ، وإن كانت ليست تربية يومية كما هو الحال لدى السابقين الأولين، ولكنها بالتأكيد أفضل من تربية جيل مسلمة الفتح، وأصبح كل مسلم ينسلخ من الانتماء لقبيلته لينضم مباشرة إلى الصف الإسلامي، وعندما أصبح العدد وافرًا، انضم كيان القبيلة كله إلى الصف الإسلامي، وعاد أولئك الأفراد ليكونوا على رأس قبائلهم، فهم مهاجرون من جهة وهم أبناء قبائلهم من جهة ثانية، وكان ميثاق الحديبية هو الذي هيأ لهذه الكيانات القبلية أن تنضم إلى الإسلام، فلم تعد تخشى بطش قريش أو رهبتها في الانقضاض عليها.

وحين اقتربت هذه الكيانات القبلية من الصف الإسلامي، وقام المجتمع الإسلامي في داخلها، وأصبح الحكم عليها مثل الحكم على المهاجرين والأنصار يفسر هذا المعنى لنا قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار**

وأشجع موالي ليس لهم مولى دون اللّٰه ورسوله »[1].

وقد لاحظنا أن الرسول ﷺ كان يحرص على البناء القبلي المنصهر في الكيان الإسلامي، فالأنصار الذين بلغوا أربعة آلاف كان فيهم حوالي اثنتا عشرة راية تمثل فروع الأوس والخزرج ولكنهم جميعا من الأنصار، أما المهاجرون فهم الفئة الوحيدة التي ذابت كياناتها القبلية في الصف الإسلامي، وإن كان معظمهم من قريش في ابتداء الأمر، فكانت رايتهم واحدة وقد تصل إلى ثلاث رايات دون توزيع على أساس الانتماء لفروع قريش.

وخلاصة القول: إن الحديث عن أخلاق الحرب في السيرة النبوية يؤكد لنا أن قيمة الفرد والقبيلة في الإسلام مرهون بمدى ما تلقاه من التربية على يد الرسول ﷺ، ومدى ما عاشه في الصف الإسلامي والمجتمع الإسلامي، ومدى قدرته على تمثُّل القيم التي يطرحها الإسلام.

ولكن هذا لا يعني أنه ليس هناك قادة أفذاذ، أو شخصيات نادرة استطاعت الوصول إلى القمة بما تملك من طاقات ومؤهلات وصلاح وتقوى الفاتح الأعظم، فالباب مفتوح لذلك، ولكن هذه النوادر لا تنفي القاعدة المذكورة بل تؤكدها، فالشذوذ دليل على القاعدة.

الفاتح الأعظم:

قادة الفتوح يدخلون دائمًا والغطرسة والكبرياء يملآن كل ذرة من كيانهم، شامخي الأنوف، يكادون يطالون السماء بانتصاراتهم، بل أصحاب المناصب العسكرية والرتب والنياشين - ولو جلبوا العار لأممهم بهزائمهم - يكادون يناطحون السحاب بزهوهم، أما نحن هنا مع سيد ولد آدم ولا فخر، وقد دانت له مكة التي حاربته عشرين عامًا، وأخرجته وآذته وأبعدته، ها هو اليوم يدخلها فاتحًا: (فوضع رأسه متخشعًا، وإن عثنونه ليمس واسطة رحله، تواضعًا للّٰه ﷻ حين رأى ما رأى من فتح اللّٰه تعالى وكثرة المسلمين ثم قال: « **اللّٰهم إن العيش**

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل (٢/ ٨١٠)، وإسناده صحيح.

عيش الآخرة »).

وعلى جنود مدرسة النبوة أن يلتزموا هذا المنهج، ويخروا ساجدين للَّه تعالى على ما رزقهم من نصر، أو كتب على أيديهم من فتوح، وهذا أمر لا نلقاه في عالم الأرض إلا عند الأنبياء وأتباعهم.

اللباس بسيط: عمامة سوداء، قد أرخى طرفها بين كتفيه، على ناقته القصواء، ورايته العقاب، ولواؤه أبيض.

ولكن لا بد أن يشعر العدو أن هذا الجيش، جيش رسول اللَّه ﷺ هو جيش القدر، فلقد قال أبو سفيان قائد قريش ذات يوم: واللَّه لا أومن حتى أرى الخيل تطلع من كداء، وبقيت كلمة تاريخية.

سئل يومها: ما تقول؟ فقال: لا أدري، كلمة ساقها اللَّه على فمي فقلتها، وها هو اليوم يراها بأم عينه، ويطلب رسول اللَّه ﷺ بغرز رايته في كداء في أعلى مكة، ليراها كل أهل مكة.

وعندما أطلق حسان بن ثابت ﷺ أشعاره:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع مطلعها كداء

لا بد أن يعرف أعداء اللَّه تعالى أن جند اللَّه يفعلون ما يقولون، وينفذون ما يقررون، وأن كلامهم يقال ليكون قدرًا قائمًا، لا تبجحًا وصلفًا بلا مضمون، ومن أجل هذا أمر رسول اللَّه ﷺ جيشه فقال: « **ادخلوها من حيث قال حسان** ».

وجاء قدر اللَّه كذلك أن يخرج نسوة مكة متمثلات ببنات ابن عزيز مكة: أبي أُحيحة سعيد بن العاص، وقد نشرن شعورهن يصرخن ويندبن الهزيمة النكراء، ويلطمن وجوه الخيل بخمرهن، ليكون هذا تنفيذًا كذلك لقدر اللَّه ﷻ

ينازعن الأعنة مسرجات ... يلطمهن بالخمر النساء

أما مكان القيادة الذي اختاره وارتاده عليه الصلاة والسلام ليكون موقع قبته، ومقر قيادته، فقد كان موقفًا تاريخيًّا لا بد أن يطوي تاريخ الدعوة كلها بين حافتيه.

هذا الموقع التاريخي هو المكان الذي تحالفت فيه قريش وبنو كنانة على بني المطلب وبني هاشم ألا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، (فصاروا محصورين مضيَّقًا عليهم أشد التضييق نحوًا من ثلاث سنين، وقد قطعوا عنهم المادة والميرة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد)[1].

وفي كلام السهيلي: (كانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من طعام يقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئًا معكم، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به)[2].

هذه المحنة التي تواطأت بها قريش وكنانة على حصار المسلمين ومحاولة إبادتهم، وخططوا لاغتيال رسول اللَّه ﷺ، وحسبوا أنهم قادرون على إطفاء نور اللَّه.

هذا المكان الذي تم فيه هذه العهود هو الذي اختاره رسول اللَّه ﷺ ليكون منزلًا له ومقرًّا لقيادته.

يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري والإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **منزلنا إن شاء اللَّه إذا فتح اللَّه بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر** »[3]. يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول اللَّه ﷺ.

وها هو عليه الصلاة والسلام ينزل في المكان نفسه على رأس الجيش

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٢٥). (٢) السيرة الحلبية (٢/ ٢٦).

(٣) البخاري في الحج، باب نزول النبي ﷺ مكة، حديث (١٥٨٩)، ومسلم في الحج، باب استحباب النزول بالمحصب، حديث (١٣١٤).

الإسلامي المكون من عشرة آلاف مقاتل، وأين أولئك الذين تقاسموا على الكفر؟

قد هلكوا، أو وقفوا الآن قلوبهم واجفة ينتظرون الحكم فيهم ممن حكموا عليه بالإعدام، من محمد عليه الصلاة والسلام.

ومع حرص رسول اللَّه ﷺ ألا تراق قطرة دم واحدة في مكة، لحرمة مكة عنده، ولحفاظه على أرواح بنيها الذين يدخرهم للإسلام، ومع نهيه عن القتال، لكن شاء قدر اللَّه أن تقع المواجهة، وشاء اللَّه تعالى أن تكون بين رفاق الدرب الطويل في مواجهة النبي ﷺ.

لقد كان على رأس التيار المتشدد صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وزوجة القائد العام هند بنت عتبة، وهم يقسمون ألا يدخلها محمد عليهم عنوة أبدًا، أما الذي كان يقود الجيش الإسلامي فهو خالد بن الوليد ﷺ.

إننا حين ننظر إلى إسلام خالد بن الوليد، نلاحظ أن الذين اصطفاهم ليعرض عليهم قصة إسلامه أو التفكير فيه هم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وعثمان بن طلحة.

يقول خالد ﷺ: (فلما أجمعت الخروج إلى رسول اللَّه ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول اللَّه؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس؟[1]، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف، فأبى أشد الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدًا، فافترقا وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترًا وقد قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطوِ ما ذكرت لك، قال: لا أذكره،

---

(١) إنما نحن أكلة رأس: أي تشبعنا رأس واحد لقلتنا. وفي رواية أخرى: إنما نحن بمنزلة ضب في جحر لو ألقى عليه ذنوب ماء لخرج. فهو يشير إلى قلتهم وانحصارهم في مكة بعد النصر الإسلامي.

وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي تخرج إلي فخرجت بها)[١].

وقد استطاع خالد بن الوليد ﷺ الذي أشرق نور الإسلام في قلبه منذ ساعة، أن يحدد سبب إباء رفيقيه عن الإسلام؛ إنه الثأر لآبائهم، وإخوانهم، فعكرمة بن أبي جهل كذلك قتل أبوه في بدر، وهو من ألد العدو، وفرعون هذه الأمة، وبين خالد وعكرمة قرابة قريبة، فكلاهما من بني مخزوم، خالد بن الوليد ابن المغيرة، وعكرمة بن عمرو بن هشام بن المغيرة، وقد أمضوا عمرهم في حرب رسول اللَّه ﷺ.

أقول: شاءت إرادة اللَّه تعالى أن يلتقي الأصدقاء والرفاق وجهًا لوجه، ولكن المستغرب هو انضمام سهيل بن عمرو للمواجهة، وهو من قال فيه عليه الصلاة والسلام: « **أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا** » وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام من بين الكبار في مكة مع ثلاثة آخرين: « **إن في مكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام** » قالوا: ومن هم يا رسول اللَّه؟ قال: « **عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو** »[٢].

والذين انضموا إلى القتال هم فريق من الشباب المتحمس، ولا ننسى دور هند بنت عتبة، ودعوتها قريش لقتل زوجها أبي سفيان، وهو يدعو أهل مكة للاستسلام، وإلقاء السلاح، والدخول في بيوتهم آمنين: (اقتلوا الحميت[٣] الدسم[٤] الأحمس[٥]، قُبح من طليعة قوم).

فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به.

ونحن نعلم هندًا وأنها الموتورة الثائرة، فهي التي قتل أبوها وعمها وأخوها وَبِكْرُها في بدر، وهي التي بقرت عن كبد حمزة ﷺ ولاكته لتبلعه غيظًا وحقدًا

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤٧).
(٢) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٣١).
(٣) الحميت: زق السمن.
(٤) الدسم: الكثير الودك.
(٥) الأحمس: الذي لا خير عنده.

ثم لفظته، وقد غرت الناس عن أنفسهم واستجاب لها فريق من الشباب الذين لم يدركوا حقيقة النصر الإسلامي، وقد مثَّل هذا الحماس حماس بن قيس الذي كان يتغنى ويستخف برأي امرأته:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة هذا سلاح كامل وألّه

وذو غرارين سريع السلة

والذين انضموا مع قريش هم من بني هذيل، الذين لم يجربوا قتال رسول اللَّه ﷺ، ومن بني بكر الذين يرون أنهم مقتولون لو انتصر محمد رسول اللَّه حليف أعدائهم.

وما هي إلا جولة واحدة، وكان القادة الثلاثة يلوذون بالفرار، والجيش الإسلامي يطاردهم، وحماس الذي أراد أن يخدم زوجته أحد المسلمين، قد سقط رعبًا وهو يقول: أغلقي عليَّ بابي، وما يكاد يصدق أنه نجا.

يقابلنا مع هذه الرواية رواية أخرى صحيحة، رواها الإمام مسلم وأحمد والبيهقي عن أبي هريرة، وهي التي دعا فيها رسول اللَّه ﷺ الأنصار وحدهم، فقال لهم: « **انظروا قريشًا وأوباشهم فاحصدوهم حصدًا** » ثم قال بيديه على الأخرى، فانطلقنا فما أحد يوجه إلينا شيئًا، وما منا أحد يريد أحدًا إلا أخذه، فجاء أبو سفيان بن حرب فقال: يا رسول اللَّه أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن** ».

ولا أرى تعارضًا بين الروايتين، فالأمن لمن دخل بيته، وأغلق بابه، وألقى سلاحه، أما الذين يصرون على الحرب والمواجهة، فلا أمن لهم، ولا غرابة أن يطالب بحصدهم من الأنصار؛ سيوف اللَّه تعالى المسلولة، التي لا تعرف هوادة مع أحد...

وشاءت إرادة اللَّه تعالى أن يسقط أربعة وعشرون قتيلًا على أكبر تقدير، ونصفهم على أقل تقدير، وتصبح مكة ساحة خالصة للإسلام والمسلمين.

لئن كان إبليس في بدر قد مضى ذليلًا حقيرًا يوم رأى جبريل يزع الملائكة، وقال: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ورأى تساقط الملأ من قريش قتلى هناك، فلا عجب أن يدعو جنوده وخاصة في الأرض بعد فتح مكة من رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام، فقد احتل مكة منذ عمرو بن لحي الذي أدخل الوثنية إليها، والشرك كذلك، وبقي سيد الموقف في مكة قرابة عدة قرون، فكان دخول مكة انعطافة جديدة في تاريخ البشرية، فأول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين، ومعقل التوحيد في الأرض كان مكة، فإذا إبليس يتسلل فيشخص عمرو بن لحي، ويجعل مكة معقل الشرك والوثنية، وها هو يرى الآن رسول اللَّه ﷺ يستلم زمام مكة، وهذا يعني طرده ودحره، ويرى أن هذا الدحر ليس مؤقتًا، فهو دحر أبدي من مكة:

(ايأسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افشوا فيها - يعني مكة - النوح والشعر).

والتعبير النبوي عن هذا التحول الجديد في التاريخ: « **إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، لكن إن يطع فيما دون ذلك فقد رضي مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم** »[1].

ولهذا كانت أول خطوة تتم عند دخول مكة، هي تحطيم الأوثان والأصنام فيها، لقد طاف عليه الصلاة والسلام قبل عام حول البيت، والأصنام قائمة، ولم يكن يملك سلطة تؤهله لإزالتها. من خلال عهد الحديبية. وكل ما أمكنه أن يرفع شعار التوحيد، والأصنام جاثمة على صدر البيت الحرام، أما الآن فلا بد أن تقتلع الوثنية من جذورها، فقد دخل مكة يوم فتح مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا مرصعة بالرصاص، وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، وفي يد رسول اللَّه ﷺ قوس وقد أخذ بسية القوس، فجعل رسول اللَّه ﷺ كلما مر بصنم يشير إليه ويطعن في عينه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٤).

ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه - وفي لفظ: لقفاه - من غير أن يمسه، وفي ذلك يقول تميم بن أسد الخزاعي:

ففي الأصنام معتبر وعلم لمن يرجو الثواب أو العقابا

وحتى تحقق موعود اللَّه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل على يد سيد خلقه، احتمل الأمر عشرين عامًا وأكثر، والآية: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ ﴾ [الإسراء: ٨١] آية مكية في سورة الإسراء، حقق موعودها بعد عشرة أعوام في فتح مكة، مع أن الإسراء إلى القدس، والمعراج إلى السموات العلا تم منها، وهي تعج بالوثنية.

وهبل الذي نادى أبو سفيان باسمه وهتف بمجده في أحد: (اعل هبل)، ها هو الآن يسقط في الرغام أمام عيني أبي سفيان، ولا يترك الزبير الفرصة تفوت دون أن يكبت أبا سفيان ويذكره بموقفه في أحد، فيجيبه القائد العام لمكة:

دع عنك هذا يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

وصنم قريش الأكبر الذي جعله على ظهر الكعبة ليكون رمزًا لها، ها هو علي ابن أبي طالب ﷺ يعالجه حتى يسقط، وترتفع الآن كلمة التوحيد، وتمرغ كلمة الشرك والوثنية في التراب، وتغدو كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة اللَّه هي العليا.

الكعبة لم تخل من الوثنية، فقد كانت تعج بالصور للملائكة والأنبياء والقديسين، نقلوها عن كنائس النصارى وبيَع اليهود، ولوثوا بها بيت اللَّه الحرام، ولم يدخل عليه الصلاة والسلام الكعبة إلا بعد أن محى كل ما فيها من الصور التي تمثل معالم الوثنية فيها.

يتم هذا كله وقيادات قريش وجيشها تنظر منكسة الرأس، ولا تستطيع أن تفوه بكلمة واحدة، بل حياتها رهن كلمة منه عليه الصلاة والسلام، فقد فتحت مكة،

دونما عقد ولا عهد، ولا شرط، وحقق اللّٰه تعالى رجاء نبيه:

« اللّٰهم خذ العيون والأبصار - أو خذ على أسماعهم وأبصارهم - فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة ».

- « ألا وكل مأثرة ودم في الجاهلية تحت قدمي هاتين، إلا سقاية الحاج وسدانة البيت ».

أما المآثر الخمس فكانت: الرفادة، والسقاية، والحجابة، واللواء، والندوة، وكانت موزعة بين بني هاشم وبين عبد الدار، وكانت هناك مآثر دونها في القبائل الأخرى لا ترقى إلى مستوى هذه.

أما اللواء، فكان لبني عبد الدار، وأين بنو عبد الدار اليوم من عشرات الألوف من أبناء القبائل ليكون اللواء في يدهم، أين تكون الندوة حيث لا يقطع أمر إلا بها، وقد أصبح الإسلام يملأ الأفق والمهاجرون والأنصار أصحاب الكلمة العليا فيه، لقد انتهت الندوة مع هذا الفتح، وكان يمكن أن يكون لها دور عندما كانت خاصة بأمر قريش وحدها، أما الآن فالأمر أكبر وأضخم من ذلك. والرفادة التي كانت لبني هاشم سيعجزون عنها أمام الجحافل الجرارة التي ستأتي كل عام إلى الحج، لقد كان الخطب يسيرًا عندما كان الحجيج عشرات أو مئات أما الآن فمن يقوم بأود إطعام هذا الحجيج كله.

وبقيت السقاية والحجابة؛ أما السقاية، فزمزم التي أخرجها اللّٰه تعالى من جديد على يد عبد المطلب، وتكون مأثرة لأولاده من بعده، لا تزال هي هي حتى الآن تسقي الحجيج، وقد بارك اللّٰه فيها منذ أن أعاد نبعها:

« لا تنزف أبدًا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم » وهي تسقي الحجيج وقد غدا مئات الألوف، واقترب من الملايين.

وأما حجابة البيت، فعالمية البيت من الأزل، وإلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها، فليس أمره أمر الندوة التي تقرر مصير قريش أو اللواء الذي تحمله بنو عبد الدار نيابة عن قريش، بل الأمر أعظم من ذلك، إنه أمر أول بيت وضع

للناس في الأرض لعبادة اللَّه.

وإذا كانت السقاية لم ينازع عليها أحد، فهي بئر أبيهم عبد المطلب، لكن أمر الحجابة قد رأينا أبعاده، من خلال قصة المفتاح الذي كان مع عثمان بن طلحة سيد بني عبد الدار.

ونشير ابتداء إلى أن هذه المأثرة قد انتقلت حكمًا لرسول اللَّه ﷺ منذ أن أعلن عثمان بن طلحة دخوله في الإسلام، وأصبحت ملك المسلمين.

يحدثنا خالد بن الوليد ﷺ عن رفقته مع عثمان بن طلحة إلى المدينة للدخول في الإسلام فيقول: (فأمرت براحلتي تخرج إلى، فخرجت بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لي لصديق ولو ذكرت له ما أريد! ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أذكره. ثم قلت: وما علي وأنا راحل من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج. قال: وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبه، فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفخ مناخة قال: فاتعدت أنا وهو بيأجج، إن سبقني أقام، وإن سبقته أقمت عليه. قال: فأدلجنا سحرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج..)[1].

ويتابع خالد رضوان اللَّه عليه حديثه فيقول: (.. وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول اللَّه ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان)[2].

فقد كان معدن عثمان بن طلحة مثل معدن خالد، وخفق قلبه بالإسلام كما خفق قلب خالد، ولم يعمه ثأره عن الحق، فقد قتل أبوه وأعمامه وإخوانه في أحد، لقد قتل من بني عبد الدار قرابة ثمانية من أبطالهم وقادتهم تحت اللواء، ولم يبق منهم أحد يحمله إلا مولى لهم هو صؤاب غلامهم، أما قتلى بني عبد الدار فكانوا طلحة بن أبي طلحة وأبا شيبة بن أبي طلحة وأبا سعد بن أبي طلحة ثلاثة إخوة، ثم جاء دور الشباب بعدهم: مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، ثم كلاب ابن طلحة

(١، ٢) المغازي للواقدي (٢/ ٧٤٧).

ابن أبي طلحة، ثم الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، ثلاثة أخوة كذلك قتلوا بعد أبيهم وأعمامهم، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل ثم حمله شريح بن قارظ، وأبيدوا جميعًا، لم نر عثمان بن طلحة يتقدم لحمل اللواء، أو غلبه عليه أرطأة ابن شرحبيل ضنًّا به عن القتل بعد مقتل إخوته الثلاثة وأبيه وعميه.

لقد شهد عثمان هذه المشاهد كلها، ولم تكن حاجزًا دون تسلل نور الإيمان إلى قلبه، ومضى يسرع الخطا بعد الحديبية مع خالد بن الوليد ليبايع رسول اللَّه ﷺ على الإسلام، وبدخوله في الإسلام أصبح مفتاح الكعبة ملكًا للمسلمين، وملكًا لرسول اللَّه ﷺ يضعه حيث يشاء.

ويدور الزمن دورته، منذ أن حال عثمان بن طلحة بين رسول اللَّه ﷺ وبين دخول الكعبة، وأغلظ في القول قبل الهجرة ونال منه، واعتبر دعوته للإسلام إهانة له من رسول اللَّه ﷺ إلى أن يرى نفسه بعد الحديبية يهوي على ناقته مع خالد بن الوليد ليبايع على الإسلام. ويذكره عليه الصلاة والسلام بموقفه ذاك.

إنها العبرة تمر، والزمن يمضي، والإسلام يرتفع ويرتفع، وتحسب أم عثمان أن الأمر أمر بني عبد الدار، فتحجز المفتاح في حجزتها قائلة: لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدًا. فقال لها وهو يتحدث عن التحول الجديد في التاريخ: (لا لات ولا عزى، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه، وإنك إن لم تفعلي قتلتُ أنا وأخي، فأنت قتلتينا، فواللَّه لتدفعنه أو ليأتين غيري فيأخذه منك).

وحين راعها صوت الصديق وابن الخطاب، ولا يزال ابن الخطاب في ذهنها كما كان في الجاهلية، يدخل الرعب في القلوب، عادت فسارعت وأعطت المفتاح ابنها عثمان، وذلك خير من أن تأخذه تميم وعدي.

ووصل المفتاح ليد رسول اللَّه ﷺ، وأراد علي بن أبي طالب ﷺ أن تجتمع المآثر كلها بيد بني هاشم، ولم لا، ومنهم رسول اللَّه ﷺ:

إذا افتخرت يومًا قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها

والله اختار رسوله من بني هاشم كما في نص الحديث النبوي، ولكنها إرادة الله تعالى، شاءت أن ينزل من السماء آية تحث على إعادة المفتاح لأهله، بني عبد الدار.

روى ابن عائذ والأزرقي عن ابن جريح - رحمه الله تعالى - أن عليًا ﵁ قال للنبي ﷺ: اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، فدعا عثمان فقال: « **خذوها يا بني شيبة خالدة مخلدة** » وفي لفظ: « **تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم** »[1].

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى، أن يخلد بني شيبة في التاريخ، ويجعلهم سدنة بيته من دون الناس جميعًا، ويعود المفتاح إلى أهله كما كان.

وها قد مر خمسة عشر قرنًا على هذا الأمر ولا يزال المفتاح بيد بني عبد الدار تنفيذًا لحكم الله ﷻ: « **خالدة تالدة إلى يوم القيامة** ». ولو نزع منهم، فلا ينزعه إلا ظالم.

ثم كانت الصلاة في الكعبة وكانت الخطبة الخالدة يوم الفتح. فمن الذي دخل مع رسول الله ﷺ إلى أقدس بيت في هذا الوجود، وهو عز العرب إلى آخر الدهر من لدن إسماعيل عليه الصلاة والسلام؟

دخل معه أسامة بن زيد، مولاه ابن مولاه، وبلال بن رباح العبد الحبشي الأسود، وعثمان بن طلحة سادن البيت، هذا الوفد الذي اختاره عليه الصلاة والسلام ليرافقه في دخول الكعبة من بين عشرة آلاف صحابي، فيهم من أكرم البيوتات العربية، وفيهم قادة العرب وسادتهم، ومع ذلك كان عضوي الوفد العبد والمولى (بلال وأسامة) وسادن البيت عثمان.

وذلك لتحويل الكلام النظري إلى موقف عملي: « **يا أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها لآبائها، كلكم لآدم، وآدم من تراب** » ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

---

(١) تفسير ابن كثير (ص٤٩٨) مجلد واحد.

ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

« يا أيها الناس، الناس رجلان: فبر تقي كريم، وكافر شقي هين على اللّه »(١).

إن تحويل هذه المبادئ إلى واقع عملي حي، له دلالته العظمى في البناء التربوي للأمة، فزيد بن حارثة أبو أسامة يوم شاءت إرادته تعالى أن يلغي التبني من المجتمع الإسلامي، كان التنفيذ العملي برسول اللّه عليه الصلاة والسلام ليكون أول مطبق لهذا الحكم، ويتزوج مطلقة متبناه، ويوم أراد رسول اللّه ﷺ أن يعلن للناس أن الكرامة للتقوى لا للنسب كان رفيقاه إلى عز العرب - الكعبة - بلالًا الحبشي وأسامة بن زيد مولاه، برعاية سادن البيت عثمان، وإقراره ليكون درسًا لبني شيبة كذلك أن يكون البيت لعبادة اللّه، فقريش غيرت دين اللّه يوم ألغت باب الكعبة الثاني ورفعت الباب الأول، حتى تدخل من تشاء، وتمنع من تشاء بما يناسب هواها، لا ما يناسب شريعة اللّه، أما الآن ولو عاد المفتاح لبني عبد الدار من قريش، فعليهم أن يتعاملوا مع عباد اللّه جميعًا بالسواء، وأكرمهم عند اللّه أتقاهم.

والمبدأ الذي حرص عليه الصلاة والسلام أن يعلمه للمسلمين في هذا الاجتماع الحاشد، هو أن اللّه تعالى هو الذي يملك النصر، وجنده إن هم إلا ستار لقدره:

« لا إله إلا اللّه وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ».

ومن خلال هذا المبدأ نفسه سيكون تعامله عليه الصلاة والسلام مع قريش التي حاربته عشرين عامًا أو تزيد، وخرجت تحاد اللّه وتكذب رسوله، وليس الحكم في قريش حكمًا موتورًا ثائرًا، يود أن يثأر لنفسه، إنه حكم رسول رب العالمين، عبد اللّه ومصطفاه من خلقه الذي نصره وهزم أعداءه، ومن هذا المنطلق يتم الحكم.

وتعرف قريش رغم حربها الضروس العنيفة أنها تحارب أشرف مخلوق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥١) مجلد واحد.

في هذا الوجود، تعرف هذا في أعماقها، فقد ربته على يدها وهو صغير، وعاملته حربًا وسلمًا وهو كبير. فهو الأمين عندها قبل البعثة، وهو الفحل الذي لا يقرع أنفه بعد البعثة، وهو الذي قال فيه سيد قريش وبني كنانة بعدما فداه بأبيه وأمه: (ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، وأعظم عفوك). ولهذا لم تجد حرجًا أن تقول له: (نقول خيرًا ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم).

وكما قال عنه علي ﷺ - وهو يدل ابني عمه على طريق الوصول إلى قلب الحبيب المصطفى -: « ائته من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا »، ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٩٢].

لقد عرفت هذه المدرسة النبوية الفريدة في التاريخ والتي لا توجد إلا في معادن الأنبياء.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٠ - ٩٢].

« ما تظنون أني فاعل بكم؟ ».

- نظن خيرًا ونقول خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت.

- **« فإني أقول كما قال أخي يوسف:** ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ **اذهبوا فأنتم الطلقاء »**.

فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

وحتى لا يتحول دخول الناس في الإسلام إلى مأسدة في كل بيت، ومقتلة في كل قبيلة، ومأتم في كل موقع بثارات الجاهلية، فقد صدر الحكم الصارم:

« ألا إن كل ربا في الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ».

ومع هذا الحكم الصادر وما يعتمل في قلب الموتورين الحاقدين الذين يتلمظون للثأر، ويحسبون أن هذه الغلبة دورة من دورات أيام العرب يمكن أن تعود فيها الكرة من جديد، جاء التطبيق العملي الذي يسري على سيد ولد آدم: **« وإن أول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب »**.

وحتى لا ينفلت الناس من آثار مواقفهم، فيلجؤون إلى الالتواء على النصوص، ويقدمون على القتل بغير وسائل القتل المعهودة، جاء الضمان الثاني للدماء: **« ألا وفي قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة، مائة ناقة، أربعون في بطونها أولادها »**.

والنهي عن القتل عامة لكنه في مكة أخص لحرمتها: **« ألا وإن اللّه تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين، فهي حرام بحرام اللّه لم تحل لأحد كان قبلي، ولن تحل لأحد كائن بعدي، لم تحل لي إلا ساعة من نهار »**.

إنها تعليمات صارمة، وكلها موجهة للجيش، كي يكون منضبطًا في تصرفاته، ملتزمًا في سلوكه، والجيش مدجج بالسلاح، خميس عرمرم. فجاءت هذه التعليمات المشددة للحفاظ على الأرواح وبقيت حرمة مكة، وليس فقط للناس فيها، بل للطير والنبات واللقطة: **« لا ينفر صيدها، ولا يختلى[1] خلاها[2]، ولا يعضد[3] عضاهها[4]، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد »**.

وإذا ضمنت حرمة الأنفس، وحرمة الأموال، فلا بد من ضمان حرمة الأعراض كذلك: **« وإن الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر – أي الرجم – ولا يحل لامرأة أن تعطي من مال زوجها إلا بإذن زوجها »**.

وتم إلغاء أخوة العصبية لتحل محلها أخوة العقيدة، وحقوق هذه الأخوة

---

(١) يختلى: يقطع.
(٢) الخلى: الرطب من الحشيش.
(٣) لا يعضد: لا يقطع.
(٤) عضاهها: شجر الشوك.

وتكاليفها: « والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، وهم يرد عليهم أقصاهم، ويعقل عليهم أدناهم، ومشدهم على مضعفهم، ومثريهم على قاعدهم » فالتكافل قائم بين أبناء المجتمع كله، ثمرة لهذه الأخوة.

واختار عليه الصلاة والسلام مجموعة من الأحكام لأهميتها في هذا اللقاء الحاشد لتبليغه للناس، ومعظم هذه الأحكام استثناءات ومنهيات في الميراث والصدقة والبيع والقضاء والنكاح والمرأة والصلاة والصيام واللباس:

- « لا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد بعهده ».
- « ولا جلب[1] ولا جنب[2] ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وأفنيتهم ».
- « ولا تنكح المرأة على خالتها وعلى عمتها ».
- « والبينة على المدعي واليمين على من أنكر ».
- « ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذي محرم ».
- « ولا صلاة بعد الصبح وبعد العصر ».
- « وأنهاكم عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم الفطر ».
- « وعن لبستين، ألا يحتبي[3] أحدكم في ثوب واحد يفضي بعورته إلى السماء، وألا يشتمل الصماء[4] ».
- « كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر في ضحوة من نهار الفتح إلى صلاة العصر منه ».

وحين تقام الحفلات والمهرجانات التي تستمر أياما وليالي وأشهرًا عقب الانتصارات والفتوح، وتقام الولائم الضخمة وتذبح الذبائح لذلك وتكلف

---

(١) لا جلب: أي لا يكلف رب الماشية جلبها إلى البلد ليأخذ الساعي منها الزكاة.

(٢) ولا جنب: أي إذا كانت الماشية في الأفنية فتترك فيها ولا تخرج إلى المرعى فيخرج الساعي إليها.

(٣) الاحتباء: أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشده عليها.

(٤) اشتمال الصماء: أي يجلل جسده كله بكساء أو إزار لا يرفع شيئًا من جوانبه.

الملايين من الأموال، فماذا كانت وليمة سيد الخلق يوم الفتح عند ابنة عمه أم هانئ - رضي اللَّه عنها -؟ لقد كانت كسرة خبز يابسة بللت بالماء، وقليلًا من الخل والملح، (فصبه على الطعام، وأكل منه ثم حمد اللَّه ثم قال: « **نعم الأدم الخل، يا أم هانئ لا يفقر بيت من أدم فيه خل** ».

وحق للبشرية كلها أن تفخر بسيد المهاجرين والفاتحين، وقد أقر عينه كسر الخبز وأدم الخل.

بعد أن أصدر رسول اللَّه ﷺ عفوه وقال لقومه: « ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، **اذهبوا فأنتم الطلقاء** »، لم يذهب هؤلاء ليخططوا في الخفاء على حرب الرسول ﷺ، ويمثلوا شبكات تجسس، وحزب معارضة سري منافق.

لقد رأوا أمام أعينهم كيف تكسر الأصنام وتهوي في الرغام، ورأوا الأرض تموج في الإسلام، فأقبلوا يدخلون في دين اللَّه أفواجًا، (فبايع الناس على الإسلام فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء، فبايعهم على الإيمان باللَّه تعالى وشهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه).

ومن الذي ينظم هؤلاء الناس ليبقيهم على شركهم، لقد فرت قياداتهم واختفت، ورأوا بأم أعينهم عظمة الرسول والرسالة، ورأوا تعظيم الحرمة وتعظيم البيت، ولم تشهد مكة منذ أن وضع البيت فيها مثل هذه الأمواج البشرية بين قائم وقاعد وراكع وساجد وطائف وساع، وكلهم يذكرون اللَّه ويوحدونه، فكيف لا يدخل الناس في هذا الدين؟

والذين يسيطر عليهم الحقد بإمكانهم أن ينزووا في بيوتهم، ولا يتعرض لهم أحد، لكن بعضهم وهو فضالة - وكما يسمع عن قتال العرب - رآها فرصة سانحة أن يتربص بمحمد ويقتله، فهو من بني بكر أعداء محمد ﷺ، وقد رأى كيف أبيح لخزاعة أن تثأر من بكر ساعة من نهار، وأراد اللَّه تعالى به الخير، فنفذت نظرة محمد ﷺ إلى أعماقه، ولم يحر جوابًا وهو يرى رسول اللَّه ﷺ

يسأله: « ماذا كنت تحدث به نفسك؟ » قال: لا شيء، كنت أذكر اللّه، قال: « استغفر اللّه »، وكانت اللمسة النبوية الحانية التي قلبته إنسانًا آخر كما يقول: (واللّه ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق شيء أحب إلي منه)، بعد أن كان أبغض الناس إليه ويهم بقتله والثأر منه، ثم كان أن دعي إلى الحديث مع خليلته، فكان جوابه القاطع:

أيقنت ديـن اللّـه أضحـى بيننـا والشرك يغـشـى وجـهه الإظـلام

إن عظمة هذا الدين وجديته، حين تنال الإنسان من أعماقه، تحيله خلقًا آخر كأنما ولد من جديد، وكما يقول التعبير القرآني الفريد المعجز: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إنها ساعة فقط، وينخلع من جاهليته، ومن الهوى الذي كان محور شخصه، فما بال مسلمينا اليوم حين يتحكم الهوى بأحدهم، نراه يبقى سنين طوالًا حتى يقتلع منه؟!

إن جدية الأمر عند الجيل الأول، أزالت هذا التناقض من حياتهم فهو إما محارب للّه ورسوله، يبذل ماله وأهله وحياته في حرب هذا الدين، وإما مسلم صادق الإسلام، يحارب أهله وإخوانه وأقرب الناس إليه في سبيل اللّه، مع أن الفاصل الزمني قد لا يتجاوز الساعات.

﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣].

هكذا دعي المؤمنون ليفعلوا، واستجابوا، وبهذه المعادن والنماذج أمكن تغيير الأرض من الضلال إلى الهدى، بعد أن كان التغيير في النفوس كاملًا من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة.

وحين ننتقل إلى الحديث عن المعادن، نجدنا مساقين للوقوف أمام هذه القيادات الكبرى في الجاهلية، والتي حملت لواء الحرب الشرسة ضد الإسلام سنوات طوالًا، فتشهد كيف تم تحولها إلى الإسلام.

ولا بد أن نشير إلى أن هذه الظاهرة ظاهرة فريدة في التاريخ، أن ينقلب أعدى العدو، وقيادة الطاغوت، إلى قيادات في الصف الإسلامي تأخذ موقعها مباشرة دون أي فاصل زمني.

قيادات مكة تدخل الإسلام:

(وإذا عدنا إلى هذه القيادات، التي رفضت الهدنة والصلح والاستسلام، نجد أنها محصورة في أربعة نماذج، هي: **هند بنت عتبة زوجة القائد العام، وعكرمة ابن أبي جهل سيد بني مخزوم، وصفوان بن أمية سيد بني جمح، وسهيل بن عمرو سيد بني عامر بن لؤي.**

هؤلاء الأربعة كان لدخولهم في الإسلام دور جديد، جعل مكة كلها معقل الإسلام الثاني بعد المدينة المنورة، ولنقف مع كل واحد منهم على حدة:

- هند بنت عتبة: حتى اللحظة الأخيرة وهي تطالب بقتل زوجها، وتؤلب الناس ضد رسول الله ﷺ، وها هي تحدثنا عن نفسها فتقول - كما روى محمد ابن عمر بسنده عنها -:

(وأنا عاديته كل العداوة، وفعلت يوم أحد ما فعلت من المثلى بعمه وأصحابه، وكلما سيرت قريش مسيرة فأنا معها بنفسي أو معينة لقريش، حتى إني كنت لأعين كل من غزا إلى محمد حتى تجردت من ثيابي).

هذه هند عارية قبل دخولها الإسلام وحتى اللحظات الأخيرة التي أوتي فيها إلى بيتها، مغلقة بابها عليها وقلبها يتنزي حقدًا على الإسلام والمسلمين، وفي هدأة الليل الذي شق سكونه الأصوات المجلجة من البيت الحرام (فلم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا)، وكان أبو سفيان يرى ذلك الوجوم الذي نزل بها فألقى قنبلة ولا يدري أتنفجر عليه أم تقتل براثن الشرك في نفس هند:

(أترين هذا من الله؟ قالت: نعم، هذا من الله).

وبهذا التسلل الخفيف إلى قلب هند كأنما نفذ سهم إلى أحشائها، فأصاب

كبد الشرك في قلبها فنحره.

وتُحدثنا وقد هدَّها الإعياء خلال ليالي الفتح ما ترى كلما أخلدت إلى النوم:

(فرأيت في النوم ثلاث ليال ولاء بعد فتح مكة، رأيت كأني في ظلمة لا أبصر سهلا ولا جبلًا، وأرى تلك الظلمة انفرجت عليَّ بضوء كأنه الشمس، وإذا رسول اللَّه ﷺ يدعوني، ثم رأيت في الليلة الثانية كأني على طريق يدعوني، وإذا هبل عن يميني يدعوني، وإذا إساف عن شمالي يدعوني، وإذا برسول اللَّه ﷺ بين يدي يقول: « **هلمي إلى الطريق** »، ثم رأيت الليلة الثالثة كأني واقفة على شفير جهنم يريدون أن يدفعوني فيها وإذا بهبل يقول: أدخلوها، فألتفت فأنظر رسول اللَّه ﷺ من ورائي آخذًا ثيابي، فتباعدت من شفير النار فلا أرى النار، ففزعت فقلت: ما هذا؟)[1].

إن أعماقها بدأت تناديها بالاتجاه إلى الإسلام، وكانت الأحلام هي المتنفس الوحيد لهذه الأعماق، أما ذاتها العليا وكبرياؤها، فكانت تكبت هذه الأحلام، وتكتم هذه النداءات، لكنها استمرت إلى حد حطمت فيه هذه الذات بكل مظاهرها المشركة الوثنية، وبطبيعتها ومعدنها الذي لا يعرف الازدواجية، والذي لا يستطيع أن يكون إلا عدوًّا لدودًا أو صديقًا حميمًا، لا يستطيع أن يكون إلا كفرًا بواحًا أو إسلامًا بواحًا، بطبيعتها وسجيتها التي لا تعرف التذبذب والخور والغدر، تعرف أن تكون على رأس الموقف الذي تختاره، ما تمالكت في الليلة الثالثة أن حطمت شركها بيدها كما تقول:

(فقلت: ما هذا؟ وقد تبيَّن لي. فغدوت من ساعتي إلى صنم في بيت كنا نجعل عليه منديلًا، فأخذت قدومًا فجعلت أفلذه[2]، وأقول: طالما كنا منك في غرور. وأسلمتُ)[3].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) أفلذه: أقطعه.

(٣) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٨٠، ٣٨١).

وانتظرت انبلاج الصبح فراحت مع نسوة مكة، وهي على رأسهن منتقبة متنكرة، لتحفظ حياتها بالإسلام، قبل أن تقتل مشركة، وكانت من الوضوح والقوة والإيمان الذي غمر كل ذرة في كيانها، تعبر بصراحة وقوة عما في نفسها:

(يا رسول اللَّه، ما كان مما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ من أن يعزوا من أهل خبائك، قال: « **وأيضًا والذي نفسي بيده** »)(١).

ولمعرفة رسول اللَّه ﷺ بطبيعة هذا البيت وطبيعة معدنه، يقسم عليه الصلاة والسلام على أن أحب البيوت أن تعز إليه هي بيت أبي سفيان وهند بنت عتبة بعد أن دخل في الإسلام: « **وأيضًا والذي نفسي بيده** ».

- **وحديثنا عن سيد بني عامر بن لؤي سهيل بن عمرو**، والذي كان رسول اللَّه ﷺ يربأ به عن الشرك، رغم كل ما أبدى من تجهم ومحادة للَّه ورسوله في الحديبية، لقد كان عليه الصلاة والسلام يخبر معدن سهيل بن عمرو منذ أن وقع بين يديه أسيرًا في بدر، ففي الوقت الذي أمر فيه عليه الصلاة والسلام بقتل النضر ابن الحارث، وقتل عقبة بن أبي معيط صبرًا، يأتي إليه عمر ﷺ فيقول:

يا رسول اللَّه، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويَدْلَعُ لسانه، فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن أبدًا. فقال ﷺ: « **لا أمثل فيمثل اللَّه بي وإن كنت نبيًّا** ».

قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قال لعمر في هذا الحديث: « **إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه** »(٢).

وجاء مكرز بن حفص فوضع رجله في القيد، وأفدى سيد قومه بنفسه وقال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب من رأى للقاضي أن يحكمه بعلمه حديث (٦٦٤١) ومسلم في الأقضية، باب فضيلة هند حديث (١٧١٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٤٩، ٦٥٠).

رهنت يدي والمال أيسر من يدي علي ولكني خشيت المخازيا
وقلت سهيل خيرنا فاذهبوا به لأبنائنا حتى ندير الأمانيا

ورغم كل ما أبدى في حلف الحديبية، قال عنه عليه الصلاة والسلام حين رآه: « **لقد سهل اللّه عليكم أمركم، لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت بهذا** ».

وهو نفسه الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام وهو متجه إلى مكة ليفتحها: « **إن بمكة لأربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام** »، قيل: ومن هم يا رسول اللّه؟ قال: « **عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو** ».

ومع ذلك، فقد كان سهيل على رأس المحاربين بعد استسلام مكة مع صفوان وعكرمة، وحين فر من المعركة وأغلق عليه بابه، لم يفعل كما فعل رفيقا دربه، بل كان يطمح بالعفو من خلال ابنه عبد اللّه بن سهيل بن عمرو، وحصل على العفو الكريم الصريح: « **هو آمن بأمان اللّه فليظهر** ».

وعاد عليه الصلاة والسلام ليؤكد الثناء على سهيل رغم حربه له: « **من لقي سهيل بن عمرو فلا يحد في النظر إليه، فلعمري إن سهيلًا له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أن لم يكن بنافع له** ».

لم يكن عليه الصلاة والسلام يلقي كلمات الثناء جزافًا، وحاشاه من ذلك، لقد كان بنفاذ بصره بسهيل وسبره لمعدنه النفيس يعرف فعل هذا الثناء في نفسه، لقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك أعماق سهيل أكثر مما يدركها سهيل نفسه.. وتركه حتى يزيح الغطاء من نفسه، ورأى حقيقة الأمن الذي تمتع به، حتى ليمر به عمر ﷺ فيسلم عليه ويبتسم له، وفاض قلبه بعظمة محمد عليه الصلاة والسلام: (وكان واللّه برًّا صغيرًا وبرا كبيرًا).

وعلى طبيعته وهدوئه، استمر على شركه حتى أسلم بالجعرانة، بعد أن حضر حنينًا مشركًا. ولم يكن لأمنه الذي أخذه حد، ولم يُقبل على الإسلام رهبة من السيف، أو خوفا من العقوبة ولم يؤذ عليه الصلاة والسلام شخصه، بل وجه

جميع المسلمين إلى احترامه - وهو على شركه - ويطلب منهم أن من رآه فلا يحد في النظر إليه، وهكذا يعامل سادات القوم، وتحترم أشخاصهم وإرادتهم، ولا تثلب كرامتهم أو يجرح كبرياؤهم حتى يدخلوا في الإسلام بكامل قناعتهم وعميق إحساسهم.

وهذا سهيل ﷺ الذي رأينا تثاقله عن الإسلام حتى الجعرانة بعد حنين، أين نراه يوم ارتدت الأرض العربية، هل كانت فرصة له لينقض من جديد، ويرتد إلى الشرك بعد إذ أنقذه اللَّه منه، لقد انقض فعلًا ولكن كيف؟

قال ابن هشام: (حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول اللَّه ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول اللَّه ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به وظهر عتاب بن أسيد)[1].

وهذا هو الموقف الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام لعمر: « **عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه** ».

- **أما القائدان الآخران، فكانا صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل**، وكان كلاهما يحمل الأحقاد الموروثة كابرًا عن كابر، فعكرمة هو ابن أبي جهل فرعون هذه الأمة، وقتيل بدر، وأمية بن خلف قتيل بدر، وابنه عَلِيٌّ كذلك. ولذلك بقيا يذودان عن ثأرهما ودينهما حتى آخر لحظة من حياتهما، وعرفا أن لا مقام لهما بمكة، وعكرمة بالذات قد أهدر رسول اللَّه ﷺ دمه، وكان الذي أنقذ صفوان صديق صباه، والذي أنقذ عكرمة شريكة حياته أم حكيم.

ولا ننسى التاريخ المشترك بين عمير بن وهب وصفوان بن أمية، فعمير هو الذي قال لصفوان بعد بدر: (أما واللَّه لولا دَين عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٦٥، ٦٦٦).

علة: ابني أسير بين أيديهم، فاغتنمها صفوان وقال: علي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال: أفعل)[1].

وانتهى عمير بن وهب ﷺ مسلمًا، وقال للحبيب المصطفى صلوات اللّه عليه: (يا رسول اللّه، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور اللّه، شديد الأذى لمن كان على دين اللّه ﷻ. وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى اللّه تعالى، وإلى رسول اللّه ﷺ، وإلى الإسلام، لعل اللّه يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم؟ فأذن له رسول اللّه ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه فحلف ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا)[2].

لقد مضت ستة أعوام، وعمير يتربى على يدي رسول اللّه ﷺ ويجاهد في سبيل اللّه، وصفوان يزداد حنقًا وغيظًا على محمد وصحبه، وعلى صديق صباه وقريبه عمير، ولذلك عندما قال له مولاه يسار: هذا عمير بن وهب، وهو يعرف أن هؤلاء المسلمين يقتلون أباهم وأخاهم وأقرب الناس إليهم في سبيل دينهم، فلم يتمالك أن قال: (وماذا يريد مني عمير، واللّه ما جاء إلا يريد قتلي فقد ظَاهَرَ عَلَيَّ محمدًا)، فهو لم يره بعد مؤامرة الحجر وتبييت قتل النبي ﷺ، ولكن عميرًا كان يكبر صفوان ويعرف له فضله وسيادته في قومه، وبذل جهدًا مضنيًا لإقناع صفوان ﷺ بالعودة إلى مكة، وعداء صفوان الشديد لم يفسح له صدره ولو فسحة أمل بسيطة في إمكانية الأمن له. فهو يرى أن محمدًا لا بد قاتله، ولم يطمئن حتى جاءته علامة واضحة وهي عمامة محمد عليه الصلاة والسلام فيقول له: « انزل أبا وهب ». ويأبى النزول ليتأكد من الأمان، ويبقى على راحلته حتى أخذ أمانًا منه لفترة شهرين مددت لأربعة أشهر.

(١، ٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٢١) وما بعدها.

كان صفوان يحيا الحياة الإسلامية في مكة وبين المسلمين وهو على شركه، وبدأ يحس مرحلة التناقض الضخمة التي تصدع الرأس، ولا تدفعه إلى قرار معين، فالمسلمون حول الحرم قائمون راكعون ساجدون طائفون، وقد دخل الناس جميعًا في الإسلام، وتأبى عليه زعامته وثأره أن ينضوي تحت قيادة محمد ﷺ، رغم حسن معاملته له، ومن أجل ذلك عندما طلب رسول اللّه ﷺ من صفوان مالًا يستقرضه، وأدراعًا يستعيرها، فأخذته النعرة الجاهلية، فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: « **لا، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك** »، قال: ليس بهذا بأس، فأعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح، وأقرضه خمسين ألف درهم[1].

لقد شعر أنه مناط ثقة محمد ﷺ، لكن قيمة المال لم تنقص عنده، فمحمد ﷺ قد استقرض منه واستعار.

وكانت تلك اللحظة، فمحمد عليه الصلاة والسلام، والمسلمون ومعهم صفوان يقاتلون هوازن في حنين، ورضي أن يكون فيها متريثًا بدون قتال.

قال ابن عقبة: (ومر رجل من قريش بصفوان بن أمية. فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فواللّه لا يجبرونها أبدًا، فقال صفوان: أتبشرني بظهور الأعراب، فواللّه لرب من قريش أحب إلي من رب الأعراب.

وغضب صفوان لذلك، وبعث صفوان غلامًا له، فقال: اسمع لمن الشعار، فجاءه فقال: سمعتهم يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بني عبد اللّه، فقال: ظهر محمد، وكان ذلك شعارهم في الحرب)[2].

لقد أحس بذوبان جليد الحقد عن نفسه، وأحس بتعاطف شعوري عميق مع محمد ﷺ، وبعث غلامه وهو في قلق شديد يود أن يعرف لمن الدبرة، ولمن الجولة.

لقد أصبحت الهوة بينه وبين محمد هوة النبوة، أما هوة الحقد فقد ردمت،

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٩٢).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٤٧٣).

فكيف تحطمت هوة الشرك عند صفوان؟

كان ذلك وهما يسيران يتناجيان، فرأى رسول اللّه ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعمًا وشاءً ورعاءً، فأدام النظر إليه ورسول اللّه ﷺ يرمقه فقال: « **يا أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟!** » قال: نعم. قال: « **هو لك بما فيه** ».

وفي لحظة خالدة من لحظات العمر، استعاد فيها نفسه الكريمة الجوادة، ولاحظ المدى الذي يجود فيه، ورأى هذا الشعب كله قد صار له، فقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي.

لقد رأى النبوة رأي عين، وهو يرى معادن الرجال بدون نبوة أين تقف، لكن هذا الجود لا يطيقه بشر، فأسلم وحسن إسلامه..

(يقول معروف بن جرمود: كان صفوان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية، ووصله لهم الإسلام من عشر بطون)[1].

وفي الخط نفسه والأعماق نفسها في النفس يتم الحديث عن عكرمة بن أبي جهل فكلاهما فرَّ إلى اليمن، لكننا نجد أن الهزة الوجدانية قد أزاحت الركام عن نفس عكرمة، وهو على وشك الركوب في البحر.

لقد حدثنا عن أعماق ذاته فقال: (بلغني أن رسول اللّه ﷺ نذر دمي يوم الفتح، وكنت في جمع من قريش بأسفل مكة، وقد ضوى من ضوى، فلقينا هناك خالد بن الوليد فأوقع بنا، فهربت منه أريد - واللّه - أن ألقي بنفسي في البحر، وأموت تائهًا في البلاد قبل أن أدخل في الإسلام).

لقد تقطعت كل الحبال بينه وبين محمد ﷺ، وبينه وبين الإسلام، فدمه مهدور ولم يكتف حتى ألَّبَ الناس لقتال محمد ﷺ.

أما الهزة الوجدانية التي حولت المجرى في أعماقه بعد المجرى السابق، فكانت حين أراد أن يركب البحر (فجعل نوتي يقول له: أخلص أخلص، قال:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٢٤٧) دار الكتب العربية، لبنان.

أي شيء أقول؟ قال: قل: لا إله إلا اللّه. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا!).

ولئن هرب في جسده، فأين يهرب في قلبه، لقد سد الأمر عليه أفق الشرك كله: (قلت: وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواتي! ما الدين إلا ما جاء به محمد، وغيَّر اللّه قلبي).

إنه عرض سينمائي صادق لأعماق ذاته: (وغيَّر اللّه قلبي).

وفي هذه الأثناء، حضر من يقود جسده وشخصه إلى رسول اللّه ﷺ، وينزع كل أفاعي الإصرار على الشرك، أفاعي الذات، والخوف من القتل. لقد زال الحقد في نفس صفوان قبل أن يسلم. وأسلم عكرمة قبل أن تزول عوامل الحقد والخوف من قلبه، وذلك حسب التجربة الشعورية التي مر بها كل واحد منهما، وحسب الظروف التي واجهتهما.

ولئن أنقذ صفوان صديقه الحميم، وخليل صباه عمير بن وهب الجمحي، فقد أنقذ عكرمة بن أبي جهل شريكة عمره، وزوجه الحبيب أم حكيم بنت الحارث بن هاشم، وكانت - كما قال - امرأة لها عقل، وكانت قد اتبعت رسول اللّه ﷺ.

وفي لقائه مع زوجه تم قتل كل أفاعي الذات والأنا عند عكرمة: يا ابن عم جئتك من عند أبر الناس، وأوصل الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك، ووقف لها حتى أدركته، فقالت له: إني قد استأمنت لك رسول اللّه ﷺ فأمنَّك.

لقد كان هذا الجانب هو الذي يرعبه، فلما بلغه الأمان مضى؛ لأن الحواجز بينه وبين دين الإسلام قد سقطت منذ قال له النوتي: قل: لا إله إلا اللّه.

وزادت أعماق هذا الدين في قلبه على الطريق، لقد لامس هناك الإسلام عقله، ها هو الآن يلامس قلبه، فزوجه التي أمضى عمره معها، وما تلكأت لحظة عن طلبه، ها هي الآن غير ذلك: (فجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه وتقول: أنت كافر وأنا مسلمة. فقال: إن أمرًا منعك مني لأمر كبير).

ولكن كيف كان اللقاء بين أعظم البشر وبين عكرمة؟

إن رسول اللَّه ﷺ لا ينسى، وقد لاح عكرمة من بعيد، أنه ابن العدو اللدود له، ابن فرعون هذه الأمة، ابن أبي جهل، لكن أوامره - عليه الصلاة والسلام - وهو يعرف أن كل النفوس معبأة ضد عدو اللَّه أبي جهل، وضد عكرمة، الذي بقي يقاتلهم على خط أبيه حتى آخر لحظة من وجوده في مكة، وفر منهزمًا حتى لا يُسلم - كانت أوامره:

« يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت ».

إننا نعجز في كل ما نملك أن نتحدث - ولو بطرف يسير جدًّا - عن عظمة هذا النبي، وهو يتلقى هؤلاء الأعداء الألداء، ولن يدرك التعبير عن هذا إلا من هو في أفق النبوة، لكننا نتحدث عن أعماق هؤلاء الناس الذين كانوا يتحرقون غيظًا وينزون حقدًا على رسول اللَّه ﷺ.

وقال عليه الصلاة والسلام عنه: « **يأتيكم عكرمة مؤمنًا مهاجرًا** » وذلك قبل أن يلتقي به، فقد أعلمه ربه ذلك، عليه الصلاة والسلام، ولقدوم عكرمة وثب إليه - وما على رسول اللَّه ﷺ رداء - فرحًا بعكرمة.

وكان عكرمة يفجر أنهار الحب والإعجاب في قلبه، وأنهار الإيمان في قلبه وهو يقول: (واللَّه ما دعوت إلا إلى خير، أمر حسن جميل، قد كنت فينا يا رسول اللَّه قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه، وأنت أصدقنا حديثًا، وأبرنا برًّا) ثم قال: (فإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه).

ولم يكتف بذلك، فكيف يسرُّ محمدًا أكثر وأكثر: يا رسول اللَّه علمني خير شيء أقوله... قال: ثم قال: « **تقول: أُشهد اللَّه وأُشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر** » فقال عكرمة ذلك.

وترجم عكرمة ﷺ هذا الكلام واقعًا عمليًّا، فقد كان من قادة الفتوح بعد أن قاد الجيوش ضد المرتدين، وحضر فتح الشام في معارك عديدة، ويروي الطبري بسنده، عن سبب قصة استشهاده باليرموك، فيقول:

(قاتلتُ رسول اللّه في كل موطن، وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايعني على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحة وقتلوا إلا ضرار بن الأزور)[١].

وفي فتح فحل عن الزهري قال: (إن عكرمة بن أبي جهل يومئذ كان أعظم الناس بلاءً، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه، فقيل له: اتق اللّه، وارفق بنفسك، فقال: كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزى فأبذلها لها أفأستبقيها عن اللّه ورسوله؟! لا واللّه أبدًا.

قالوا: فلم يزد إلا إقدامًا حتى قتل رحمه اللّه تعالى)[٢].

لقد كان كفئًا كريمًا في الجاهلية والإسلام، ومثل صورة المعدن النفيس الذي غمرته أوحال الجاهلية، كما تكون المعادن في قلب الأرض، ومنذ أن أزيح هذا الركام عنه تبينت نفاسته وجوهره.

وبصدد الحديث عن عكرمة بن أبي جهل بن هشام، فلا بد من عرض عمه الحارث بن هشام وهما اللذان انتهت إليهما زعامة مخزوم، وهو الذي دخل في جوار أم هانئ، وكما يقول: (فانطلقنا فأقمنا يومين ثم خرجنا إلى منازلنا، فجلسنا بأفنيتها لا يعرض لنا أحد، وكنا نخاف عمر بن الخطاب، فواللّه إني لجالس في عباءة مورسة على بابي ما شعرت إلا بعمر بن الخطاب، فإذا معه عدة من المسلمين فسلم ومضى) والغريب أن يخافه الحارث وهو ابن أخته حنتمة، وهو خاله، لكنه خوف التبكيت والحياء وليس خوف القتل والضرب، فبعد أمان رسول اللّه ﷺ لن يعرض له أحد.

وقد تحول على مستوى تحول ابن أخيه عكرمة، وذلك من خلال معيشته في المجتمع الإسلامي، فقد كان إسلامه وإكباره لمحمد في وقت واحد: (وجعلت أستحيي أن يراني رسول اللّه ﷺ، وأذكر رؤيته إياي في كل موقف

(١، ٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٤ / ٧٢) ط. كتاب الشعب.

مع المشركين - إن الرجال لتستحي من الرجال، وإن الأشراف ليقدرون الأشراف - ثم أذكر بره ورحمته وصلته، فلقيني بالبشر). وكان هذا البشر هو الذي قدم اللمسة الحانية التي مسحت غشاوة الجاهلية عن قلبه وبصره: (فوقفت حتى جئته فسلمت عليه وشهدت بشهادة الحق).

لئن احتاج عكرمة إلى النوتي يذكره باللّه الواحد، واحتاج صفوان للشعب بنعمه وشائه ليدرك من عطائه أنه نبي، واحتاجت هند إلى رؤى متتالية حتى تبين لها الحق، فإن الحارث بن هشام قد كانت بشاشة رسول اللّه ﷺ له وبشره وحفاوته به كفيلين أن يغيروا قلبه كله، وعندما أعلن إسلامه قال له عليه الصلاة والسلام: « **الحمد للّه الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام** ».

قال الحارث: فواللّه ما رأيت مثل الإسلام جميلًا.

ومضى الحارث شهيدًا على خطا ابن أخيه عكرمة، حيث بايعه على الموت، وقتل شهيدًا تحت راية ابن عمه خالد.

ولئن كان عدو اللّه أبو جهل قد دخل أخوه وابنه في الإسلام وطويت صفحة عداء مخزوم للإسلام إلى الأبد لتفتح صفحة جديدة في الذود عن الإسلام، فلا يزال في بني هاشم من لم تلن قناته للإسلام بعد. وحين يذكر العدوان الألدان للإسلام كثيرًا ما يقترنان مع بعضهما وهما أبو جهل وأبو لهب، وقد نزل فيهما قرآن لا يزال يتلى إلى يوم القيامة.

وإن كان جيب أبي جهل قد انتهى، فلا بد أن ينتهي جيب أبي لهب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لعمه العباس: « **أين ابنا اخيك عتبة ومعتب ابني أبي لهب لا أراهما؟** » قلت: تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش، قال: « **ائتني بهما** »، فركبت إليهما بعرنة، فأتيت بهما، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما وبايعا.

لكن رسول اللّه ﷺ يريد لهما أن يكونا في قلب هذا الدين لا على هامشه، وأن يأخذا موقعهما بجوار رسول اللّه ﷺ وفي الصف الأول.

فانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يُرى في

وجهه، فقلت: يا رسول اللَّه، سرك اللَّه إني أرى السرور في وجهك فقال: « **إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي** ».

وبذلك انتهى أبناء أبي لهب وأبي جهل أبطالًا في الصف الإسلامي، فقد كانا بجوار رسول اللَّه ﷺ في حنين يوم فر من فر من الآلاف المؤلفة. وكان بجوارهما ممن ثبت في حنين أبو سفيان بن الحارث، ابن عم رسول اللَّه ﷺ، الذي شهر لسانه في هجاء الرسول عليه الصلاة والسلام طيلة عشرين عامًا، دون كلل. قال عنه عليه الصلاة والسلام في أبلغ تعبير: « **أما ابن عمي فقد هتك عرضي، و أما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال** ».

وهذان قد مضيا ليلقيا رسول اللَّه ﷺ قبل دخول مكة، ويناﻻ شرف الهجرة، وأبى رسول اللَّه ﷺ أن يلقاهما لما يحس من ألم منهما، لكن عليًّا ﷺ هو الذي دلهما على مفتاح قلبه، فقال لهما: ائتياه من قبل وجهه فقولا له ما قال إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا، ففعل أبو سفيان فقال له ﷺ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

وانتقل أبو سفيان بن الحارث ﷺ ليكون من الصف الأول كذلك فهو ابن عمه وأخوه من الرضاعة، كما كان حمزة عمه وأخاه من الرضاعة، ورفعه إلى مقام خاصته فقال له: « **أرجو اللَّه أن تكون خلفًا لي من حمزة** »[1]. ومع هؤلاء: السائب ابن عبد اللَّه، شريك الرسول ﷺ في شبابه.

وبذلك انضم أقرباء الرسول ﷺ جميعًا إلى الإسلام، كما انضم كذلك أبو سيد المسلمين أبي بكر الصديق، أبو قحافة، الذي جاء وأسلم بين يدي رسول اللَّه ﷺ، وأكرمه عليه الصلاة والسلام، فقال له: « **هلا تركت الشيخ في بيته، حتى أكون أنا آتيه فيه** ». وهو إكرام لوزيره الأول عليه الصلاة والسلام في إكرام أبيه، ودخوله في الإسلام.

---

(١) شرح المواهب للزرقاني (٢/ ٣٠٣).

وحين يذكر فتح مكة، لا بد من الوقوف عند النفر الذين أهدر رسول اللّه ﷺ دمهم، ونلاحق أوضاعهم، فيبقون هم أعدى العدو. وأسلم منهم هند بنت عتبة، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، شفع فيه عثمان يوم الفتح؛ لأنه أسلم ثم ارتد، فحقن دمه، وأسلم وحسن إسلامه، ومات وهو ساجد في صلاة الصبح، وهبار بن الأسود، الذي نخس - مع غيره - الناقة بزينب بنت رسول اللّه ﷺ فأسقطت.

ونشهد قصة إسلام هبار بن الأسود كما رواها الواقدي عن جبير بن مطعم قال:

كنت جالسًا مع رسول اللّه ﷺ منصرفه من الجعرانة، فطلع هبار، فقالوا: يا رسول اللّه، هبار بن الأسود، قال: « قد رأيته »، فأراد رجل القيام إليه فأشار إليه أن اجلس، فوقف هبار فقال: السلام عليك يا نبي اللّه، أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدًا رسول اللّه، وقد هربت منك في البلاد، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك، وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول اللّه أهل شرك فهدانا اللّه بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح عن جهلي وعما كان يبلغك عني، فإني مقر بسوء فعلي معترف بذنبي، فقال ﷺ: **« قد عفوت عنك، وقد أحسن اللّه إليك إذ هداك إلى الإسلام، والإسلام يجب ما قبله »**[1].

وكعب بن زهير، وجاء بعد ذلك وأسلم ومدح رسول اللّه ﷺ ببردته المشهورة وكان هؤلاء الثلاثة شعراء قريش، كعب وأبو سفيان، وكان ثالثهم ابن الزبعرى الذي جاء يلقي نفسه بين يدي رسول اللّه وقال له:

يا رسول المليك إن لساني	**راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بور**
إذ أباري الشيطان في سنن الغيِّ	**ومن مال مَيْلَهُ مثبور**
آمَنَ اللحمُ والعظامُ لربِّي	**ثم قلبي الشهيدُ أنت النذير**

لقد انتهى قادة مكة أبطالًا وشعراءَ جنودًا بين يدي النبي ﷺ.

---

(١) شرح المواهب للزرقاني.

وباتت مكة بكل ما فيها مسلمة؛ لأن الآخرين الذين أهدر دمهم قد قتلوا، فعن أنس قال: دخل رسول اللَّه ﷺ مكة يوم الفتح على رأسه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال رسول اللَّه ﷺ: « اقتلوه » رواه الإمام مالك والشيخان.

ولم لا يقتل ابن خطل، وقد ارتد بعد إسلامه، وقتل مولاه المسلم؛ لأنه لم يصنع طعامًا، وهرب إلى مكة، وقال الشعر يهجو به رسول اللَّه ﷺ. وجاريتاه اللتان كان يعلمهما الشعر في هجاء الرسول ﷺ، فأهدر دمهما معه، فنجت إحداهما فأسلمت وقتلت الأخرى.

ومقيس بن صبابة، كان قد أسلم ثم أتى على رجل من الأنصار قد قتل أخاه خطأً فقتله، بعد أن أخذ دية أخيه من قاتله، وخرج إلى مكة مرتدًا يقول:

شفى النفس أن قد مات بالقاع مسندا ... تضرج ثوبيه دماء الأخادع

وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم فتحميني وطاء المضاجع

حللت به وتري وأدركت ثؤرتي ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

ثأرت به فهرًا وحملت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارع

وقتله نميلة بن عبد اللَّه الليثي يوم الفتح.

والحويرث بن منقذ، كان يؤذي رسول اللَّه ﷺ، ونخس - مع غيره - الناقة بزينب بنت رسول اللَّه ﷺ، لما هاجرت إلى المدينة، فبينما هو في منزله قد أغلق عليه بابه، فسأل عنه علي بن أبي طالب ﷺ فقيل: هو بالبادية، فأخبر الحويرث أنه يُطلب فتنحى عَلِيٌّ عن بابه فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقاه علي فضرب عنقه.

ومع انتهاء فتح مكة ودخول الناس في الإسلام طويت صفحة الهجرة والمهاجرين.

فعن عطاء بن أبي رباح - رحمه اللَّه تعالى - قال: زرت عائشة - رضي

اللَّه عنها - مع عبيد بن عمير الليثي، وهي مجاورة بثبير، فسألها عن الهجرة، فقالت: لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى اللَّه ورسوله مخافة أن يفتن عنه، فأما اليوم فقد أظهر اللَّه تعالى الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث كان، ولكن جهاد ونية، رواه الشيخان[1].

وهكذا نجد دخول الناس في دين اللَّه أفواجًا بعد فتح مكة، لينشأ الجيل الأخير من الإسلام؛ جيل ما بعد الفتح، وتنتهي الهجرة معه كما يقول عليه الصلاة والسلام: « **لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا** »[2].

ونسأل أخيرًا: ما هي المخالفات التي تمت في فتح مكة لهذا الجيش القوي الفتي الجديد!

مخالفات في فتح مكة:

إنه عندما يفتح جيش غازٍ مدينة معادية يستبيح أهلها ونساءها وممتلكاتها ودماءها، ويزهق من الأرواح ويسلب من الأموال والأملاك ما لا يحصى، ويظهر مباشرة أن الجندي المحتل هو الحاكم المسيطر، والشعب هو المقهور المستباح، فكيف إذا كان الذي فتح البلدة هو الملاحق المطارد المحارب، وصاحب السيطرة هو العدو المعادي الظالم الغاشم؟

في مثل هذا الموطن تبرز جيوش العقيدة، ويتجلى أثر التربية القرآنية والنبوية في هذا الجيش، أما الأحداث فأربعة فماذا كان الموقف منها:

- طوق أم فروة أخت أبي بكر: (لقيتها الخيل وفي عنقها طوق لها من ورق (فضة)، فاقتطعه إنسان من عنقها.. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد اللَّه والإسلام طوق أختي، فواللَّه ما أجابه أحد. ثم قال الثانية، فما أجابه أحد، فقال: يا أخية، احتسبي طوقك، فواللَّه إن الأمانة اليوم في الناس لقليل).

ورضي اللَّه عن أبي بكر، إذا اعتبر الأمانة في الناس قليلة، لأن عقدًا من فضة

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٨٩).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد (٢٧٨٣).

فقد في احتلال مدينة.

- عن عروة بن الزبير عن عائشة - رضي اللّه عنها - أن امرأة سرقت في عهد رسول اللّه ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم رسول اللّه ﷺ؟ فقيل: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول اللّه ﷺ؟ ففزع قومها إلى أسامة ابن زيد يستشفعون به إلى رسول اللّه ﷺ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول اللّه ﷺ، فقال: « **أتكلمني؟** » وفي لفظ: « **أتشفع في حد من حدود اللّه؟** »، قال أسامة: استغفر لي، فلما كان العشيُّ قام رسول اللّه ﷺ فأثنى على اللّه بما هو أهله ثم قال:

« **أما بعد: فإنما أهلك الناس - وفي لفظ: هلك بنو إسرائيل، وفي لفظ: الذين من قبلكم - أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف - وفي لفظ: الوضيع قطعوه، وفي لفظ: أقاموا عليه الحد.**

فوالذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ». ثم أمر رسول اللّه ﷺ بتلك المرأة، وفي رواية النسائي: « **قم يا بلال، فخذ بيدها فاقطعها** » فحسنت توبتها بعد ذلك. وتزوجت رجلًا من بني سليم، قالت عائشة: فكانت تأتيني فأرفع حاجتها إلى رسول اللّه ﷺ. رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي والبيهقي[١].

وفي الرواية الثانية لمسلم: (أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت)[٢].

فنحن إذن أمام مخالفة قامت بها امرأة من أعرق بيوتات مكة، ومن أعز بيوت قريش، من مخزوم، من قبيلة خالد وعكرمة والحارث بن هشام، القبيلة التي قال عنها أبو جهل: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الرئاسة، أطعموا فأطعمنا، وسقوا

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٨٧).

(٢) روي الحديث بروايات مختلفة واختلاف في لفظ الحديث. رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) وفي الحدود (٦٧٨٨)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، والترمذي في الحدود (١٤٣٠)، والنسائي في قطع السارق (٤٨٩٨)، (٤٨٩٩)، (٤٩٠٢)، وأبو داود في الحدود (٤٣٧٣)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤٧).

فسقينا، فلما تحاذينا على الركب، وصرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، لا والله لا يكون هذا أبدًا).

من بني مخزوم إذن المرأة السارقة، وقطع يدها إهانة لعشيرتها كلها، ولذلك تحركت قريش كلها للاستشفاع لها، وكان الوسيط أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ؛ أسامة بن زيد – الحبيب بن الحبيب – وكانت هذه عملية اختبار لقريش، ومدى المحافظة على سلطانها في ظل محمد ﷺ، فهو ابنها البار، فهل ستجلس على رقاب الناس به، وهل تسود المحسوبية والزعامة فوق العقيدة كما يخطر ببالهم، أن النصر نصر قريش على العرب.

وجاء جواب رسول الله ﷺ حاسمًا جازمًا قاطعًا، لا يقبل التردد: « **والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** ». فليس في حدود الله كبير، ولو كانت سيدة نساء العالمين، وأحب الناس إلى قلب رسول رب العالمين، فلا بد من تنفيذ الحد عليها.

وحتى تأخذ القضية أعظم أبعادها في أذهان الجيش كله، وفي أذهان قريش، كان المكلف بالقطع بلال بن رباح، العبد الأسود الذي كان قبل قليل يؤذن على ظهر الكعبة بقدميه السوداوين، والذي كان قبل سنوات خلت يجرجر على رمضاء مكة، ويلعب بالحبل في عنقه غلمان مكة، لأنه أعلن كلمة التوحيد، ها هو الآن الوزير التنفيذي المسؤول عن قطع يد المرأة المخزومية.

وبهذا الحد الذي تم تنفيذه، تم استئصال الظلم أن يقع في ظل الإسلام، تحت أي ستار وباسم أي قناع، فلا شفاعة في حد من حدود الله.

وهلاك الأمم:

« **إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** ».

وإذا نجا من سرق عقد أخت أبي بكر، فلأنه لم يعرف، أما وقد عرف وضبط بالجرم المشهود، فلا شفاعة ولا محسوبية:

« **والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** ».

- هذا حد السرقة، وأما حد الخمر:

(فقد روى ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن الأزهر ﷺ قال: رأيت رسول اللّه ﷺ عام الفتح - وأنا غلام شاب - ينزل عند منزل خالد بن الوليد، وأتي بشارب فأمرهم فضربوه بما في أيديهم، فمنهم من ضربه بالسوط، وبالنعل، وبالعصا وحثا رسول اللّه ﷺ التراب)[١].

- وكانت مخالفة القتل:

(لما كان بعد الفتح بيوم دخل جنيدب بن الأدلع الهذلي مكة يرتاد وينظر والناس آمنون، فرآه جندب بن الأعجم الأسلمي فقال: جنيدب بن الأدلع قاتل أحمر بأسا؟ قال: نعم فمه، فخرج يستجيش عليه حيه، فكان من أول من لقي خراش بن أمية الكعبي فأخبره، فاشتمل خراش على السيف ثم أقبل إليه والناس حوله، وهو يحدثهم عن قتل أحمر بأسا. فبينا هم مجتمعون إذ أقبل خراش بن أمية فقال: هكذا عَنِ الرجل، فواللّه ما ظن الناس إلا أنه يفرج الناس عنه لينصرفوا، فانفرجوا، فحمل عليه خراش بن أمية بالسيف فطعنه في بطنه، وإن عينيه لتزنقان في رأسه، وهو يقول: فعلتموها يا معشر خزاعة، فانجعف فوقع فمات، فسمع رسول اللّه ﷺ بذلك فقال: « **يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل، لقد قتلتم قتيلًا لَأَدِيَنَّهُ، إن خراشًا لقتال** - يعيبه بذلك - **لو كنت قاتلًا مؤمنًا بكافر لقتلت خراشًا** »[٢].

ولكن هذا الأمر لا يعالج بمواجهة فردية فقط، فقد خطب عليه الصلاة والسلام في اليوم الثاني للفتح من أجل هذا الموضوع بالذات، فقال - بعد أن ركب راحلته وحمد اللّه وأثنى عليه -:

« **أيها الناس، إن اللّه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ويوم خلق الشمس**

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٢٠٨).

(٢) المغازي للواقدي (٢/ ٢٧١) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٥٦) والحديث بروايات مختلفة رواه أبو داود كتاب الديات، باب ولي العمد يرضى بالدية حديث (٤٥٠٤) وأحمد في مسنده (١٥٩٤٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٨٤).

والقمر ووضع هذين الجبلين، ولم يحرمها الناس، فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولم تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قاتل فيها فقولوا له: إن الله تعالى قد أحلها لرسول الله ﷺ ولم يحلها لكم.

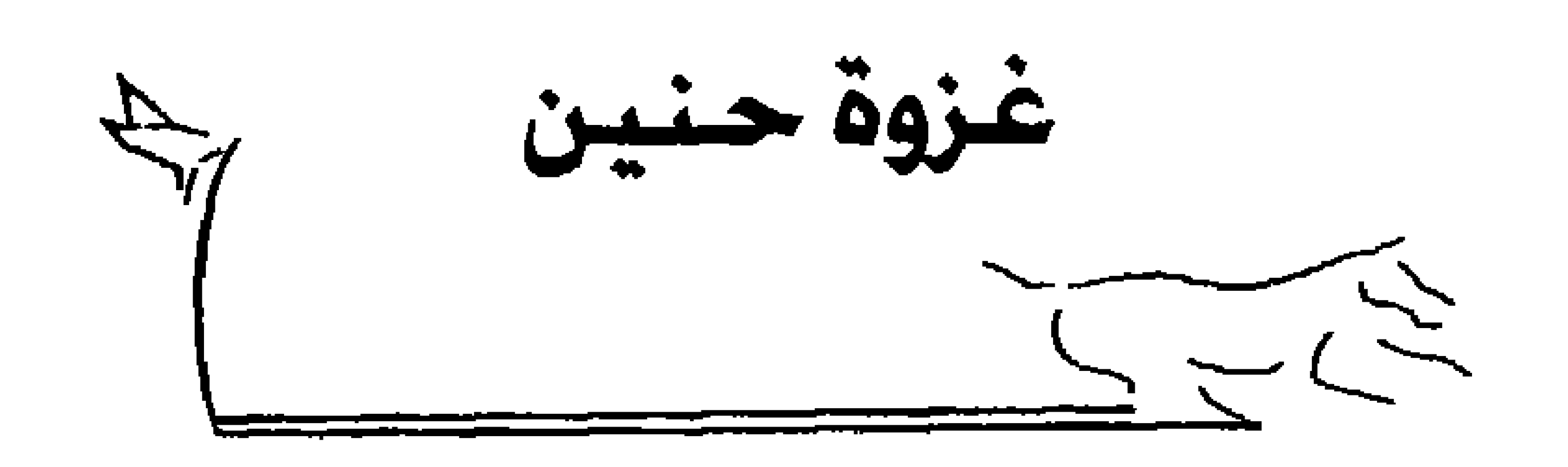
أيها الناس إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية. يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد والله كثر إن نفع، فقد قتلتم قتيلًا لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا فقتله».

ثم ودى رسول الله ﷺ هذا الرجل الذي قتلته خزاعة، قال ابن هشام: مائة ناقة. وقال ابن هشام: وبلغني أنه أول قتيل وداه رسول الله ﷺ.

وهكذا أقيمت الحدود، ودفعت الدية، وتمت العقوبة على المخالفات. ورأى الجيش كله كيف تسود شريعة الله تعالى فوق كل اعتبار.

***

غزوة حنين



﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

الذين ثبتوا معه:

ونظرة فاحصة في هؤلاء الذين ثبتوا معه: **أربعة، وتسعة، واثنا عشر، وثمانون ومائة:**

أما الأربعة، فمن الرعيل الأول: علي ﷺ، وعبد اللَّه بن مسعود، ومن جيل الفتح الجديد: العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث.

أما العباس: فهو خليفة أبي طالب أخيه، الذي ربط حياته بحياة ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام منذ اللحظات الأولى، سواء كان ظاهرًا على الشرك أو مسلمًا يخفي إسلامه، لكن نصره لابن أخيه أمر لم يتغير لحظة واحدة في حياته، ويكفي أنه حضر معه أخطر بيعة في الإسلام بيعة العقبة الأخيرة، وكان الناطق باسم النبي ﷺ.

- أما الرمز الثاني: فكان أبا سفيان بن الحارث: حيث انتقل من ألد الأعداء إلى واحد من أربعة، يذود عن رسول اللَّه ﷺ، ويفديه بروحه ودمه.

قال محمد بن عمر: حدثني سعيد بن مسلم بن قمادين، عن عبد الرحمن ابن سابط وغيره قال: كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول اللَّه ﷺ من الرضاعة أرضعته حليمة أيامًا، وكان يألف رسول اللَّه ﷺ، وكان له تربًا. فلما بُعث رسول اللَّه ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط، ولم يكن دخل الشعب، وهجا رسول اللَّه ﷺ وهجا أصحابه، وهجا حسانًا.

فقال المسلمون لحسان: اهجه! قال: لا أفعل حتى أستأذن رسول اللَّه ﷺ، فقال: « كيف آذن لك في ابن عمي أخي أبي؟ » قال: أسلك منه كما تسل الشعرة من العجين، فقال حسان شعرًا، وأمره أن يذاكر أبا بكر الصديق ؓ ببعض ذلك فذاكره، فمكث أبو سفيان عشرين سنة عدوا لرسول اللَّه ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول اللَّه ﷺ، ثم إن اللَّه ألقى في قلبه الإسلام.

قال أبو سفيان: فخرجت معه وقد جمعت العرب جمعًا لم يجمع مثله قط، وخرجوا بالنساء والذرية والماشية، فلما لقيتهم قلت: اليوم يرى أثري إن شاء اللَّه، ولما لقيتهم حملوا الحملة التي ذكر اللَّه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وثبت رسول اللَّه ﷺ على بغلته الشهباء، وجرد سيفه، فأقتحم عن فرسي وبيدي السيف صلتًا، قد كسرت جفنه واللَّه أعلم أني أريد الموت دونه وهو ينظر إليّ، فأخذ العباس بن عبد المطلب بلجام البغلة، فأخذت بالجانب الآخر. فقال: « من هذا؟ » فذهبت أكشف المغفر فقال العباس: يا رسول اللَّه، أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث فارضَ عنه، أي رسول اللَّه! قال: « **قد فعلت، فغفر اللَّه له كل عداوة عادانيها** »! فأقبل رجله في الركاب، ثم التفت إليَّ فقال: « **أخي لعمري** »، ثم أمر العباس فقال: « **ناد يا أصحاب البقرة، يا أصحاب السمرة يوم الحديبية! يا للمهاجرين، يا للأنصار، يا للخزرج** » فأجابوا: لبيك داعي اللَّه! وكروا كرة رجل واحد قد حطموا الجفون، وشرعوا الرماح، وخفضوا عوالي الأسنة، وأرقلوا إرقال الفحول، فرأيتني وإني لأخاف على رسول اللَّه ﷺ شروع رماحهم حتى أحدقوا برسول اللَّه ﷺ، وقال لي رسول اللَّه ﷺ: « **تقدم فضارب القوم** »، فحملت حملة أزالتهم عن موضعهم، وتبعني رسول اللَّه ﷺ قدمًا في نحور القوم، ما نالوا ما تقدم.

فما قامت لهم قائمة حتى طردتهم قدر فرسخ. وتفرقوا في كل وجه، وبعث رسول اللَّه ﷺ نفرًا من أصحابه على الطلب، فبعث خالد بن الوليد على وجه، وبعث عمرو بن العاص في وجه، وبعث أبا عامر الأشعري إلى عسكر بأوطاس

فقتل، وقتل أبو موسى قاتله[١].

هـذا الـوافد الجديد هـو الذي انضم فكان أحـد الأربعة الذين ثبتوا مع رسول اللَّه ﷺ، وهو الذي محا عداوة عشرين عامًا بهذا الثبات العظيم. حتى ليقول فيه عليه الصلاة والسلام: « **إني لأرجو أن يكون لي فيك خلفًا من عمي حمزة** »[٢].

أما التسعة، فهم آل بيت رسول اللَّه ﷺ، فإضافة إلى الأربعة السابقين: ربيعة بن الحارث أخو أبي سفيان المذكور، وجعفر بن أبي سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن أخوه وقتل يومئذ.

أما الاثنا عشر، فمن أهل بيته - عليه الصلاة والسلام - إضافة إلى التسعة الباقين:

عتبة ومعتب ابنا أبي لهب، ونوفل بن الحارث، وفي رواية يضاف إليهما: عقيل بن أبي طالب.

ومن أهل مكة: شيبة بن عثمان الحجبي - العبدري.

ومـن المهاجرين: الخلفاء الأربعة، كمـا روى البزار عـن أنس ﷺ: أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ضُرب كل واحد منهما يومئذ بضع عشرة ضربة، وابن مسعود.

ومن الأنصار: أبو دجانة، وحارثة بن النعمان، وسعد بن عبادة، وأبو بشير المازني، وأسيد بن الحضير.

ومن نساء الأنصار: أم سليم بنت ملحان، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم الحارث جدة عمارة بن غزية، وأم سليط بنت عبيد.

قال محمد بن عمر: يقال: إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين

---

(١) المغازي للواقدي (٢/ ٨١٠). وهناك رواية أخرى ساقها الواقدي عن إسلام أبي سفيان قبل فتح مكة، وهي التي رواها ابن إسحاق وهي أثبت وأصح، لكن ليس فيها التفصيلات المذكورة.

(٢) المغازي للواقدي (٣/ ٩٠٠، ٩٠١).

وسبعة وستون من الأنصار.

قال محمد بن عمر: يقال: إن رسول اللَّه ﷺ لما انكشف الناس عنه يوم حنين، قال لحارثة: « **يا حارثة، كم ترى الناس الذين ثبتوا؟** » قال: فما التفت ورائي تحرجًا، فنظرت عن يميني وعن شمالي فحزرتهم مائة. فقلت: يا رسول اللَّه هم مائة. فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مررت على النبي ﷺ وهو يناجي جبريل عند المسجد، فقال جبريل: يا محمد من هذا؟ قال: « **حارثة بن النعمان** » فقال جبريل: هو أحد المائة الصابرة يوم حنين لو سلم لرددت عليه، فأخبر رسول اللَّه ﷺ حارثة، فقال: ما كنت أظنه إلا دحية الكلبي واقفًا معك[1].

وإذا كان أبو سفيان بن الحارث أحد الأربعة، وقد تهيأ للإسلام قبيل فتح مكة، فلم نبعد وعندنا شيبة بن عثمان، أحد الاثني عشر، وهو ابن الإسلام لتوِّه؟ نستمع إليه يحدثنا بقصته: (لما رأيت رسول اللَّه ﷺ غزا مكة فظفر بها، وخرج إلى هوازن قلت: أخرج لعلي أدرك ثأري! وذكرت قتل أبي يوم أحد قتله حمزة، وعمي قتله علي، فلما انهزم أصحابه جئته عن يمينه، فإذا العباس قائم، عليه درع بيضاء كالفضة ينكشف عنها العجاج، فقلت: عمه لن يخذله، ثم جئته عن يساره فإذا بأبي سفيان ابن عمه، فقلت: ابن عمه لن يخذله! فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره[2] بالسيف إذ رفع ما بيني وبينه شواظ من نار كأنه برق وخفت أن يمحشني، ووضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، والتفت إليَّ فقال: « **يا شيب، ادن مني!** » فوضع يده على صدري، وقال: « **اللَّهم أذهب عنه الشيطان** »! قال: فرفعت إليه رأسي وهو أحب إليَّ من سمعي وبصري وقلبي، ثم قال: « **يا شيب، قاتل الكفار** » قال: فتقدمت بين يديه أحب واللَّه أقيه بنفسي وبكل شيء، فلما انهزمت هوازن رجع إلى منزله، ودخلت عليه فقال: « **الحمد للَّه الذي أراد بك خيرًا مما أردت** »، ثم حدثني بما هممت به)[3].

---

(١) المغازي للواقدي (٣/ ٩٠٠، ٩٠١).

(٢) أسوره: أي أعلوه.

(٣) المغازي للواقدي (٣/ ٩١١).

إن هذه النماذج التي ثبتت مع رسول اللَّه ﷺ من أهل بيته، ولأول مرة، تبرز في معركة لتشي بعمق التحول عندها، بحيث تمثل أصالة بني هاشم الذين اصطفاهم اللَّه تعالى من كنانة، وأنهم عندما نوَّر الإسلام قلوبهم، وأتيح لهم أن يكونوا في ساحة المعركة ضد المشركين، كانوا على قدم صدق مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واختصروا الزمن كله والذي بلغ عشرين عامًا، ليكونوا على مصاف الصفوة الأولى التي تلقت التربية منذ فجر الإسلام.

والحقيقة أن الإسلام الذي يدخل إلى القلب ويمتزج به، ويكون له أرضية خصبة، وخلفية جيدة، يمكن أن يحقق التحول العجيب الذي يلف الزمن في أحشائه، ويرفع المستوى الإيماني إلى الذروة، وهو غير الصورة البطيئة التي يتسلل الإيمان فيها إلى العقل خطوة خطوة، فيسير وئيدًا مع الزمن، وفي كثير من الأحيان نجد أن، شدة العداوة التي تنطلق من قناعة فكرية عميقة، عندما تتخلخل في هذه القناعة وتنهار ويحل محلها الإيمان، يكون الوافد الجديد من القوة والصلابة والفدائية على مستوى ذلك العداء، وهو ما رأيناه واضحًا من نموذجي أبي سفيان وشيبة.

والجهاد هو المعمل العجيب العظيم الذي تتفاعل داخل أفرانه كل مستويات النفوس، ويعطي من الطاقات أضعاف ما يعطيه الكلام والقناعة الفكرية الباردة.

والتربية الجهادية إذن تؤهل المعادن النفيسة إلى أن تبرز بجواهرها ولآلئها على التو، كما تبرز المعادن الخسيسة من خلالها كذلك.

وإنا في الحقيقة لنعجب من ثبات هذه الحفنة القليلة من أهل بيت رسول اللَّه ﷺ وفرار عدد ليس بالقليل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

نجد هنا أهمية انتساب رسول اللَّه ﷺ إلى جده عبد المطلب، وهذه الحفنة العظيمة كلها منه: العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس، أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ربيعة

ابن الحارث بن عبد المطلب، جعفر بن أبي سفيان، عقيل بن أبي طالب، علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب، عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، معتب ابن أبي لهب بن عبد المطلب، فقد كانوا جميعًا من هذه الأرومة الكريمة، وذلك عندما كانت المواجهة المباشرة خارج قريش، ومع القبائل العربية العريقة، كان بنو عبد المطلب جميعًا تحت راية سيدهم رسول اللّٰه ﷺ، وكانوا يفدونه بالأرواح والمهج، ومصدقيه برسالته.

« أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب ».

ولا عجب أن نرى **المائة الصابرة، أو الثمانين الصابرة**، حول رسول اللّٰه ﷺ من الصفوة المختارة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لكن العجب كذلك أن نرى بينهم تلك النماذج النسائية الخالدة، التي ما هلع فؤادها، ولا طار قلبها، في الوقت الذي هلعت قلوب الأبطال، وطارت فيه أفئدة الرجال.

روى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد ومسلم عن أنس ﷺ قال: اتخذت أم سليم خنجرًا أيام حنين، فكان معها فلقي أبو طلحة -زوجها- أم سليم ومعها الخنجر، فقال أبو طلحة: ما هذا؟ قالت: إن دنا مني بعض المشركين أبعج به بطنه، فقال أبو طلحة: أما تسمع يا رسول اللّٰه ما تقول أم سليم؟ فضحك رسول اللّٰه ﷺ، فقالت: يا رسول اللّٰه، أُقتل من يعدونا من الطلقاء، انهزموا عنك، فقال: « **إن اللّٰه تعالى قد كفى وأحسن يا أم سليم** »[1].

وروى محمد بن عمر عن عمارة بن غزية قال: قالت أم عمارة: لما كان يوم حنين والناس منهزمون في كل وجه، وكنا أربع نسوة، وفي يدي سيف لي صارم وأم سليم معها خنجر قد حزمته في وسطها، وإنها يومئذ لحامل بعبد اللّٰه ابن أبي طلحة، وأم سليط وأم الحارث.

قال شيوخ محمد بن عمر: فجعلت أم عمارة تصيح: يا للأنصار، أية عادة هذه ما لكم والفرار؟ قالت: وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٨٦).

لواء يوضع جمله في إثر المسلمين، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل، فوقع على عجزه، وأشد عليه، ولم أزل أضربه حتى أثبته، وأخذت سيفًا له، ورسول اللّه ﷺ قائم مصلت السيف بيده وقد طرح غمده ينادي « **يا أصحاب سورة البقرة** »، فكثر الأنصار، ووقفت هوازن قدر حلب ناقة فتوح[1]، ثم كانت إياها، فواللّهِ ما رأيت هزيمة قط كانت مثلها، وقد ذهبوا في كل وجه، فرجع إليَّ أبنائي جميعًا: خبيب وعبيد اللّه أبناء زيد بأسارى مكتفين، فأقوم إليه من الغيظ فأضرب عنق واحد منهم، وجعل الناس يأتون بالأسارى، فرأيت في بني مازن وبني النجار ثلاثين أسيرًا، وكان المسلمون بلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كروا بعد وتراجعوا، فأسهم لهم رسول اللّه ﷺ جميعًا، وكانت أم الحارث الأنصارية آخذة بخطام جمل الحارث زوجها، وكان يسمى المجسار فقال: يا حارث، أتترك رسول اللّه ﷺ والناس يولون منهزمين؟! وهي لا تفارقه، فقالت: مَر عليَّ عمر بن الخطاب فقلت: يا عمر، ما هذا؟ قال: أمر اللّه تعالى[2].

وحين تقع المحنة وتشتد الأزمات، تستدعى القاعدة الصلبة لتأدية مهمتها، وإثبات دورها، ومن بين الآلاف المؤلفة التي دعاها الرسول ﷺ لمرة واحدة: (فجعل رسول اللّه ﷺ يقول: « **يا عباد اللّه، أنا عبد اللّه ورسوله، أيها الناس، إني أنا عبد اللّه ورسوله** »).

وراح يخصص النداء بعدها إلى الصفوة المختارة، التي أثبتت في كل محنة أنها أهل للمواجهة ففي رواية مسلم: « **يا عباس، ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة** ».

فكان النداء في التخصيص الأول إلى الأنصار عامة، ثم النداء في التخصيص الثاني إلى أصحاب السمرة، إلى جيل الحديبية، أكرم الأجيال على اللّه، ومن ضمنهم جيل بدر.. إنه نداء إلى الذين بايعوا على الموت، وبايعوا على ألا يفروا، وتذكير بتلك البيعة التي رضي اللّه عن المؤمنين بها، والتي عاهدوا

---

(١) ناقة فتوح: واسعة الإحليل.

(٢) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٨٧).

اللّه فيها، والفرار نكث، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، إنه نداء موجه إلى أولئك الألف والأربعمائة من الاثني عشر ألفًا، لأنهم هم الذين رضي اللّه عنهم في بيعتهم وعهدهم، وهم الجيل الفذ في البشرية الذي يستدعى في حالة الأزمات ليلبي النداء.

وكيف كانت الاستجابة للنداء النبوي الخالد؟؟!!

(فقلت بأعلى صوتي: أين الأنصار؟ أين أصحاب السمرة؟ أين أصحاب سورة البقرة).

قال: (واللّه لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها)[1].

وفي الرواية الثانية عند البغوي والبيهقي: « **يا عباس، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آووا ونصروا** »[2] فالمهاجرون والأنصار هم أصحاب القضية المعنيون بهذا الدين، وهم الذين ترعرعوا عليه ورضعوا من لبانه، وتغلغل في حنايا قلوبهم، وحشايا صدورهم، وامتزج بدمائهم وأرواحهم، ومن أجل ذلك ما إن تناهى لسمعهم النداء، حتى مضوا نحوه بفطرتهم.

(فما شبهت عطفة الأنصار على رسول اللّه ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها، حتى تُرِك رسول اللّه ﷺ كأنه في حرجة، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول اللّه ﷺ من رماح الكفار، فقالوا: يا لبيك يا لبيك يا لبيك. قال: فيذهب الرجل يثني بعيره ولا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين - كما ذكره أبو عمر بن عبد اللّه - فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره فيخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول اللّه ﷺ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا هم والكفار)[3].

لقد أصبح حب رسول اللّه ﷺ في أعماقهم أحب إليهم من أنفسهم

---

(١) مسلم (ح ٧٦ - ١٧٧٥).

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٣) المرجع السابق.

وأبكارهم وأزواجهم، عطفة البقر على أولادها، أو عطفة الإبل على أولادها، يؤمُّون نحو الصوت.

ثم كان التخصيص الرابع بعد المهاجرين والأنصار وأصحاب السمرة على الخزرج: (ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، وكانوا صبرًا عند الحرب، وأشرف رسول اللَّه ﷺ في ركابيه، فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمتطاول عليهم إلى قتالهم فقال رسول اللَّه ﷺ: « **هذا حين حمي الوطيس** »[1].

إن عودة المائة الصابرة، أو ثبات الثمانين الصابرة، هو الذي أعاد الحرب السافرة بين الفريقين، وعوضًا من أن يلوذ الجميع بالفرار، كانوا يلوذون برسول اللَّه ﷺ ويأوون إليه، وكانت الأعداد في ازدياد، والمعركة محتدمة، والدماء تنفجر أنهارًا، ولبى الخزرج النداء، ولم تأت الدعوة فقط من رسول اللَّه ﷺ للثبات، فقد جاءت كذلك من القيادات العظيمة للأوس والخزرج:

(روى محمد بن عمر عن محمد بن عبد اللَّه بن أبي صعصعة: أن سعد ابن عبادة جعل يصيح يومئذ: يا للخزرج، ثلاثًا، وأسيد بن الحضير يصيح: يا للأوس، ثلاثًا، فثابوا من كل ناحية كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها)[2].

والمرجح من الروايات أن ثمانين على الأقل من المهاجرين والأنصار بما فيهم الحفنة الهاشمية من أهل بيت رسول اللَّه ﷺ، لم يولوا الأدبار، قد يكونون نكصوا على الخلف أو تراجعوا قليلًا، لكنهم لم ينهزموا أو يتراجعوا، وباكتمالهم للمائة عادوا فكرُّوا على العدو، ثم بدأت الأعداد تتزايد حتى بلغت الألف، وذلك حين بدأ تراجع الكفار وانهزامهم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث (١٧٧٥).

(٢) المغازي للواقدي (٣/ ٩٠٤).

وقفات مع الغزوة:

ونقف بعض الوقفات أمام هذه الغزوة، بعد عرضها القرآني، وتتبع جزئياته للطريقة القرآنية في التربية:

١ - **لقد كان جيل الفتح قد حضر فتح مكة**، وهو الذي تكون من القبائل المجاورة، وتحدثنا عنه بما فيه الكفاية من قبل، وأكدنا أن أول تجربة جهادية خاضها هي غزوة حنين؛ لأن فتح مكة قد تم بدون قتال إلا ساعة من نهار مع إحدى فرق الجيش الإسلامي التي كان يقودها خالد بن الوليد ﷺ.

٢ - **وها هو جيل جديد ينضم، جيل ما بعد الفتح**، قوامه ابتداءً ألفان من الطلقاء من أهل مكة، وهؤلاء انضموا إلى الجيش ولم يدخلوا الإسلام بعد، إنما انضموا حمية قبلية رجاء انتصار محمد ﷺ القرشي على هوازن ومن معها من القبائل.

ولم تكن عواطفهم جميعًا موحدة، فبعضهم كان يطلب غرة ليغتال رسول اللَّه ﷺ، وبعضهم كان يحب هزيمة محمد لما يحمل عليه في قلبه من الضغن، ولعل ما ذكرناه عن شيبة بن عثمان يؤكد هذا المعنى، كما تؤكده الرواية الصريحة التالية عن النضير بن الحارث:

(قال محمد بن عمر: حدثنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري عن أبيه قال: كان النضير من أحلم قريش، وكان يقول: الحمد للَّه الذي أكرمنا بالإسلام، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء - فذكر حديثًا، ثم قال:

خرجت مع قوم من قريش، هم على دينهم - بعد - أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير، فلما تراءت الفئتان ونحن في حيز المشركين، حملت هوازن حملة واحدة، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدًا، ونحن معهم، وأنا أريد بمحمد ما أريد، وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه، فأقبلت عامدًا إليه، فصاحوا بي: إليك،

فأرعب فؤادي، وأرعدت جوارحي، قلت: هذا مثل يوم بدر، إن الرجل لعلى حق، وإنه لمعصوم، وأدخل اللَّه تعالى في قلبي الإسلام، وغيَّر عما كنت أهم به، فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول اللَّه ﷺ كرة صادقة، وتنادت الأنصار بينها الكرة بعد الفرة: يا للخزرج، يا للخزرج، فحطمونا حطامًا، فرقوا شملنا، وتشتت أمرنا، وهمت كل رجل نفسه، فتنحيت في غبرات الناس، حتى هبطت بعض أودية أوطاس. فكمنت في خمر شجرة لا يهتدي إليَّ أحد إلا أن يدله اللَّه تعالى علي، فكمنت فيه أيامًا ما يفارقني الرعب مما رأيت...)[1].

٣ - وهذا الجيل هو الذي كان أسرع الناس في الهرب عندما وقع الهجوم الشرس، ففي رواية أنس:

(فانكشفت أوائل الخيل: خيل بني سليم مولية، وتبعهم أهل مكة، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه).

(وذكر كثير من أهل المغازي: أن المسلمين لما نزلوا وادي حنين تقدمهم كثير ممن لا خبرة لهم بالحرب - وغالبهم من شبان أهل مكة - فخرجت عليهم الكتائب من كل جهة، فحملوا حملة رجل واحد والمسلمون غارون، فر من فر، وبلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كروا بعد).

وهذا ما حدا بأم سليم - رضي اللَّه عنها - أن تطالب بقتلهم - كما في رواية مسلم وأحمد وابن أبي شيبة -.. فقالت: يا رسول اللَّه، أقتل من يعدونا من الطلقاء، انهزموا عنك، فقال: « **إن اللَّه كفى وأحسن يا أم سليم** ».

لقد كفى اللَّه تعالى المؤمنين القتال فلم يكن إلا حلب ناقة حتى هزم القوم وجيء بهم أسارى إلى رسول اللَّه ﷺ.

لقد شاءت إرادة اللَّه تعالى أن تشارك جند اللَّه في هزيمة الكفار، هذه الجند من كف الحصباء ومن الملائكة، ومن الرعب الذي زلزل قلوبهم، نتيجة هذين الجندين.

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٤٧٤).

٤ - وكل الروايات التي وردت عن رؤية الملائكة، تؤكد أن الكفار هم الذين رأوهم، وهم الذين حالوا بينهم وبين رسول اللَّه ﷺ، وهم الذين أوقعوا الرعب في صفوفهم، أما المؤمنون فلم تأت رواية تثبت أنهم رأوا الملائكة.

كان لا بد لهذا الجيل الجديد من معجزات يشهدها، وكانت هذه المعجزة الربانية الخالدة، حيث رأى أنه عاجز عن إيقاع الهزيمة، وعاجز عن اغتيال رسول اللَّه ﷺ، وعاجز عن تحقق النصر له، واللَّه تعالى غني عنه وعن المؤمنين جميعًا حين حمى نبيه بالرجال البيض على الخيل البلق، يصدون الكفار عنه.

٥ - وهذه المعجزات التي برزت من نصر اللَّه تعالى لنبيه محمد ﷺ أدخلت الكثيرين في الإسلام، لكن هذه التربية التي تمت خلال شهر واحد لم تكن كافية لرفع مستوياتهم إلى المستوى الإيماني المطلوب، وكانت مهمة المال والغنائم التي شارك بعضهم من أجلها أن تلين القلوب، وجعل اللَّه تعالى هذه الغنائم من الضخامة والاتساع بحيث تسع الناس جميعًا، وتجبر خواطرهم الكسيرة وتلين قلوبهم القاسية، وتجعلهم آخر اللبنات في المجتمع الإسلامي، مجتمع المؤلفة قلوبهم، والذين تحدثوا عنه باستفاضة هم أنفسهم يوم أعطاهم رسول اللَّه ﷺ من غنائم حنين.

قال ابن إسحاق: أعطى رسول اللَّه ﷺ المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافًا من أشراف العرب، يتألفهم ويتألف بهم قومهم.

فإذن نحن أمام طراز جديد في المجتمع، وهو أن يتم تألف العشيرة من خلال رئيسها، وبقي الارتباط قائمًا بين أبناء العشيرة وسيد العشيرة، وهذا لم يكن بهذه الصنعة من قبل، حيث نذكر حديث رسول اللَّه ﷺ: **« أسلم وأشجع ومزينة وجهينة وغفار وقريش والأنصار موالي ليس لهم مولى دون اللَّه ورسوله »**.

بينما نجد التجمع الجديد الآن قائمًا على إرضاء رئيس القبيلة، حيث ترضى قبيلته بعد ذلك، ولهذا بلغ عدد المؤلفة قلوبهم من أصحاب المئتين والخمسين ما ينيف عن الخمسين، مثلوا هذه الآلاف المؤلفة، وقد ألفوا المجتمع الجاهلي

بعاداته وتقاليده، ونخرت الزعامة فيهم نخرًا فإعطاؤهم هذه الغنائم هو إقرار لزعامتهم وتألف لقلوبهم.

روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول اللّه ﷺ قومًا ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال: « **ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع أخاف هلعهم وجزعهم، وأكل أقوامًا إلى ما جعل اللّه تعالى في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب** »، قال عمرو: فواللّه ما أحب أن لي بكلمة رسول اللّه ﷺ حمر النعم[1].

٦ - وفي مراجعة شاملة للذين أعطاهم رسول اللّه ﷺ هذا العطاء، يلاحظ أن كثيرًا منهم من قريش ثم من ثقيف، ثم من قبائل متفرقة، وبالعودة إلى نصوص الحديث الوارد في التعليل النبوي لهذه الظاهرة نلاحظ جانبًا آخر غير جانب التألف على الإسلام: يقول عليه الصلاة والسلام: « **إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أَجْبُرَهُم وأتألفهم** »[2].

فلقد أفنت قريش مالها ورجالها في حرب رسول اللّه ﷺ، فتحت أرضهم بعد الحرب العوان التي استمرت هذه الأعوام الثمانية، ويريد رسول اللّه ﷺ لهذه القيادات من قريش أن تمارس دورها وفعاليتها، وتكون مع الإسلام بحيث لا تحس أن الإسلام هو الذي رزأها وجاءها الغرم منه، فكان الجواب منه عليه الصلاة والسلام واضحًا في جبران مصيبة قريش من جهة، وفي تألف هذه القيادات حديثة العهد بالكفر من جهة ثانية.

إن عظمة التربية النبوية هي في إشعار هذه القيادات أن انضمامها للإسلام ليس فقدانًا لثروتها، أو فقدانًا لزعامتها، بل دخولها في الإسلام يحفظ لها هذه المواقع، ويحفظ لها هذا الشرف، فتندفع ولا تكيد له، ونعيد إلى الذاكرة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، حديث (٩٢٣) والتوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، حديث (٧٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٠٥٩).

قول أبي جهل، الذي مثل كل قناعات القيادات المكية في فلسفة الحرب ضد النبي ﷺ: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وصرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، لا واللّه لا يكون ذلك أبدًا).

ولقد كانت قريش ترى شرفها في انتصارها على رسول اللّه ﷺ، وهكذا كانت العرب تعرف لها ذلك: (واللّه لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنشرب الخمر، وتعزف القيان، ونضرب الدفوف، حتى يسمع العرب بمسيرنا هذا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا).

بل كانت العرب جميعًا على الحياد تنتظر مصير الحرب بين رسول اللّه ﷺ وبين قريش، فكان فتح مكة يعني الهزيمة الماحقة لقريش، والقيادات التي كانت تحمل لواء الحرب ضد رسول اللّه ﷺ معروفة، من أعرق بيوتات قريش، وسمعنا قول سعد بن عبادة ﷺ يوم المسير إلى مكة: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل اللّه قريشًا).

ويأتي الجواب النبوي الخالد:

« اليوم يوم المرحمة، اليوم تعظم الحرمة، اليوم أعز اللّه قريشًا ».

لقد كانت عظمة التربية النبوية أن أشعرت هذه القيادات أن عزها بعز محمد ﷺ، وشرفها بشرفه، بعد أن كانت ترى أن عزها بهزيمته، وشرفها بسحقه والقضاء عليه، ومن أجل هذا مضوا على جاهليتهم مع رسول اللّه ﷺ إلى هوازن، على أمل انتصاره، فيكون انتصارًا لقريش على الأعراب.

وهذا ما كان يؤكد عليه الدعاة المسلمون، وهم يناشدون القيادات المكية لتنضم إلى رسول اللّه ﷺ، أمثال عكرمة وصفوان.

يقول عمير بن وهب الجمحي ﷺ لصفوان: أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.

ويقول النضير بن الحارث – بعد فشل محاولته في اغتيال رسول اللّه ﷺ –

لنفسه: لو صرت إلى الجعرانة، فقاربت رسول اللَّه ﷺ ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، فما بقي؟ فقد رأيت عبرًا، وقد ضرب الإسلام بجرانه، ولم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ، فعز محمد عز لنا، وشرفه لنا شرف.

وفي رواية: عن شيبة بن عثمان يقول: خرجت مع رسول اللَّه ﷺ يوم حنين، واللَّه ما خرجت إسلامًا، ولكن خرجت أنفًا أن تظهر هوازن على قريش.

وأدرك صفوان بن أمية هذا المعنى، حين قال أخوه لأمه كلدة بن الحنبل، وقد رأى هزيمة المسلمين، فقال: ألا بطل السحر اليوم، قال صفوان: اسكت فض اللَّه فاك، واللَّه لأن يربني رجل من قريش أحب إلي أن يربني رجل من هوازن.

وفي رواية ابن عقبة: مر رجل من قريش بصفوان بن أمية فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فواللَّه لا يجبرونها أبدًا، فقال صفوان: أتبشرني بظهور الأعراب فواللَّه لرب من قريش أحب إلي من رب من الأعراب، وغضب صفوان لذلك، وبعث غلامًا له فقال: اسمع لمن الشعار، فجاءه فقال: سمعتهم يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بني عبد اللَّه، يا بني عبيد اللَّه. فقال: ظهر محمد - وكان ذلك شعارهم في الحرب.

فإذن، اتجهت العزيمة النبوية إلى امتصاص هذه القيادات، وتذويب حقد بعضها بحيث تشعر بأن الإسلام عزها وشرفها وغناها، وبذلك تؤلف القلوب، وتمسح على الجراح باليد الحانية، ويتحبب إلى الإسلام بهذه اللعاعات من الدنيا - كما قال عليه الصلاة والسلام.

٧ - ومعنى آخر لا غنى عن التعرض له هو أن قريشًا قد أُعدت لتكون القيادة فيها، ورسول اللَّه ﷺ حريص على كل فرد فيها ليمارس دوره ومسؤوليته، وليكون على مصاف الطبقة الأولى من المهاجرين والأنصار، فالخلافة في قريش، ومن أجل هذا تفسر هذه الظاهرة، ظاهرة أن تكون القيادات التي اختارها أبو بكر ﷺ لتخوض حرب المرتدين، أن يكون فيها عناصر من المؤلفة قلوبهم، مثل

عكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية، وشاركت القيادات كلها في الجهاد بعد ذلك، فشارك صفوان وأبو سفيان وأمثالهما من مشيخة قريش في الحروب الإسلامية اللاحقة.

٨ - وتعامل رسول اللَّه ﷺ مع ثقيف على المستوى نفسه الذي تعامل فيه مع قريش، فبعد الحصار الذي استمر بضعًا وعشرين ليلة على رواية ابن إسحاق ترك الحصار.

(وروى الترمذي وحسنه عن جابر ﷺ قال: يا رسول اللَّه، أحرقتنا نار ثقيف، فادع اللَّه تعالى عليهم، فقال: « **اللَّهم اهد ثقيفًا وائت بهم** »).

ولقد آذت ثقيف رسول اللَّه ﷺ مرتين بأشد ما يكون الإيذاء، مرة في فجر الدعوة، حين التجأ إليهم يطلب حمايتهم، وجاءه الإذن الرباني بالقضاء عليهم فقال: « **إني لأرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يقول لا إله إلا اللَّه** ».

ومرة ثانية حين أرسلوا سكك الحديد المحماة على المسلمين فملؤوهم جراحًا، واستشهد من المسلمين اثنا عشر شهيدًا، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام: « **اللَّهم اهد ثقيفًا، وائت بهم** ».

واستجاب اللَّه لنبيه، ولحق وفد ثقيف رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، وفتحت الطائف أبوابها للإسلام، ولِهَدْمِ ربها اللات، الذي كانت تفاخر به العرب.

٩ - وبعد حديثنا عن الطلقاء من أهل مكة، نجد الوافدين الجدد دخلوا في الإسلام، وهم الذين كانوا يحاربونه آنفًا، وفد هوازن الذي جاء مسلمًا تائبًا، وراح يطالب بماله وعرضه، ورأينا كيف أعاد رسول اللَّه ﷺ سبايا هوازن لهوازن، وكيف قام شاعر هوازن يستجيش ما لدى رسول اللَّه ﷺ من مشاعر:

امنن على نسوة قـد كنت ترضعها   إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر

وقول خطيبهم: يا رسول اللَّه، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.

فهذه أفواج جديدة تدخل الإسلام خلال شهر من فتح مكة، إضافة إلى

الطلقاء، وقد نزع عليه الصلاة والسلام فتيل الحقد من قلوبها حين أعاد إليها سباياها، وقد كلف ذلك رسول اللَّه ﷺ رهقًا حتى تنازل المسلمون عنها.

١٠ - وبالعودة إلى القيادات، نلاحظ الموقف الخاص من مالك بن عوف، قائد هوازن الذي دخل حصن ثقيف ليتابع حربه لرسول اللَّه ﷺ، وحرص النبي عليه بحيث لم يقسم ماله ولا أهله، وأرسل إليه يدعوه إلى الإسلام، ويسترد ماله وأهله، وإذا بالقائد الشاب الذي ينز حقدًا على محمد ﷺ، يتسلل ليلًا، وينضوي تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام، ويعود قائدًا من جديد، قائدًا إسلاميًا فذًّا يقود الجموع لحرب ثقيف الكافرة، ويستاق الغنائم منها، ويفتك برجالها، ويبعث بالخمس لرسول اللَّه ﷺ، ويوقف احتمالات هجوم ثقيف على الإسلام والمسلمين في مكة والمدينة، وأعجزهم وأعياهم، حتى جاء وفدهم يدخل الإسلام، ويوقف نزيف الدماء والأموال، وكان مالك بن عوف ممن أعطى المائة من الإبل.

١١ - ولا يفوتنا في معرض الحديث عن القيادات أن نتعرض لشخصيتين شهيرتين، هما الأقرع بن حابس سيد بني تميم وعيينة بن حصن سيد بني فزارة وغطفان اللذان انضما مؤخرًا لرسول اللَّه ﷺ قبيل فتح مكة، حيث رأوا الربح والدولة للمسلمين، وحتى لا يفتح عليه الصلاة والسلام جبهة له مع هذه القبائل قبلهما، حتى إنه دخل مكة بينهما، وكانت موقفهما ابتداءً لا يتناسب مع الحس الإسلامي، فهما اللذان رفضا إعادة سبايا هوازن مع قومهما في تحد سافر، وعيينة بن حصن بالذات يستأذن رسول اللَّه ﷺ ليأتي أهل الطائف، فيقف الموقف المشين معهم، وذلك قبل أن يتمكن الإسلام من قلبه.

روى أبو نعيم، والبيهقي عن عروة بن الزبير قال: استأذن عيينة بن حصن رسول اللَّه ﷺ أن يأتي أهل الطائف يكلمهم، لعل اللَّه تعالى أن يهديهم، فأذن له، فأتاهم ودخل في حصنهم وقال: بأبي أنتم تمسكوا بمكانكم، فواللَّه لنحن بأذل من العبيد، وأقسم باللَّه لو حدث به حدث ليملكن العرب عزًّا

ومنعة، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثر عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع إلى رسول اللَّه ﷺ فقال له: « **ما قلت لهم يا عيينة؟** »، قال: أمرتهم بالإسلام، ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار، ودللتهم على الجنة، فقال له رسول اللَّه ﷺ: « **كذبت، بل قلت لهم كذا وكذا** » وقص عليه قوله، فقال: صدقت يا رسول اللَّه، أتوب إلى اللَّه وإليك من ذلك)[1].

ومع ذلك، فلا تزال الحمية الجاهلية تتنازعه، فلا يتنازل عن سباياه إلا بإغراءات جديدة مثله مثل الأقرع، وقد أعطاهما عليه الصلاة والسلام لكل واحد منهما مائة من الإبل.

وتبدو نفسية عيينة في مكان آخر حين آذن رسول اللَّه ﷺ الناس بالرحيل:

(فنادى سعد بن عبيد: ألا إن الحي مقيم، قال: يقول عيينة بن حصن: أجل واللَّه مجدة كرامًا، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك اللَّه يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول اللَّه ﷺ! فقال: إني واللَّه ما جئت لأقاتل ثقيفًا معكم، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أَتَّطِئُهَا لعلها تلد لي رجلًا، فإن ثقيفًا قوم مناكير)[2].

(روى ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي أن قائلًا قال لرسول اللَّه ﷺ: يا رسول اللَّه، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه** »)[3].

١٢ - **ولا يفوتنا الحديث عن عباس بن مرداس السلمي الذي** أراد أن يقلد عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس في زعامة قبيلته، لكنه كان دون ذلك، لا لأنه أقل كفاءة من الرجلين، ولكن لأن بني سليم ارتفع بها إيمانها فغدا ولاؤها

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٥/ ٥٦٢).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٨٥).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٦).

للّه ورسوله أكثر من الولاء للقيادات الجاهلية، ورأينا كيف أنها انضمت بألف فارس إلى الجيش الإسلامي.

فعندما قال عيينة بن حصن عن السبايا: ما كان لي ولبني فزارة فلا.

وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا.

فقال العباس بن مرداس: وما كان لي ولبني سليم فلا.

فقالت سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول اللّه ﷺ، فقال لهم: وهنتموني.

فقد عتب على قومه ولاءهم للّه ولرسوله لا له، وهذا وهن له، وإضعاف لزعامته. ومن أجل هذا لم يعطه عليه الصلاة والسلام ما أعطى عيينة والأقرع، فغضب وعاتب وقال:

كانت نهابا تلافيتها ... بكري على المهر في الأجرع[1]

فأصبح نهبي ونهب العبيد[2] ... بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن نضع اليوم لا يرفع

وكان عباس شاعرًا فحلًا، فقد انتهت هوازن، وقال فيها ما لا يقل عن سبع قصائد طوال.

ولمعرفة رسول اللّه ﷺ به، قال: « اقطعوا عني لسانه »، ففزع منها ناس وقالوا: أمر بالعباس بن مرداس أن يمثل به، وإنما أراد رسول اللّه ﷺ بقوله: « اقطعوا عني لسانه »، أن يقطعوه بالعطية من الشاء والغنم، فأعطوه حتى رضي[3].

١٣ - وبعد هذا الحديث عن القيادات في هذا الجيل الجديد، لا بد من عرض سريع لقواعده:

فقد كان هؤلاء الأعراب، وقد رأوا النصر المؤزر، ورأوا هذه الغنائم

---

(١) الأجرع: المكان السهل.

(٢) العبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام.

الضخمة، ولم يخالط الإسلام بعد حشاشة قلوبهم، كانوا يطمعون في الغنائم، وعلى حد تعبير عباس بن مرداس السلمي: إنها نهبة للمنتهب، وحتى لا يسيطر هذا الجو الجاهلي، ويتسارع الناس لانتهابها كانت التأكيدات النبوية على حرمة أخذ شيء من الغنائم قبل توزيعها:

فقد روى عبد الرزاق في جامعه عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عقيل ابن أبي طالب ﷺ دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة، وسيفه ملطخ دمًا، فقال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك فدفعها إليها، فسمع منادي رسول اللَّه ﷺ: من أخذ شيئًا فليرده حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل، وقال: ما أرى إبرتك إلا ذهبت منك، فذهب وألقاها في الغنائم[1]..

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: صلى بنا رسول اللَّه ﷺ يوم حنين إلى جنب بعير من الغنائم، فلما سلم، تناول وبرة بين أنملتين – وفي رواية: فجعلها بين أصبعيه – ثم قال: **« أيها الناس، إن هذه من غنائمكم، وليس لي فيها إلا نصيبي معكم، الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكثر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإنه عار ونار وشنار على أهله في الدنيا والآخرة »**[2].

وبهذا الحسم والشدة ضبط الأمر، وحفظت الغنائم، لكن الإلحاح الثاني من هذا الجيل الجديد مضى باتجاه طلب القسمة:

(روى ابن إسحاق في رواية يونس عن ابن عمر – رضي اللَّه عنهما –: أن رسول اللَّه ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن ركب بعيره، واتبعه الناس يقولون: يا رسول اللَّه، اقسم علينا فيئنا، حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه، فقال: **« يا أيها الناس، ردوا علي ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني جبانًا ولا كذابًا »**.

ثم قال رسول اللَّه ﷺ إلى جنب بعيره، فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٧٥).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٧٥) وهو عند أحمد (٥/ ٣١٩).

أصبعيه، فقال: « أيها الناس، واللَّه ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار وشنار على أهله يوم القيامة »، فجاء رجل من الأنصار بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول اللَّه، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر[1]، فقال رسول اللَّه ﷺ: « أما حقي منها فهو لك »، فقال الرجل: أما إذا بلغ الأمر فيها هذا، فلا حاجة لي بها، فرمى بها من يده)[2].

إن الانتقال من البداوة إلى الحضارة، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ومن القبيلة إلى الدولة، يحتاج في غير المنهج الإسلامي قرونًا حتى يترسخ هذا الانتقال، ولأول مرة يجد الأعراب أنفسهم أمام نظام ضارب جذوره في الأرض، يحاسب على الإبرة، وكبة الخيوط من الشعر، وكان هذا الدرس الواقعي أبلغ وأعظم درس على مسامع هؤلاء الأعراب، حيث قال عليه الصلاة والسلام للأنصاري: « أما حقي منها فهو لك »، ورأى أن عليه أن يأخذ السماح من اثني عشر ألف مقاتل في الجيش.

ومن أجل ذلك سارع فرماها في الغنائم قائلًا: أما إذا بلغ الأمر فيها هذا فلا حاجة لي بها.

إنها تربية علنية تتم على رؤوس الأشهاد، ومعان جديدة تطرق أذهان هؤلاء المسلمين الجدد لأول مرة.

ولا بد أن نشير إلى أن ظاهرة خطف الرداء النبوي هي ظاهرة غريبة على الحس الإسلامي في جيل ما قبل الفتح، وجيل بدر والحديبية، فقد كان الأدب الأول مع رسول اللَّه ﷺ يصل في الحديبية إلى أن يتنخم عليه الصلاة والسلام، فيسارعون إلى نخامته فيدلكون بها وجوههم، وإذا بنا أمام سرعان من الناس وفئات من الأعراب، يُلجئون رسول اللَّه ﷺ إلى ظل شجرة لتوزيع الغنيمة، ويخطفون رداءه.

---

(١) دبر: أصيب بجرح في ظهره.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٩٢).

كما نشير كذلك إلى أن إعادة سبايا حنين حرك الذعر في قلوب الأعراب، خشية أن تذهب غنائمهم، كما ذهبت سباياهم، فسارعوا يلحون في طلب قسمة الغنيمة.

ونشير ثالثًا إلى هذا التفاوت في المستويات الإيمانية، فعقيل بن أبي طالب، وهو من مسلمة الفتح يسارع، فيرمي إبرته بين الغنائم، والأنصاري يرمي كبة الشعر، خوفًا من العار والشنار والنار.

وعقيل ﷺ من النوعيات التي اختصرت الزمن، فكان أحد العشرة حول رسول اللَّه ﷺ، والذين ثبتوا معه في المعركة، وها هو الآن يعيد الإبرة إلى الغنائم، لنداء حبيبه عليه الصلاة والسلام.

١٤ - ويبتدئ توزيع الغنائم، ونجد الجديد على الحس الإسلامي بعد التوزيع، الجرأة على رسول اللَّه ﷺ بصورة غير معهودة من قبل:

(روى الشيخان والبيهقي عن ابن مسعود ﷺ قال: لما قسم رسول اللَّه ﷺ لنا هوازن يوم حنين آثر أناسًا من أشراف العرب، قال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه اللَّه، فقلت: واللَّه لأخبرن رسول اللَّه ﷺ، فأخبرته، فتغير وجهه حتى صار كالصرف. وقال: « **فمن يعدل إذا لم يعدل اللَّه ورسوله؛ رحمة اللَّه على موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر** »)[١].

لكن الغريب في الرواية أن يقول هذا الكلام رجل من الأنصار، وتزول الغرابة حين نعلم أن قائله معتب بن قشير، أحد أعمدة المنافقين في المدينة، وهو صاحب القول: (يعدنا محمد بكنوز كسرى وقيصر، ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى حاجته، ما وعدنا اللَّه ورسوله إلا غرورًا).

ويكتفي رسول اللَّه ﷺ بهذا التقريع: « **فمن يعدل إذا لم يعدل اللَّه ورسوله** ».

---

(١) والحديث باختلاف يسير أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، حديث (٣١٥٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام حديث (١٠٦٢) سبل الهدى والرشاد (٥/ ٥٨٧).

وهي طريقة فذة من طرائق التربية، يطبقها عليه الصلاة والسلام، فإذا كان الشيطان ينفخ في بعض الرؤوس العفنة أن يكون محمد ﷺ قد اتبع هواه، فيأتي الجواب: أن المساس برسول اللَّه ﷺ هو مساس برب العزة جل جلاله، فكان الجواب: « **فمن يعدل إذا لم يعدل اللَّه ورسوله** ».

ومن جهة أخرى عاد فذكر نبي اللَّه موسى عليه الصلاة والسلام، وكيف آذاه قومه، فقال: « **رحمة اللَّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر** ».

أما الناعق الثاني فكان ذا الخويصرة التميمي:

(روى ابن إسحاق عن ابن عمر، والإمام أحمد والشيخان عن جابر، والشيخان والبيهقي عن أبي سعيد أن رسول اللَّه ﷺ بينما هو يقسم غنائم هوازن، إذ قام إليه رجل - قال ابن عمر وأبو سعيد: من تميم يقال له ذا الخويصرة - فوقف عليه وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت هذا اليوم، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **أجل كيف رأيت؟** »، قال: لم أرك عدلت، اعدل، فغضب رسول اللَّه ﷺ وقال: « **شقيت إن لم أعدل، ويحك إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟!** ».

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللَّه دعني أقتل هذا المنافق، فقال رسول اللَّه ﷺ: « **معاذ اللَّه أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد فيه شيء، ثم في القدح فلا يوجد منه شيء، ثم في الفوق فلا يوجد من شيء قد سبق الفرث والدم، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم** »، ولفظ رواية جابر: « **إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم أن فيهم رجلًا أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس** ».

قال أبو سعيد - الخدري -: فأشهد أني سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس حتى

أتي به، حتى نظرت إلى نعت رسول اللَّه ﷺ الذي نعت)[١].

وهـو درس عملي آخر على الملأ، فقد كانت الوقاحة السافرة مـن ذي الخويصرة التميمي، ونعيد إلى الأذهان أنه من أتباع الأقرع بن حابس الذي سبق وتحدثنا عنه في تلك المرحلة، حيث لم يخالط الإسلام بشاشة قلبه بعد، وكيف كان يعد جنده للغنيمة والصيت والشهرة، فذو الخويصرة إذن من هؤلاء الأعراب الجدد الوافدين، فيستجيب لنزوته، فيعلن صراحة أمام رسول اللَّه ﷺ أنه لم يعدل، ويطلب عمر رضي الله عنه قتله، فلا يستجيب له عليه الصلاة والسلام.

ونلاحظ أن مثل هذه المواقف قد اختفت بعد الخندق، ولم يعد يجرؤ أحد على المواجهة، وها هي تنبت هنا من جديد، نلقاها على أشدها فيما بعد في تبوك. لقد أضيف إلى الجيل الخالص عناصر جديدة ونوعيات جديدة، تحتاج إلى تربية مستمرة، لم تكن الفرصة كافية لتتم هذه التربية. لكن رسول اللَّه ﷺ لا يدع فرصة تمر دون تربية، فحين يعلن عليه الصلاة والسلام أن لا يدع الفرصة لأعداء اللَّه أن يقولوا: « إن محمدًا يقتل أصحابه »، في الوقت نفسه نجد رسول اللَّه ﷺ يتحدث عن هذا الرجل الذي سيكون ظاهرة فيما بعد والذي سيقود تيارًا من الفرقة والخروج على إمام المسلمين والذي سيقود هذه الفرقة باسم الإسلام وبالراية الإسلامية. فالمظاهر إسلامية خالصة « **تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم... ويتعمقون في الدين** » لكن هذا التعمق يخرجهم من دين اللَّه ﷻ كما يخرج السهم من الرمية.

وهو حديث مهم جدًّا يحذر القوم جميعًا من مغبة هذا الخط ومغبة هذا الاتجاه، ويحذر من خطر هذه الشيعة التي تهدم الإسلام باسم البناء، والتي تقتل الناس باسم الإسلام وهي قد خرجت منه، إنه عليه الصلاة والسلام يحذر هذا الجيل الجديد؛ جيل ما بعد الفتح أن ينضم إلى هذا الرجل الذي

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، حديث (٣٦١٠) ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، حديث (١٠٦٤).

يشكك بالله ورسوله باسم العدل، وباسم الحق. وقد رأينا فيما بعد كيف تم قَتَلَ الرجل الرابع في الإسلام باسم هذه الراية، وباسم هذا الاتجاه... قتل علي بن أبي طالب وهو يقول له: لا حكم إلا لله لا حكم لك يا علي. فإذ شكك بعدل رسول الله ﷺ فلا بد أن يكفر عليًا ويشكك فيه بعد ذلك.

إنه جيل التطرف والتكفير الذي ينطلق من المغالاة في المظاهر بعيدًا عن فهم الإسلام وروحه ليمزق الأمة ويهدم كيانها باسم الإسلام.

١٥ - والحادثة البارزة مع قسمة الغنائم والتي كانت من أعلى مستويات الجيل الأول هي حادثة عتب الأنصار على رسول الله ﷺ؛ حيث وزعت الغنائم كلها، أما هم فلم يأخذوا منها شيئًا، ولنشهد كذلك هذا الدرس التربوي:

(روى البخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا. فكأنهم وجدوا[1]، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: « **يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي** »، كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ، قال: « **ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟** » قال: كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: « **لو شئتم لقلتم جئتنا كذا وكذا** » وفي رواية ابن إسحاق: « **أَمَا والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار[2] والناس دثار[3]، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض** »[4].

وفي رواية أنس عند البخاري: فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم،

---

(١) وجدوا: حزنوا.
(٢) الشعار: الثوب الذي يلي الجسد.
(٣) دثار: ما يلبس فوق الشعار.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف حديث (٤٣٣٠) ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، حديث (١٠٦١).

ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ وقال: « **ما حديث بلغني عنكم؟** » فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول اللَّه فلم يقولوا شيئًا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر اللَّه لرسول اللَّه ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! فقال النبي ﷺ: « **أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟! فواللَّه لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به** » قالوا: يا رسول اللَّه قد رضينا)[1].

وفي رواية ابن إسحاق: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول اللَّه قسمًا وحظًّا.

إنه لم يسبق أن غنم رسول اللَّه ﷺ مثل هذه الغنائم فيما مضى من غزواته، ها هي بمئات الألوف من الشياه، وعشرات الألوف من الإبل توزع كلها دون أن ينال أنصار اللَّه تعالى ورسوله شيئًا منها، وتحركت في نفوسهم المشاعر، خاصة ورسول اللَّه ﷺ يعطي قومه من قريش هذه الأعداد الوافرة، وبلغت القالة النبي ﷺ، وأحب أن يتأكد من صحتها، وكان ذلك اللقاء السري على مستوى القمة، حتى إن المهاجرين لم يدعوا إليه.

كان هذا اللقاء مع الأنصار رؤساء وأفرادًا وكل الأنصار قيادات في ذلك الرعيل، واستعرض عليه الصلاة والسلام ذلك التاريخ الحافل بالأمجاد والشرف للأنصار، وهو لم يغب عن ذهنه قط، بل أتاح لهم أن يعبروا عن مشاعرهم في بلائهم وجهادهم في سبيل اللَّه، وكما أعطى بلالًا وأبا موسى فضل وضوئه يشربانه ويغتسلان فيه، أعطى فلذة كبده من الأنصار ذاته وتخلى عن أهله وقومه وعشيرته « **ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وتذهبون أنتم برسول اللَّه ﷺ إلى رحالكم؟** » وأي منة في هذا الوجود أعظم من هذه المنة! سيذهب الناس بالأبعرة والغنم وستحفل أضراعها لبنًا وستنمو ثرواتهم وأما سيد البشرية سيد

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم.. حديث (٣١٤٧) ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام حديث (١٠٥٩).

ولد آدم مربي البشرية الأعظم، فسيبقى في أحضان الأنصار وفي بلدهم، يتلقون منه في كل لحظة تربية ويستمعون منه وحيًا، وينهلون منه علمًا، ويتعلمون كيف يكونون أساتذة البشرية بهذا المجد.

وماذا بقي في الوجود من أمجاد بعد ذلك! إنه سيدع مكة مولده، وأحب بلاد اللَّه إلى اللَّه، ويدع أهله وعشيرته الذين أعطاهم المئات من الإبل، والآلاف من الشياه، سيدعهم إلى إبلهم وغنمهم ونعمهم، ويمضي مع الأحباب الأوفياء الخلص، الذين قال لهم منذ لحظات البيعة الأولى: « **معاذ اللَّه المحيا محياكم والممات مماتكم** » بل سيوقف سيل الهجرة بعد اليوم وسيبقى هو في مسجده عليه الصلاة والسلام، ومع نسائه أمهات المؤمنين، وسيعود معهم إلى المدينة.

وأدرك هذا الجيل العظيم، عظمة المنة الربانية عليهم بهذا العطاء، وهذا الفضل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

سيبقى عليه الصلاة والسلام، بل دعا لهم ولأولادهم ولأحفادهم، وأكد أنه مع الأنصار تجاه الناس جميعًا، وأنه لولا الهجرة لكان امرأً من الأنصار.

كما أكد معنى آخر ربى عليه هذا الجيل، هو ألا ينتظروا مكافأة على جهادهم في الدنيا، أو ثمنًا لتضحياتهم، فهم جيل الفداء الأول في هذا الوجود، يعطي بلا ثمن، ويقدم بلا مقابل، وليس لهم إلا كما وعدهم منذ اللحظات الأولى للعقد: فما لنا إن نحن وفينا بذلك؟ قال: « **لكم الجنة** ».

قالوا: ربح البيع فلا نقيل ولا نستقيل.

وأكد لهم عليه الصلاة والسلام، أنه ليست هذه هي المرة الأولى التي يعطى فيها الناس ويحرمون، وليست الأخيرة، فسيلقون أثرة من الناس، ودعاهم إلى الصبر حتى يلقونه على الحوض، فهناك المكافأة، حيث يذاد الناس عن الحوض، ويتصدر الأنصار.

وشتان بين هذين الجيلين:

الجيل الذي يقدم الدماء والتضحيات والأموال، والجيل الذي يأخذ الغنائم والأموال.

الجيل الذي يعطي، والجيل الذي يأخذ.

وشتان بين هذين الأخذين:

بين الذي يأخذ اللغاعة من الدنيا ويأخذ الشاء والإبل والأموال.

وبين الذي يأخذ رسول اللَّه ﷺ إلى رحله وتصبح بلد الأنصار مهوى أفئدة المسلمين في الأرض إلى قيام الساعة. ذهب البعير والشاء، وبقي قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبقي مسجد المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبقيت الروضة الشريفة بين القبر والمنبر، وبقي تاريخ الإسلام وأعظم بطولاته وأعظم انتصاراته خالدة في المدينة المشرفة، بلد الأوس والخزرج، بلد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

١٦ - ولا بد من استعراض درسين مهمين من دروس التربية في حصار الطائف:

أ - روى الشيخان عن ابن عمر أو ابن عمرو ﷺ قال: لما حاصر رسول اللَّه الطائف ولم ينل منه شيئًا قال: « **إنا قافلون غدًا إن شاء اللَّه تعالى** » فثقل عليهم، قالوا: أنذهب ولا نفتح؟ وفي لفظ: قالوا: لا نبرح أو نفتحها، فقال: « **فغدوا على القتال** » فغدوا فقاتلوهم قتالًا شديدًا وكثر فيهم الجراحات، فقال: « **إنا قافلون غدًا إن شاء اللَّه تعالى** » قال: فسكتوا فضحك رسول اللَّه ﷺ[1].

قال عروة رحمه اللَّه - كما رواه البيهقي -: ارتحل رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلًا وقال: « **اللَّهم اهدهم واكفنا مؤونتهم** »[2].

لقد استمر الحصار ثلاثين ليلة أو قريبًا من ذلك، واستشهد من المسلمين، اثنا عشر شهيدًا، وتفشت الجراح في الجيش، ورأى رسول اللَّه ﷺ رؤيا: « إني

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، حديث (٦٠٨٦).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٦٩).

رأيت أني أهديت لي قبة مملوءة زبدًا فنقرها ديك، فهراق ما فيها » فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول اللَّه ﷺ: **« وأنا لا أرى ذلك »**[1].

ولأول مرة يمضي الجيش الإسلامي دون تحقيق هدفه، وهم الاثنا عشر ألفًا، وحسب التربية التي تربوا عليها والانتصارات التي حققوها، كان التوجيه النبوي لمغادرة الساحة ثقيلًا على الحس الإسلامي العام.

وأراد عليه الصلاة والسلام أن يلقن الجيش كله درسًا عمليًّا في مفهوم الطاعة والانضباط، وترك الأمر للَّه ولرسوله، فحين رأى عليه الصلاة والسلام تثاقلهم عن مغادرة الطائف، وصعوبة الأمر على مشاعرهم، أصدر أوامره عليه الصلاة والسلام للخروج إلى القتال، وفرح المسلمون بذلك، وخرجوا لمواجهة ثقيف في حصونهم، واستعملوا سلاح المنجنيق والدبابة لأول مرة في الحرب النبوية، وهي خبرة جديدة أضيفت إليهم - على اختلاف الروايات في مصدرها - ولم يجد هذا السلاح الجديد أمام سكك الحديد المحماة التي كانت تنقض عليهم من الحصون فتحرقهم، وعندما جاء النداء الجديد بمغادرة الحصون فرح المسلمون بذلك.

إنه لا بد للقيادة الفذة من أن تتحرى مشاعر جنودها، وتربط بين أوامرها وهذه المشاعر، بحيث يتم الالتحام بين هذين الجانبين. والنفوس عندما تتوثب، وترتفع وتيرة المشاعر لمواجهة العدو، وتصعد العواطف للمواجهة، بإلغاء هذه الحرب، سيكون الغليان والإحباط، والشك في القيادة. وتوجيه هذه العواطف والمشاعر ضد القيادة نفسها تتهمها بالعجز والتخاذل، وينقض البناء الداخلي، ويصبح نهبة لكل الإشاعات والظنون السيئة التي تقتل الجيش كله... وجاءت عظمة التربية النبوية لتعطي الأجيال على مدار التاريخ وهو - عليه الصلاة والسلام - الذي لم يعص قط من جيشه، تعطى هذه الأجيال فقه القيادة التي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٨٢).

تدرب النفوس وتهيئها لتلقي هذه الأوامر، والتفاعل معها، والقناعة فيها، وذلك خلال يوم واحد فقط، حيث انقلبت المشاعر كلها من النقيض إلى النقيض.

ومن جهة ثانية فقد شاءت إرادة اللّه تعالى أن يحفظ القريتين - مكة والطائف - من القتل العام والاستباحة الشاملة، ولم يمر تسعة أشهر إلا وكان وفد ثقيف على أبواب المدينة يعلن إسلامه، وبقيت قوة ثقيف مذخورة كلها لتنضم إلى الجيش الإسلامي.

ومن جهة ثالثة، فقد كان الأجدى في حصار الطائف حرب العصابات، لا حرب المواجهة الشاملة، وقاد مالك بن عوف سيد بني هوازن هذه الحرب، فقد كانت في حقيقة الأمر حربًا داخلية، فمالك بن عوف من هوازن، وثقيف من هوازن، وهو أدرى الناس بثقيف وقوتها، وطاقاتها وحربها، وهو الذي حطم نفسية المقاومة والهجوم عند ثقيف، وضجت ثقيف منه واهتزت حتى ليقول شاعرها وهو يرى انقضاض مالك بن عوف ببني سلمة عليهم:

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة
وأتانا مالك بهم ناقضًا للعهد والحرمة
وأتونا في منازلنا ولقد كنا أولي نقمة[1]

فلم يكن تراجع رسول اللّه ﷺ هزيمة عسكرية بمقدار ما كان تغيير خطة حربية؛ لأنه لو كان هزيمة عسكرية لأمكن أن تنقلب كثير من الموازين، وأمكن أن نجد ثقيفًا تقوم بالغارات على المدينة متحدية المسلمين في عقر دارهم، لكن الصورة انعكست تمامًا، بهجوم مالك عليها فأجهض كل الاندفاع عندها حتى انهارت تمامًا، وجاءت إلى المدينة مسلمة.

ب - ذلك الدرس العام، لكن الدرس الخاص نحن بحاجة إليه كذلك، نفقه منه كيف يتعامل القائد مع جنده ليكون درسًا لقياديي الأرض كذلك، ويكفي أن ننقله دون تعليق، ففي رواية الجندي المسلم له أبي رهم الغفاري وما حشد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٩٦).

فيه من مشاعر، ما يغنينا عن أية إضافة:

روى محمد بن عمر عن أبي رهم الغفاري ﷺ قال: بينا رسول اللَّه ﷺ يسير وأنا جنبه وعلي نعلان غليظان، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول اللَّه ﷺ ويقع حرف نعلي على ساق رسول اللَّه ﷺ فأوجعته فقال ﷺ: « **أوجعتني، أخِّر رجلك** » وقرع رجلي بالسوط، فأخذني ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وخشيت أن ينزل في قرآن لعظم ما صنعت، فلما أصبحنا بالجعرانة. خرجت أرعى الظهر[1] وما هو يومي فرقًا[2] أن يأتي رسول اللَّه ﷺ، ورسول اللَّه ﷺ يطلبني، فلما روحت الركاب سألت فقيل لي: طلبك رسول اللَّه ﷺ فقلت: إحداهن واللَّه، فجئت وأنا أترقب، فقال: « **إنك أوجعتني برجلك، فقرعتك بالسوط فأوجعتك، فخذ هذه الغنم عوضًا عن ضربي** ».

قال أبو رهم: فرضاه عني كان أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وفي مجال الدروس التربوية نستعرض في ختامه حادثة، لم أعرها اهتمامًا لأول وهلة، لكني شعرت فيما بعد أنها نقطة تحول كبرى في تاريخ هذه الأمة، فلا بد من عرضها لنشهد من خلالها كيف تمت تربية هذه الأمة على يد سيدها وسيد البشرية عليه الصلاة والسلام.

بين عيينة والأقرع:

نقل محمد بن إسحاق، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا:

صلى رسول اللَّه ﷺ الظهر يومًا بحنين، ثم تنحى إلى شجرة فجلس إليها، فقام إليه عيينة بن حصن، يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعي - وهو يومئذ سيد قيس - ومعه الأقرع بن حابس، يدفع عن محلم بن جثامة لمكانه من خندف. فاختصما بين يدي رسول اللَّه ﷺ وعيينة يقول: يا رسول اللَّه واللَّه لا أدعه حتى أُدخل على نسائه من الحرب[3] والحزن ما أدخل على نسائي، فقال

---

(١) الظهر: الإبل العامة. (٢) فرقًا: خوفًا.

(٣) الحرب: سلب المال.

رسول اللَّه ﷺ: « تأخذ الدية » فأبى عيينة بن حصن حتى ارتفعت الأصوات وكثر اللغط إلى أن قام رجل من بني ليث يقال له مكتل، قصير مجتمع، عليه شكة[١] كاملة ودرقة[٢] في يده، وقال: يا رسول اللَّه إني لم أجد لما فعل هذا شيئًا شبهًا في غرة الإسلام إلا غنمًا وردت فرمي أولها فنفر آخرها، فاسنن اليوم وغيره غدًا، فرفع رسول اللَّه ﷺ يده وقال: « تقبلون الدية خمسين في فورنا هذا، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة » فلم يزل رسول اللَّه ﷺ في القوم حتى قبلوا الدية.

وفي رواية: فقام الأقرع بن حابس فقال: يا معشر قريش[٣] سألكم رسول اللَّه ﷺ قتيلًا تتركونه ليصلح به بين الناس، فمنعتموه إياه أفأمنتم أن يغضب عليكم رسول اللَّه ﷺ ويغضب اللَّه تعالى عليكم بغضبه، أو يلعنكم رسول اللَّه ﷺ، فيلعنكم اللَّه تعالى بلعنته، واللَّه لتسلمنه إلى رسول اللَّه ﷺ أو لآتين بخمسين من بني ليث كلهم يشهدون أن القتيل ما صلى قط، فلأبطلن دمه، فلما قال ذلك قبلوها، ومحلم القاتل في طرف الناس، فلم يزالوا يؤزونه ويقولون: ائت رسول اللَّه ﷺ يستغفر لك.

فقام محلم وهو رجل ضرب طويل آدم محمر بالحناء، عليه حلة، كان قد تهيأ فيها للقتل القصاص، فجلس بين يدي رسول اللَّه ﷺ وعيناه تدمعان، فقال: يا رسول اللَّه قد كان من الأمر الذي بلغك، وإني أتوب إلى اللَّه، فاستغفر لي، فقال رسول اللَّه ﷺ: « ما اسمك » قال: أنا محلم بن جثامة، فقال: « أقتلت بسلاحك في غرة الإسلام؟! اللَّهم لا تغفر لمحلم » بصوت عالٍ ينفذ به الناس. فعاد محلم فقال: يا رسول اللَّه قد كان الذي بلغك، فإني أتوب إلى اللَّه، فاستغفر لي، فعاد رسول اللَّه ﷺ لمقالته بصوت عالٍ ينفذ به الناس: « اللَّهم لا تغفر لمحلم ابن جثامة » حتى كانت الثالثة فعاد رسول اللَّه ﷺ لمقالته ثم قال رسول اللَّه ﷺ: « قم من بين يدي » فقام من بين يدي رسول اللَّه ﷺ وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه،

---

(١) شكة: السلاح. (٢) الدرقة: الترسة من الجلد.

(٣) قريش: تصحيف وهي قيس، انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٢٨).

فكان ضمرة السلمي يحدث - وقد كان حضر ذلك اليوم - قال: كنا نتحدث فيما بيننا أن رسول اللّه ﷺ حرك شفتيه بالاستغفار له، ولكنه أراد أن يعلم الناس قدر الدم عند اللّه تعالى[١].

لقد كان لمضر فرعان كبيران:

- فرع قيس عجلان بن مضر، ومنه فزارة وأشجع وغطفان.

- والفرع الثاني: إلياس بن مضر ومنه تميم وكنانة وقريش.

والأقرع بن حابس سيد بني تميم، والقاتل محلم بن جثامة من ليث من كنانة، وعيينة بن حصن سيد غطفان وبني فزارة، وعامر بن الأضبط المقتول سيد قيس من الفرع نفسه.

وأن تقع حروب وثارات بين هذين الفرعين الكبيرين قد لا تنتهي بسنوات طوال كما هي العادة في أيام العرب. وتميم وغطفان بينهما ثارات لا تنتهي وأيام لا تنقطع، فكان مقتل عامر بن الأضبط الأشجعي يمكن أن يعيد سيرة مقتل كليب، وسيرة حرب البسوس التي استمرت أربعين عامًا. وعيينة بن حصن يود أن يثأر لعامر من ليث وبني تميم وعرض رسول اللّه ﷺ الدية لأن القتل قد تم في ظروف غير طبيعية كما تقول رواية ابن إسحاق:

بعثنا رسول اللّه ﷺ إلى إضم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث ابن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود[٢] له ومعه متيع[٣] لـه ووطب[٤] من لبن فلما مر بنا سلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه. وحمل عليه محلم ابن جثامة فقتله بشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره، وأخذ متيعه. قال: فلما قدمنا على رسول اللّه ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

---

(١) سبل الهدى والرشاد.

(٢) قعود البعير: الجمل الصغير.

(٣) الـمُتَيِّع: تصغير متاع.

(٤) الوطب: وعاء اللبن.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤].

فقد جاءت هذه الآية عقب الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

فالقرآن الكريم هنا جاء لينبه على عدم القتل للظنة، وأنه سلم بتحية الإسلام تعوذًا من القتل، ولهذه الشبهة عرض رسول اللّه ﷺ الدية. ولكن عيينة يريدها حربًا عوانًا لا يكتفي فيها بقتل محلم - كما هي عادة العرب يومئذ - لأن عامرًا ليس رجلًا عاديًّا إنما هو سيد قومه قيس. ويأتي الأمر النبوي إقناعًا ابتداءً، ثم أمرًا صارمًا بعد ذلك، وعيينة يأبى، فقام الأقرع بن حابس ينذر قيسًا من مغبة الإصرار على القتل، والخروج عن الرضى النبوي بالدية، وأن لعنة اللّه تحل بهم وغضبه حين يرفضون الدية ويصرون على القتل، وكان الهدف كما قال الأقرع: يستصلح به الناس.

وجاء في هذا المجتمع الجديد الخوف من لعنة اللّه وغضبه، لتذيب الثأر والحقد، وجاءت طاعة اللّه ورسوله لتحل محل العصبية الجاهلية المنتنة، وعاد الحيان بعد ذلك ليمارسا دورهما في المجتمع الإسلامي.

إن مجتمعًا يتحول من مجتمع ثارات وعصبيات أكلته ونهشته خلال القرون، إلى مجتمع جديد ينطلق بقيادته وقواعده من أوامر اللّه ورسوله، وتنتهي القضية بقتيل ودية، قتل في ظروف يشك فيها بالقتل العمد، لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد فهل يبقى القاتل آمنًا وقد توزعت ديته على قبيلته وانتهى الأمر، فيستسهل الناس أمر سفك الدم الحرام بهذه الصورة، أو يتعللون بأسباب واهية، فيقتلون على ما يحلو لهم في غرة الإسلام وبلد الإسلام.

كان هذا الموقف الرهيب الذي وقف فيه القاتل بين يدي رسول اللّه ﷺ يطلب منه المغفرة وعلى ملأ من الناس، أمام الجيش كله، ويتوقع الناس من رسول اللّه ﷺ طلب المغفرة له من رب العالمين. وكان ما لم يشهده المسلمون

طيلة حياتهم كلها لرجل مسلم:

« **اللَّهم لا تغفر لمحلم بن جثامة** »

وذلك لأن هذا المسلم انتهك حرمة الإسلام بقتل امرئ سلم عليه بتحية الإسلام فأخذه بذحول الجاهلية وانتقم منه لثارات له عنده (فقتله لشيء كان بينه وبينه).

وعند اللَّه لا تخفى خافية، وقد أكد القرآن الكريم انحراف هدف القاتل من ثنايا الآية: ﴿ تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ ﴾ [النساء: ٩٤].

فلم يمر أمر القتل بهذه السهولة، لقد حذر القرآن الكريم منه تحذيرًا رهيبًا بشكل عام، أما الصورة الخاصة فقد جاءت بهذا المنظر الذي تقشعر له الأبدان، أن يرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثلاثًا، ألَّا يغفر لمحلم؛ لأنه قتل رجلًا مسلمًا في غرة الإسلام. فقام عنه وهو يكفكف دموعه وأين يذهب محلم بعد أن طرده رسول اللَّه ﷺ ومن يعرض عليه اللجوء بعد أن عد طريد اللَّه ورسوله؟؟؟

وفيما رواه ابن إسحاق عن الحسن البصري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **أمنته باللَّه ثم قتلته؟** » ثم قال المقالة التي قال، فواللَّه ما مكث محلم بن جثامة إلا سبعًا حتى مات فلفظته الأرض، ثم عادوا فلفظته، فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين[1] فسطحوه بينهما ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه قال فبلغ رسول اللَّه ﷺ شأنه فقال: « **واللَّه إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن اللَّه أراد أن يعظكم في حرمة ما بينكم بما أراكم منه** »[2].

وأن يكون هذا التجمع الإسلامي - لا قدر اللَّه - نزوة من نزوات الثأر الدفينة فأين يبقى الإسلام ودعاته بعد ذلك؟

إن كثيرًا من الدعوات والحركات الإصلاحية في التاريخ لم تقم إلا على

---

(١) صدين: جانبين مرتفعين.

(٢) سيرة ابن هشام (٦/ ٤٠).

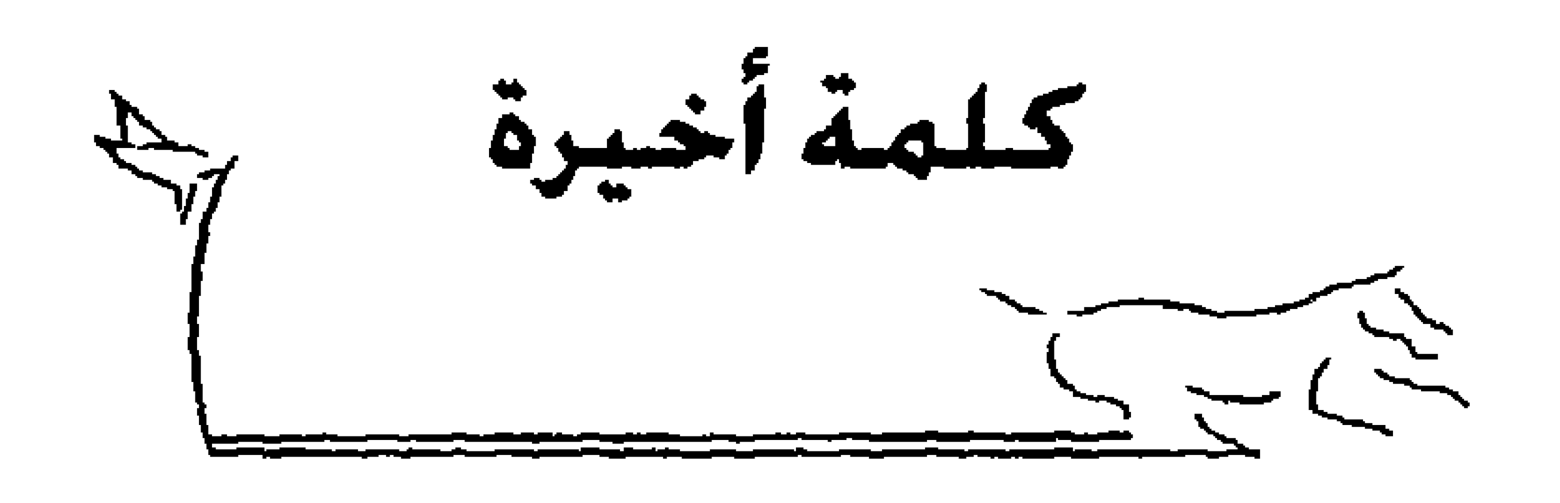
جماجم القتلى، بل ويتحول القتل إلى صفها من أجل المحافظة على المنصب والموقع، ويبقى الإسلام في هذا الوجود في النموذج النبوي الخالد أعظم صفحة ناصعة في تاريخ الوجود كله، ومثل هذا الدرس العظيم الذي تلقاه الجيش الإسلامي كله حيث يدعو رسول اللَّه ﷺ ربه أن لا يغفر للقاتل ثلاثًا، هو الذي جعل الدماء التي أريقت كلها من أجل العقيدة، والعقيدة فقط، وهو الذي حوَّل تاريخ الأمة خلال التاريخ من أمة تأكل بعضها بعضًا وتفني بعضها بعضها دون أن يقتل بعضها بعضًا، إلى أمة يلتقي فيها الأعداء الألداء تحت راية الفكرة الواحدة، وتنقسم إلى معسكر الإيمان والكفر، ويحاسب محلم لأنه قتل عامرًا لشيء كان بينهما وهو جندي في سرية إسلامية.

وإذ بعيينة بن حصن والأقرع بن حابس يخوضان أول تجربة إسلامية، فيخضعان للأمر النبوي ويمضيان في تنفيذه.

١٧ - وإن كان بين بدر وحنين من وشيجة فبين حنين وأحد وشيجة أقرب كذلك: لقد كانت محنة أحد ومحنة حنين تنطلقان من خط واحد، هذا الخط هو الخلل في البناء الداخلي والإعجاب بالنفس والزهو بعد النصر، ليطامن غلواء المسلمين ويعيد الأمر إلى محضنه الطبيعي بحيث تخلص العقيدة بالارتباط باللَّه وحده لا بالخلائق والأسباب، وما يربط بين الغزوتين كذلك: الثبات الأشم لسيد الخلق، الذي قلب الموازين وغيَّر النتائج، ويربط بينهما كذلك تمحيص الصف: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]. وهو هدف تربوي ذو أهمية بالغة في تاريخ الدعوات والرجال.

***

كلمة أخيرة



غزوة مؤتة:

وهي أعظم غزوة في تاريخ البشرية حيث يحقق ثلاثة آلاف النصر على مائتي ألف من العرب والروم - على أصح الروايات - ولكن الأعظم من هذه الأحداث هو بروز شخص خالد بن الوليد ﷺ ظاهرة في التاريخ الإسلامي بعد أن أطلق عليه رسول اللّه ﷺ لقب (سيف اللّه) وقال : (ثم أخذ اللواء خالد ابن الوليد ولم يكن من الأمراء، هو أمَّر نفسه، فرفع رسول اللّه ﷺ إصبعيه وقال: « **اللّهم هو سيف من سيوفك فانصره** » وقال عنه الرحمن (فانتصر به) فيوم إذن سمي خالد سيف اللّه)[1].

مع الإشارة إلى فتح ملف الأمم المجاورة من خلال هذا اللقاء التمهيدي مع إمبراطورية الروم، وتطبيق أخلاق الحرب في السيرة النبوية على أهل الأرض.

غزوة تبوك:

ولم أتعرض لغزوة تبوك رغم أن قرابة نصف سورة التوبة قد ورد في أحداثها ورجالها، إذ لم تجر فيها حرب ضد العدو، ولا لقاء معه، إنما كانت دورة حربية عتيقة تربوية مكثفة لثلاثين ألفًا من الناس، لا يحويهم مسجد ولا تستوعبهم مدينة، وكانت مناورات حربية من جهة ثانية ألقت الرعب في قلوب الأعداء والمتربصين، فدعا هذا الحضور المكثف في تبوك إلى طلب الصلح من كل الدويلات المجاورة لتبوك، وسارعت في مصالحة الرسول ﷺ، وطلب رضاه، حيث كان صلح أهل إيلات وأهل تيماء وأهل أقنا وغيرهم.

وإن كانت سورة التوبة قد افتتحت بآية براءة التي تم فيها تحديد الأرض

---

(١) صحيح السيرة النبوية (ص٣٩٢).

العربية من جزيرة العرب إذ لا يقبل فيها إلا الإسلام و « **لا يجتمع في جزيرة العرب دينان** ».

أما خارج جزيرة العرب، فقد أصبحت آية التوبة هي الصورة النهائية للتعامل مع المسلمين، والتي مثَّلها الرسول ﷺ للتعامل مع البشرية كافة وهي متأخرة في التنزيل عن آيات براءة ليدل على أن آيات براءة هي الاستثناء من الأصل العام، وتبقى عنوانًا لشريعة اللَّه في الأرض وتوجيهها للبشرية كافة كيف تكون أخلاقها في الحروب.

كان رسول اللَّه إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال « **اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة اللَّه ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة اللَّه وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم اللَّه، فلا تنزلهم على حكم اللَّه، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم اللَّه فيهم أم لا** »)[1].

***

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت، حديث (١٧٣١).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١ - أسد الغابة في تاريخ الصحابة. ط. كتاب الشعب.

٢ - الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ) المكتبة العربية - لبنان.

٣ - اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، الطبعة الثانية (١٣٦٩هـ - ١٩٦٠م).

٤- الاكتفاء في مغازي المصطفى للكلاعي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، نشر مكتبة الخانجي، ط (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

٥ - إمتاع الأسماع للمقريزي، الجزء الأول، صححه محمود أحمد شاكر، الطبعة الثانية، نشر بإشراف عبد الله إبراهيم الأنصاري، قطر.

٦ - البداية والنهاية لابن كثير، مطبعة الفجالة الجديدة، مراجعة محمد عبد العزيز النجار.

٧ - تاريخ الإسلام للذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) تحقيق: د. عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٨ - التاريخ الكبير للإمام البخاري، طبع تحت مراقبة الدكتور محمد عبد المعين خان.

٩ - تفسير ابن كثير، دار الفكر، تحقيق لجنة من العلماء، الطبعة الأولى (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م) (في ستة أجزاء مفهرسة).

١٠ - تفسير ابن كثير للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ)، نشر: دار ابن حزم ودار الوراق للنشر والتوزيع (مجلد واحد) الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١١ - تيسير المنفعة بكتابي مفتاح كنوز السنة، والمعجم المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ - ١٩٨٦م).

١٢ - جامع البيان في تفسير القرآن، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، بيروت - لبنان (١٢) مجلد (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

١٣ - جامع الترمذي، حققه وعلق عليه: عادل مرشد، الناشر: مكتبة دار البيان الحديثة ودار الإعلام (مجلد واحد) طبعة أولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

١٤ - الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق وشرح: أحمد شاكر (في خمسة أجزاء) مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م).

١٥ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – أبي عبد اللّه بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى (٦٧١هـ – ١٢٧٣م).

١٦ – حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الديبع الشيباني، إشراف وتحقيق عبد اللّه إبراهيم الأنصاري – قطر.

١٧ – الخصائص الكبرى للسيوطي، تحقيق: د.محمد خليل هراس، الناشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، مطبعة المدني.

١٨ – الدر المنثور في التفسير المأثور للامام عبد الرحمن جلال السيوطي دار الفكر، بيروت للطباعة والنشر والتوزيع (الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) ٨ مجلدات).

١٩ – دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق وتوثيق: د.عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ)، (في سبعة مجلدات).

٢٠ – الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، توزيع رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ).

٢١ – الروض الأنف للسهيلي، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، ط (١٣٩١هـ – ١٩٧١م) الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.

٢٢ – زاد المعاد لابن قيم الجوزية، مراجعة طه عبد الرؤوف طه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط (١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م).

٢٣ – سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م)، (في ثلاثة عشر مجلدًا).

٢٤ – سقوط الجولان لخليل مصطفى، دار النصر للطباعة الإسلامية، بدون تاريخ.

٢٥ – سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط (١٣٧٥هـ – ١٩٥٢م).

٢٦ – سنن أبي داود للإمام أبي داود السجستاني، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر، توزيع مكتبة الرياض الحديثة (أربعة أجزاء في مجلدين).

٢٧ – سنن النسائي للإمام النسائي، ط. مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م).

٢٨ – السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م).

٢٩ – السيرة النبوية للدكتور السباعي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة (١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م).

٣٠ – السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، الطبعة الثانية (في مجلدين)، (١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م).

٣١ – السيرة النبوية لابن هشام، دار الغد الجديد، المنصورة (مجلد واحد) تحقيق الشيخ أحمد جاد، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ – ١٩٨٧م).

٣٢ – السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، منشورات المكتبة العصرية، بإشراف عبد اللّه إبراهيم الأنصاري – قطر.

٣٤ – شرح السنة للبغوي، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية – الرياض.

٣٥ – شرح المعلقات السبع للزوزني، ط المكتبة الفيصلية.

٣٦ – شرح المواهب للزرقاني، ولم يذكر اسم الطبعة ولا السنة التي طبع فيها.

٣٧ – الشمائل للترمذي، إخراج وتعليق محمد عفيف الزعبي، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م).

٣٨ – صحيح البخاري للإمام البخاري، كتاب الشعب، مطابع دار الشعب (في تسعة أجزاء في ثلاثة مجلدات).

٣٩ – صحيح البخاري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، الناشر: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ط (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) (مجلد واحد).

٤٠ – صحيح الجامع الصغير للألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م).

٤١ – صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، راجعه د. همام سعيد، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ – ١٩٩٥م).

٤٢ – صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م).

٤٣ – صحيح مسلم، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، الناشر: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – مجلد واحد – ط (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م).

٤٤ – الطبقات الكبرى لابن سعد، كتاب الشعب، ط. دار التحرير، الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م).

٤٥ – فتح الباري لابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية (في أربعة عشر مجلدًا) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

٤٦ – فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الخامسة (١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م).

٤٧ – فضائل الصحابة للإمام أبي عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل، حققه وخرج أحاديثه: وصي اللّه ابن محمد عباس، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م).

٤٨ – فقه السيرة للأستاذ محمد الغزالي، طبع على نفقة أمير قطر، حقق أحاديثه الألباني.

٤٩ – فتوح مصر وأخبارها، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحكم، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب، طبع في مدينة ليدن عام (١٩٢٠م).

٥٠ – في ظلال القرآن لسيد قطب، ط. دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة (١٣٩٨هـ).

٥١ – القاموس المحيط للفيروزآبادي، دار الجيل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

٥٢ - كتاب المغازي للواقدي، الدكتور مارسدن جونس، مطبعة جامعة أكسفورد (١٩٦٦م).

٥٣ - المجتمع المدني للدكتور أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٥٤ - مجمع الزوائد للهيثمي، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعةالثانية (١٩٦٧م).

٥٥ - مختصر سيرة الرسول ﷺ لمحمد بن عبد الوهاب، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

٥٦ - مختصر صحيح مسلم للمنذري، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

٥٧ - مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل، طبعة المكتب الإسلامي، الناشر دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٩٦٨م).

٥٨ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للدكتور فنسنك، تأليف لفيف من المستشرقين، مطبعة بريل في مدينة ليدن.

٥٩ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي.

٦٠ - مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، من منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ).

٦١ - المغازي النبوية للزهري، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

٦٢ - مفتاح كنوز السنة للدكتور فنسنك، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: سهيل أكديمي، لاهور، طبعة (١٣٩١هـ - ١٩٧١م).

* * *

السيرة الذاتية للمؤلف

د. منير محمد الغضبان.

من مواليد: التل، دمشق، سنة (١٩٤٢م).

السجل التعليمي:

- إجازة في الشريعة، جامعة دمشق، (١٩٦٧م).
- دبلوم عام في التربية، جامعة دمشق، (١٩٦٨م).
- ماجستير في اللغة العربية من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، (١٩٧٢م).
- دكتوراه في اللغة العربية من جامعة القرآن الكريم بالسودان، (١٩٩٧م).
- حائز على جائزة سلطان بروناي للسيرة النبوية، عام (٢٠٠٠م).

السجل الوظيفي:

- التدريس في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية بدمشق عام (١٩٧٢م).
- موجه تربوي بإدارة تعليم البنات بالطائف (١٣٩٣ - ١٣٩٥هـ).
- موجه العلوم الدينية برئاسة تعليم البنات بالمملكة العربية السعودية (١٣٩٥ - ١٤٠٠هـ).
- داعية في الخارج برئاسة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية (خارج المملكة)، (١٤٠٠ - ١٤٠٧هـ).
- باحث تربوي بجامعة أم القرى بمركز الدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، (١٤٠٧ - ١٤٢٠هـ).
- باحث ثقافي في الندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٤١٢هـ).

السجل الفكري والعلمي:

- مقالات متعددة في الصحف والمجلات الإسلامية.
- مشاركة في تأليف الكتب المدرسية في رئاسة تعليم البنات في الرياض (أصول التدريس، محو الأمية، كتب الفقه والحديث).

له العديد من المؤلفات الإسلامية والفكرية؛ منها:

١ - أبو ذر الغفاري - الزاهد المجاهد (١٩٧٠م).

٢ - من معين التربية الإسلامية (١٣٩٨هـ).

٣ - هند بنت عتبة (١٣٩٩هـ).

٤ - إليكِ أيتها الفتاة المسلمة (١٣٩٩هـ).

٥ - الحركات القومية في ميزان الإسلام (١٤٠٠هـ).

٦ - معاوية بن أبي سفيان الملك المجاهد (١٩٨٠م).

٧ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجهادية)، (ثلاثة مجلدات)، (١٤١٤هـ).

٨ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية القيادية)، (أربعة مجلدات)، (١٤١٩هـ).

٩ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية الجماعية)، (مجلدان)، (١٤٢٠هـ)

١٠ - عمرو بن العاص الأمير المجاهد (١٤٢١هـ).

١١ - المنهج التربوي للسيرة النبوية (التربية السياسية)، (مجلدان)، (١٤٢٤هـ).

١٢ - التربية السياسية للطفل (رؤية من خلال السيرة النبوية)، (١٤٢٥هـ).

١٣ - إليك أيها الفتى المسلم (١٤٣٠هـ).

***

رقم الإيداع

٢٠١٠/٩٠٨٤

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 977 - 342 - 884 - 6

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية » ورغبة منا في تواصلٍ بنّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... **حي :** .... **شارع :** .... **ص.ب:** ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) ....العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :


نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



الكتاب في سطور

أعظم ما شهدت الأرض من سيد ولد آدم الذي فاز وحده بهذه الشهادة من رب العالمين: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ هذا الإنسان الذي كان للوجود كله بكل عوالمه رحمة وهو يحارب، ورحمة وهو يسالم، ورحمة وهو يخاصم، وعلى سبيل الحصر والقصر الذي ليس إلا له ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

إنها جولة في أعماق السيرة الجهادية لإمام البشرية، والمعيشة معه في غزواته، وكيف كان يربي خصومه وهم يحاربونه، وكيف ينتزع شهادة ألد أعدائه أبي سفيان: (لقد حاربتك فكنتَ نعم المحارب، وسالمتك فكنتَ نعم المسالم)، ويفديه بأمه وأبيه وهو يثني على خُلُقه: (بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!).

وشهادة شيبة الذي جاء يغتاله قائلًا: (اليوم أدرك ثأري من محمد... قال لي: « ادن مني » فدنوت منه، فوضع يده على صدري وقال: « اللهم أذهب عنه الشيطان » فرفعت إليه رأسي وهو أحب إليَّ من سمعي وبصري وقلبي.. فتقدمت بين يديه أحب والله أن أقيه بنفسي من كل شيء).

فإلى هذا العالَم الرباني النبوي، إلى بؤرة النور من نور هذا المعمور.



الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

